الخدمة السرية أو ذكريات محقق في المدينة

أندرو فورستر

ترجمة محمد يحيى

الخدمة السرية أو ذكريات محقق في المدينة

تأليف
أندرو فورستر

ترجمة
محمد يحيى

مراجعة
هاني فتحي سليمان

هنداوي

الخدمة السرية أو ذكريات محقق في المدينة

أندرو فورستر

Secret Service or Recollections of a City Detective

Andrew Forrester

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: **hindawi@hindawi.org**
الموقع الإلكتروني: **https://www.hindawi.org**

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤١٢ ١

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٦٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

حيلتي الكبرى في الحملة الانتخابية	٧
هُوية مغلوطة	٢٩
امرأة منعدمة الضمير	٣٩
عصابة الحَرْق العَمْد	٤٧
حادثة على شريط السكك الحديدية؟	٧٧
زلة حلَّاق وطني	٨٧
رومانسية الحياة الاجتماعية	٩٧
قوة جواز السفر الأمريكي	١١٩
مَنْ هو أسوأ مجرم؟	١٢٩
مكيدة كبرى في شركة السكك الحديدية	١٤٥
قصة من العدالة الجنائية	١٦١
طبيبُ ملجأ الفقراء	١٦٩
الوصية المفقودة	١٨١
لغزُ الدوق	١٨٧
المحامي والمهرب	١٩٥
الاحتيالُ وفقًا لقانون البرلمان	٢٠١
مراقبتي لإحدى الزوجات	٢١١

حيلتي الكبرى في الحملة الانتخابية

منذ نحو ١٢ عامًا، كانت هناك انتخاباتٌ مرتقَبة في البلدة «إن». وهي مكان سيِّئ السمعة يُشتهَر بالرِّشوة، وأنا أعرفُ هذا الأمرَ جيدًا؛ نظرًا إلى أنني كنتُ مهتمًّا على نحوٍ مِهْني بمتابعة العديد من الانتخابات. كما أنها مدينة غيرُ اعتيادية. لقد كانت فيما مضى مكانًا مزدهرًا للغاية. حيث تختصُّ بصناعة المشابك المعدِنية، وتنفردُ بها عن أي مكان آخَر؛ ولكنَّ روحًا شريرة تتسم بالرِّقة الزائفة اجتاحَت كِيانها في تلك الأيام.

كان بإمكان عبقريةِ اثنَين أو ثلاثةٍ من رجال الأعمال المشهورين أن تستفيدَ من الموقع المحايدِ والآفاق المستقبَلية لتلك البُقعة والمنطقة المجاورة لتأسيس صناعةٍ جديدة هناك، وتوفير فرصِ عملٍ لعددٍ هائل من الحِرفيِّين المهَرة. لكنَّ عمل هؤلاءِ الناس يعتمد من أولِه إلى آخرِه على الدُّخَان المتصاعد من فوهات مداخنِ المصانع. وقد قرَّر عُمدة البلدة والمجلس المحلِّي بها، عملًا بما يخدم المصلحةَ المزعومة لسكانها، التخلصَ من جميع المداخنِ داخل بلدتهم. واستصدَروا قانونًا من البرلمان يُقرُّ مثلَ هذه اللوائح البلدية ويُمكِّن هؤلاء الحُكماءَ من إبعاد الإبداع المهدَّد بالاندثار، الذي يقومُ في الأساس على الدخان الذي يُنتِج ذهبًا. ومِن ثَمَّ، كان على الصِّناعة الجديدة أن تستقرَّ في منطقة مُجاورة خارجَ سيطرة المجلس المحلي للبلدة. وبعد أن حدث هذا الإنجازُ بنجاح، استمرَّت المنطقةُ المحيطة في الازدهار بسرعةٍ حتى وصلَت إلى مكانتها الحاليَّة المرموقة في هذا المجال، وتدهورَت تِجارةُ البلدة حتى وصلَت إلى حالتها الحاليَّة البائسة أو المتردية. في هذه الأثناء أيضًا، اندثرت حافلاتُ النقل، التي كانت تسير باستمرارٍ في شوارعها جالبةً معها قليلًا من الثروة للسكان؛ نظرًا إلى أن البلدة كانت تقع على المسار الشمالي الكبير لطريق رئيسي، وقد حدث ذلك بسبب المنافسة غيرِ المتكافئة مع خطِّ السكك الحديديَّة؛ وهكذا أصبحت البلدةُ بمرورِ الوقت على ما هي

عليه الآن؛ مكانًا خاليًا رثًّا وذا أهمية مصطنعة وغارقًا في الفقر. أضحَت تتَّسم بالركود وسطَ النشاط. حيث ينمو العُشب في شارعها الرئيسي وكذلك في سوقها. ويسير ما تبقَّى من الأشخاص المستقلِّين — أي الأشخاص الذين يتمتعون باستقلالٍ مالي — في تَعالٍ معتقدين أنهم أناسٌ رفيعو المقام. وبهذا المعنى فإن السكَّان غيرَ المستقلين ماليًّا هم جبناء ومُهانون وفقراء وفاسدون. ومع ذلك، فإن البلدة هي دائرةٌ برلمانية؛ ومِن ثَمَّ، يوفر وضعها الحاليَّ المتهالك والبائس فرصة جيدة للسياسيِّين المغامرين — سواءٌ أكانوا أذكياء أم أغبياء، لا يهم — الذين لديهم مَحافظُ ممتلئةٌ بالمال ووكلاءُ ماهرون وآلياتٌ جيدة تحت إمرتهم.

وقبل أن أصفَ الأحداث الخاصة للقضية التي أنا على وشك أن أعرضها على القارئ، اسمحوا لي أن أُقدم بعض التفاصيل الإضافية حول الضمير الانتخابيِّ لهذه البلدة العتيقة غيرِ العادية. حيث يوجد بها ثلاثُ فئات من الناخبين، صنَّفهم وكيل حملات انتخابية محافظٌ معروف (وهو محامٍ مقيمٌ هناك)؛ ومما لا شك فيه أنَّ هناك تصنيفًا مشابهًا، أو على وجه الدقة مناقضًا، قام به الجانبُ الآخَر. في القائمة أو التصنيف الأول، يوجد الناخبون الحقيقيون والنزيهون بالفعل، وهم رجالٌ يَعتبرون الرِّشوة المعروضة إهانة ويستاءون منها، كما أنهم مُوقَّرون وجديرون بالاحترام والتقدير، وسيُقاومون تقريبًا، أو ربما تمامًا، حتى الموت، أيَّ محاولة لإكراههم على التصويت بخلاف ما تُمليه ضمائرهم.

وهناك قائمةٌ أو تصنيف آخرُ يُدرَج فيه الرجال الذين يميلون إلى المحافظة (مثلما ينبغي أن يكون الجميع في مكانٍ عتيق كتلك البلدة؛ ربما يظنُّ القارئُ الساخر ذلك)؛ وهؤلاء الرجال سيأخذون من الداعم الحقيقيِّ لمؤسساتنا الموقَّرة نصف ما يُمكن أن يحصلوا عليه من مُغامر بدين يدَّعي مبادئَ راديكالية متطرِّفة، ويرغب في تكوين سوقٍ لنفوذه السياسي، أو ربما يكون حريصًا على إشباع الرغبة الشديدة في التميُّز لدى زوجته، بصفته هو شخصيًّا أحد كماليات الحياة الزوجية، عن طريق الحصول على مقعد في البرلمان، ولقب نائب الشعب بعد اسمه.

تشمل القائمة أو التصنيف الثالث أولئك الناخبين الذين ليس لديهم مبادئُ سياسية أو شخصية أو ضميرٌ على الإطلاق. هؤلاء هم مَن يريدون أقصى ما يُمكنهم الحصولُ عليه من مالٍ سواءٌ من المحافظين أو الراديكاليين أو الإصلاحيين الدستوريين. وهم قُمامة الحياة السياسية وحُثالتها؛ وهذا العنصر البغيض للوجود السياسيِّ في البلدة ليس بأيِّ حال من الأحوال الجزءَ الأصغر من التصنيفات الثلاثة.

والمنظِّم، أو الوكيل، كما يُحب أن يُطلَق عليه — على الرغم من أنَّ لقب «الوكيل» هو للمجاملة، كما يعلم مسئولو الشرطة وغيرهم من جميع الأشخاص الذين يتعاملون مع الجريمة — يَعرِف بدقةٍ الأشياءَ التي يجب أن يتعامل بها. إنه يعرف كيف «يلعب أوراقه»، وهو الوصف الذي يصف به أحيانًا أعمالَه الصعبة المقلِقة، ولا يُهدده سوى خطرٍ واحد. يُقال إن الصِّدق وحُسن النية بين اللصوص بعضهم وبعض هما من سمات حياة اللُّصوصية. وقد أوضحتُ، في كتاب سابق، أن هذه الفكرة ليست صحيحة. حيث يُقدم السياسيون دليلًا إضافيًّا على دقة كلامي.

عندما يُجري المنظِّم أو الوكيل — على سبيل المثال، قبل يومين من الانتخابات — جميعَ ترتيباته للتصويت، ويشعر بالثقة تمامًا في أنه، كممثِّل للسيد هيفي بيرس، مرشَّحِه — وهو رجل ذو جبين مسحوب، ورقبةٍ غليظة، ودماغ صغير، كثيرُ الكلام وقليل الفِعل، ليس لديه شخصيةٌ سياسية أو مبدأٌ أو عاطفة أو أفكار من أيِّ نوع — قد جعل كلَّ شيء على ما يُرام بفضلِ الأموال التي وزَّعَها بالفعل، وتلك التي وعَد بتوزيعها وهي أكثرُ وأكثر، فإنه يخلد إلى النَّوم في سريره الناعم الوثير المغطَّى تمامًا بالستائر، ثملًا تمامًا من النبيذ الوردي والجرعات الروحية العميقة، فقط ليوقظه في الصباح مساعد يَقِظ، يُخبره أنه قبل فترة وجيزة من ساعة السحَر خلال الليل حضرَت إلى البلدة عرَبةٌ تجرها أربعة خيول، لا يبدو أنها مرهقة من طول رحلتها؛ لأنها أتت فقط من البلدة «زِدْ» القريبة، لكنها كانت تجرُّ حَمولةً موضوعةً على أرضية العرَبة، ما أعاق حركتَها ورغبتها في الانطلاق بسرعة. ومِن ثَمَّ يعرف المنظِّم أو الوكيل أنَّ بعض المضارِبين السياسيِّين الأثرياءِ قد جاءوا بمبالِغَ جيدةٍ من العملات الذهبية. وهو لا يعتقد أنَّ العملية قد جرى التخطيطُ لها بالمهارة التي بدَت عليها، والتي كانت لِتبدوَ عليها من الوهلة الأولى، لكنه لا يزال قلقًا بعض الشيء؛ لأنه يعلم أن مسألة النجاح يُمكن حسمُها بسهولة عبر اليد التي يُمكن أن تستخدم الحلَّ الذهبي الأكبر أو الأثقل. كما يعلم أيضًا أن سِحر الذهب لا يُمارس تأثيرًا قويًّا على الروح في أيِّ مكان أكثرَ من البلدة «إن»؛ وسيشعر بالفعل أنه يميل إلى التخلِّي عن المنافسة إذا تأكَّد أن الوافِد الجديد لديه كمٌّ من الذهب أكبرُ من مرشَّحِه. على الرغم من حقيقة أنه يعتقد أن مرشحه رجلٌ متفوِّق، وأن الدائرة الانتخابية ستُحبه مؤكَّدًا، إذا أمكن جعلُ المنافسة نزيهة؛ وعلى الرغم من أنه، أيضًا، قد حصَل على الصدارة خلال ثلاثة أسابيع في استطلاع الأصوات، وحصَل على وعود من أغلبيةٍ كبيرة من الناخبين أكثرَ من المرشح الليبرالي المتأخِّر

نسبيًّا، الذي كان حتى الآن معارضًا للسيد هيفي بيرس؛ لكن في حقيقة الأمر كان الوافدُ الثالث يزعج المنظِّم.

حقيقةٌ أخرى مميزة اكتشفتُها في هذه المدينة. آمُل ألا يُفاجَأ القارئ بها. وأنا أرويها كحقيقة. وأُقرُّها كحُكمٍ لا يمكن إنكاره. كما لا أمانع في أن يُقنعَني أحدٌ إذا كنتُ مخطئًا؛ لكن إذا كنت محقًّا، فهذا أمر يجب أن يُعرَض على البرلمان، كحُجة كبيرة لصالح شيء ما أو ضدَّ شيء آخر. فكل حقيقة تُؤدي بالتأكيد إلى استنتاج. وكل حقيقة لها عِبرة. وأنا أعرض هذه الحقيقةَ أمام كلِّ من يُهمه الأمر، وأُعلنها صراحة. إنَّ مَن يُحدد تمثيل البلدة «إن» في البرلمان هم أصحابُ بيوت الدَّعارة في المدينة. فجميع الرجال الذين سبق أن مثَّلوا تلك البلدة في البرلمان منذ إقرارِ قانون الإصلاح نجحوا بسبب هذه الكائنات البشرية الحقيرة، الذين يستمدُّون وسائل الحفاظ على وجودهم من أكثرِ الشرور بُغضًا، على الرغم من أنه قيل لنا إنه أمر لا يُمكن علاجه. كيف أثبت حقيقتي وعبرتي؟ هذا سؤال قد يطرحه القارئ. وسأُثبتها هكذا: عندما تستطلع آراءَ جميع الناخبين الشرفاء حقًّا، يستنفد المنظِّمون أو الوكلاءُ القسمَ المناسب نسبيًّا من الجزء القابل لأن تُدفَع إليه الرشاوى من المدينة، وتُعطى نتيجةُ الكل للمرشَّح المحافظ، قد تكون أغلبية أربعة، أو قد تكون أغلبية للمرشَّح الليبرالي صاحب الأربعة، أو قد تكون خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية أو تسعة أو عشرة أو أحد عشر، وَفقًا للظروف. قد نتصوَّر أن هذا يحدث بعد فوات الأوان. ولكن لا يزال هناك ما بين ثلاثةٍ وعشرين وخمسة وعشرين من أصحاب المنازل غيرِ النظيفين أخلاقيًّا، الذين يبيعون الصوتَ الانتخابي بعشَرة جنيهات، أو مسئولي المحليات في شارع معيَّن من البلدة «إن»، الذين يدفعون ضرائبَهم بانتظام في غضون التاريخ المحدَّد للاستبعاد من السجِل، ومِن ثَمَّ، فهم ناخبون مؤهَّلون كما ينبغي. ولن يخسر المرشح الليبراليُّ ولا المرشح المحافظ أيَّ انتخابات إذا اشترى تلك الأصوات. ففي حالة الطوارئ في الوقت الذي أتحدث عنه، فإن الليبرالي الذي يجد نفسه في أقلية من أربعة، يذهب إلى «ستو ستريت» ويشتري ما يصل إلى ثلاثةٍ وعشرين أو أربعة وعشرين أو خمسة وعشرين من أصوات سكَّان هذه المنازل الموبوءة بالجُذام، ويدفع أيَّ ثمن يرون أنه يُناسبهم. وهكذا تُحتسَب أصواتهم في الاقتراع مثل الناخبين الأحرار والمستقلِّين والنزهاء والشرفاء. ومِن ثَمَّ يقلبون الميزان. وينتخبون العضو. وبقية العمليَّة ما هي إلا مَهزلة. طباعة عَناوين المرشَّحين المنافسين، وإشراك غرف اللجان، وكل شيء في طريق الآلات أو المبدأ، حتى زيارة المنظِّم أو الوكيل إلى ستو ستريت،

كل ذلك عديمُ الفائدة. أكره الدجَل. وأمقت السخرية. لماذا لا يُترَك لستو ستريت عملية انتخاب الرجل المحترم أو الحقير الذي سيُلقَّب بعضو البرلمان عن البلدة «إن»؟

وبخصوص هذا، أو لاختتام خطابي عن النزاهة والأخلاق، اسمحوا لي أن أُبلغ القارئ أن وزيرًا في الحكومة قد انتُخب ليُمثل البلدة «إن»، وأن شارع ستو ستريت وحده، بلا أدنى شك، أو ناخبيه، وأموال الوزير، هي ما أوصلَته إلى البرلمان على النحو الذي أشرتُ إليه.

حسنًا، كما قلتُ للقارئ بالفعل، رأيتُ فرصةً للمشاركة ونسجِ خيوط حيلتي؛ لذلك ذهَبتُ إلى شخصٍ ما، وهذا الشخص اتصل بشخصٍ — يمكن أن نُشير إليه بالسيد «فُلان» — حقَّق ثروةً من التجارة، وكان لديه زوجةٌ أقنعَته بأنه رجل ذكيٌّ للغاية، وأنَّ عليه دخول البرلمان.

والسيد فُلان ليس لديه مبادئُ سياسية. لقد كان دائمًا يُصوت، كناخِب، بالطريقة التي أوصى بها أكبرُ زبائنه؛ الذي — للمصادفة البحتة — كان دائمًا ذا انتماءٍ ليبرالي. وبطريقة أو أخرى، ظنَّت زوجة السيد فُلان من خلال تفكيرها الأنثويِّ أن زوجها قد سلكَ الطريقَ الخطأ، وأنه «ليس شيئًا يُحترَم» أن تكون ليبراليًّا، وأن «الشيء المهذَّب للغاية» هو الوقوف إلى جانب المحافظين؛ ولذلك قرَّرَت أنه حينما يدخل زوجها البرلمان، يجب أن يكون محافظًا، وهو الرأي الذي استجابَ له، مثل أي زوج محب، وعقَّب قائلًا: «سأفعل.» وهذا لم يكن يُهمني كثيرًا. فالسيد فلان سيفعل للبلدة «إن» ولأجلي أنا، مثلما سيفعل أيُّ رجل آخر. لم أكن حريصًا على الآراء السياسية، ومِن ثَمَّ لم أتردَّد في تقديم خدماتي له.

من المستحسَن دائمًا اتباعُ الإجراءات المعتادة. فمن حينٍ لآخَر، تُصبح الإجراءات المعتادة العديمة الفائدة في حدِّ ذاتها أساسية بحُكم العُرف. لذلك، وُظِّفَ رجل يُجيد الكتابة ليكتبَ عُنوانًا لمرشَّحنا، كما استُعِين برجل أو اثنين من أجل تعريفه أو تدريبه على الخطابات التي سيُلقيها. وهي لم تكن خطاباتٍ جيدة. كانت الخَطابة، في رأيي، مُسهَبة ومتكلَّفة وغير منطقية؛ أو، كما يمكن أن يقول السيد بارنوم الشهير، وسآخُذ حريتي في القول، كانت «دجَلًا».

وهكذا سافرنا من لندن مباشرةً إلى البلدة. وقد تألَّف الجَمْع مني، وشريكي (الذي كان الوكيل)، والمحامي، والمرشَّح، الذي تأكدتُ الآن من اسمه وعُنوانه وصفته. يُمكن للقارئ الآن أن يعرف هذا الرجل على أنه السيد جوليفات، وهو تاجر زيوت متقاعد، يُقيم في ميلبومين لودج، كلابهام، ومن المفترض أنه شريكٌ خامل في المنزل القديم الذي ظلَّ يقشط فيه قُدور الشحم المغليِّ على نحو مثيرٍ للإعجاب لأكثرَ من ثلاثين عامًا.

وعند وصولنا، وضعنا عُنوانَ مرشحنا. وبدأنا حملةً انتخابية شخصية. حيث فعلنا كلَّ ما كان معتادًا باستثناء الرِّشوة — فلمَّا يَحِن الوقت لذلك بعد — لكن كل ما فعلناه لم يُؤدِّ إلا إلى تثبيطِ عزيمة كلِّ شخصٍ سواي.

قال شريكي لمرشحه إنه يعتقد أن ألفَين من الجنيهات أو ما يقرب من ذلك ستكون كافية، في حين أنني أخبرته أن الأمر سيتطلَّب خمسة آلاف جنيه على الأقل، لكن يجب أن يكون مستعدًّا بسبعة أو ثمانية آلاف جنيه إذا كان يُريد حقًّا أن يفوز بالمقعد. إذ يجب أن يعلم المرشَّح في البلدة أنه ليس لديه فرصةٌ بمبلغ ألفَي جنيه أو حتى ثلاثة آلاف جنيه. وقد اندهشَ للغاية، وأرسلَ برقيةً إلى زوجته، التي جاءت دون الكشفِ عن هُويتها، الأمر الذي أثار انزعاجَنا، وكان له تأثيرٌ أكبرُ من مجرد الإعلان عن اسمها وعلاقتها بالمرشح.

هذه السيدة، على عكس زوجة السير بالدبيت بيلي، في ظل الظروف المماثلة، أصبحَت متغطرسةً وغير عمَلية. وقالت إنها تعتقد أنَّ ثلاثة آلاف جنيهٍ ذهبي هو مبلغٌ ضخم للغاية. لقد استغرق زوجُها الصالح وقتًا طويلًا جدًّا لكسبِ هذا المبلغ الضخم من المال، وعلى الرغم من أنها لا تُمانع في إنفاقه لأمواله مثل مواطن بريطاني أو رئيس وزراء، قالت إنها تعتقد أن ثلاثةَ آلاف جنيه يجب أن تُرضيَ الجميع، وإذا لم يكن الأمر كذلك، وهو ما يُثير العجب، فلن تدفعَ المزيد، وليفعلوا ما في وُسعِهم.

قالت السيدة جوليفات أيضًا إنها تُحب أن تتأكَّد من خُطواتها قبل أن تخطوَها. فإذا لم يكن من الممكن إنجازُ المهمة على نحو مؤكَّد مقابل هذا السعر، فلن تُوافق، وهي تُفضل عدم خوضها على الإطلاق. إذ إن ثلاثة آلاف جنيهٍ ذهبي، كما كرَّرت كثيرًا، هو مبلغ كبير من المال، ولا يصحُّ رميُها في نهر التيمز. هذا ما سيقولونه في لندن، وكانت تعني أنه لا يصحُّ أن نُنفق مالًا دون جدوى.

لقد اندهشَت قليلًا، خاصةً عندما أخبرها شريكي بجُرأة أنه، وبشرَفه، سيُنجز المهمة بهذا المبلغ. بالطبع لم أتمكَّن من معارضته حينها، وفي الواقع أقول إنه كان دجَّالًا بدرجة كبيرة لاحتياله على امرأةٍ حريصة وزوجها في مثل هذا الوضع، لذلك التزمتُ الصمت حتى انفردتُ به؛ ثم اعترضتُ على ما فعله. فأجابَ: «دعنا نخدَعْهما! دع هذين العجوزين يُنفِقا. لن يَفعلا ما يُفيد بأموالهما إذا لم يُضيِّعاها هنا؛ وفي نهاية الأمر، اعتمد عليَّ، فسأجعلهما يُنفقان ثلاثة أو خمسة آلافِ جنيه إضافيةً إذا تطلب الأمر.» فجادلتُ ودَحَضتُ؛ لكن شريكي كان حازمًا. وقال: «لقد قطعنا شوطًا كبيرًا في الأمر ومن الصعب أن نتراجع. سيحدث ضررٌ كبير في مهنتينا إذا هربنا في خِضمِّ المعركة. وفي رأيي، يجب أن نواصل ونفوز، وأن نجعل العجوز يدفع.»

يُقال إن الحاجة أمُّ الاختراع. وأعتقد أن هذا المثل مألوفٌ لمعظم قرائي. وسأقدم توضيحًا آخر له.

لقد أنَّبني ضميري بشأن السيد والسيدة جوليفات ونقودهما لبقية اليوم. وشعرتُ أنه يجب علينا أن نخوضَ المعركة الانتخابية وننتصر، أو يجب ألَّا نخوضها على الإطلاق، وأن نهرَب. إذن يجب على شريكي أن يظلَّ بجوار المرشَّح، وربما ينجح حقًّا فيما وعَد به؛ أي إسعاد قلبَيِ المرشَّح وزوجته بالفوز في الانتخابات، ومِن ثَمَّ الحصول منهما على أتعابه. لم أكن متأكدًا على الإطلاق من الجزء السابق من المهمة، لكن إذا فشل، من ناحية أخرى، وهو الأرجح، هل يُمكنني تخليصُ نفسي من المسئولية بمجرد الانسحاب في المرحلة الحاليَّة؟ لقد عقَدتُ العزم على المضيِّ قُدمًا والاستفادة المُثْلى من المعرفة القانونية القليلة التي حصلت عليها، وذلك للابتعاد عن طريق الأذى. وقد تمكَّنتُ في النهاية من ابتكار ما فكرتُ فيه وما زلتُ أفكر فيه؛ حيلتي الكبرى للحملة الانتخابية.

قمتُ بجولة في البلدة من أجل استجماع أفكاري؛ وبعدما فكَّرتُ مليًّا لمدة ساعة أو ساعتين، توصلتُ إلى الحيلة التالية، التي نفَّذتها بالطريقة الموضَّحة فيما يلي.

أسرعتُ إلى لندن في قطارِ منتصَف الليل، واستقللتُ عربة أجرة من محطة يوستون، وذهبتُ إلى زميلٍ بارع في مجال عملي نفسه، فأعطيته تعليماتي، وكان يتصرف بموجب توجيهاتي نصًّا ومضمونًا، لذلك كانت الحيلة، كما سيرى القارئ، ناجحةً تمامًا. وبقدر ما أستطيع، بالطبع، أشرفتُ إشرافًا مباشرًا على تفاصيل مخطَّطي.

وقد علمتُ أن هناك رجلًا يُقيم في حي سوهو يتمتع بقدرة خاصة، كما أخبروني، وقد أصبحَت لديَّ الآن أسبابٌ وجيهة لتصديقهم؛ إذ يُمكنه التحدثُ والكتابة بسهولة كبيرة وبراعة هائلة. لا أعرف ما هي مبادئه السياسية، ولم أكن أهتمُّ آنَذاك مثلما لم يفعل هو نفسُه. لكنه كان على استعداد لقَبول المشاركة في المهمة التي عرَضتُها عليه. ومقابل ثمنٍ ما وافقَ على أن يُصبح المرشحَ الثالث لتمثيل البلدة «إن» في البرلمان.

ومِن ثَم ذهبتُ مع المرشح الجديد بعد أن تركنا مسكنه السابق، إلى فندقٍ مجاور، حيث استأجرتُ له غرفة خاصة، وطلبنا أقلامًا وحبرًا وورقًا وسجائرَ وزجاجة من الشراب، ثم أعددنا خِطابًا إلى الناخبين الأحرار والمستقلِّين في المدينة التي سنُمارس الدجَل على أهلها. ثم أخذنا الخطاب إلى مطبعة، وفي مقابل ما يَزيد قليلًا عن الأجر العادي، طبَعْنا خَمسَمائة نسخةٍ في غُضون ثلاث ساعات.

بعد ذلك زُرنا متجرَ تاجر ملابس مشهور يقع في الجوار، يحمل اسمُه لمحةً عبرية في تهجئته، حيث زوَّرْنا مظهر مرشحنا بأسلوبٍ مثير للإعجاب؛ على الرغم من أن التكلِفة كانت عالية، بل أعتقد أنها باهظة بعض الشيء. وهكذا بعد أن ارتدى زيًّا يُشبه أزياءَ النبلاء، أصبح بالفعل يبدو كواحدٍ منهم؛ وهكذا تحت تأثير الازدهار الخارجي، وكذلك أفترض، تحت سحرِ عشرين جُنيهًا في جيبه (وهو مبلغ لم يكن بحوزته، كما أتخيَّل، منذ مدة طويلة جدًّا)، تبدَّدت آثارُ الفقر والعَوَز من ملامحه. وأصبح يتحدث بطلاقة زائدة، وزادت بلاغتُه للغاية، لدرجة أنني اعتقدتُ أن من المؤسف أنه ليس المرشحَ الحقيقي بدلًا من عديم الكفاءة الطامح إلى الحصانة البرلمانية.

أعترفُ بالذنب إذ استحوذَت عليَّ فكرةٌ عابرة آنَذاك، واقترحتُ مقارنة بغيضة. واعتقدتُ أنه كان سيتناسب مع شخصية عضو البرلمان أفضل بكثيرٍ من مرشحنا السيد جوليفات، الذي كان سفيهًا بالفعل.

بعد ذلك، ذهبنا إلى مطعم في ريجنت ستريت، حيث طلبتُ لنا عشاءً فاخرًا ودفعتُ ثمنه.

وبينما نتناول الشراب تطورَت خُطتنا تطورًا رائعًا. أصبحتُ مَدينًا بالعديد من التلميحات القيمة لصديقي الجديد وصديقه الذكي. ثم أخذنا نُدخن ونحن نتجاذَب أطراف الحديث، وبعد ذلك تجوَّلنا في سانت جيمس بارك حتى حان وقتُ رحيلنا إلى البلدة المنشودة.

كان لا بد من إجراء زيارة أخرى لمتجر صانع صناديق الأمتعة لشراء حقيبتَيْن أو ثلاث من حقائب السفر الجيدة، وقد فضَّلتُ شراء حقائبَ مستعمَلة، على الرغم من أن المصاريف لم تكن ذاتَ أهمية كبيرة، حيث اعتقدتُ أن المظهر الرثَّ أو المتسِخ على الأقل سيخدم خُطتنا على نحوٍ أفضل.

يجب أيضًا أن أخبِر القارئ أنني قد وعدتُ المرشح صاحب الشعبية الذي ما زلنا في طَور تكوينه بمكافأة قدرُها خمسون جُنيهًا إذا لعب دوره بمهارةٍ وحافظَ على الإتقان؛ لكنني لم أُعطِه أيَّ ضمان بخلاف كلمة شرف (التي لم أُخِلَّ بها أبدًا في حياتي) من أجل الوفاء بالجزء الخاصِّ بي من العقد. ولم يندم أيٌّ منا آنذاك أو بعد ذلك على الطريقة التي أُبرِم العقد ودُفِع ثَمنُه بها.

ثم ملأتُ الحقائب من متجر صانع الملابس، وصانع العطور، والتجار الآخرين.

واشترينا أيضًا صندوقًا خشبيًّا كبيرًا وثقيلًا من تاجر أنتيكات؛ يحتوي على مشابكَ فولاذية ضخمة وقُفل ثقيل. بدا كأنه شيء مصمَّم لحفظ كنز، شيء يستخدم عادةً على هذا النحو. وقد ملأنا هذا الصندوق.

ثم ذهبنا إلى المطبعة، حيث انتهت طباعة النُّسخ التي طلبناها، والتي لم نعتقد أنه من الضروري رؤية بروفاتها؛ وقد بدَت مطبوعةً بخطٍّ واضح سَميك، جذَّاب لعينَي كلِّ واحد منَّا، ولكن ربما الأمر الأكثر سحرًا على الإطلاق هو المظهر الجديد للرجل الذي بدا مغايرًا لمظهره السابق تمامًا.

إنه لأمرٌ مدهش كم من الحِيَل الممتازة، وكم مِن المشاريع الضخمة والمخطَّطات ذات النَّفع العالي، التي شابها عدمُ الانتباه إلى التفاصيل، أو قد يكون هناك حاجةٌ إلى مُكوِّن واحد ولكنه أساسي. كان هذا هو الحال تقريبًا في هذه المهمة الحاليَّة. إذ كادت حيلتي الكبرى للحملة الانتخابية أن تفشل نتيجةَ سهوٍ في بدايتها. فلم يكن لدينا، حتى هذه اللحظة، أيُّ محامٍ أو وكيل، وهي السِّمة الأكثر أهميَّة لمؤامرة مثل تلك التي انخرطنا فيها. وقد اكتشفتُ هذا التقصير في الوقت المناسب تمامًا كي أتداركَه. حيث سمعنا عن وكيل، على ما أظن زميل متواضع، يعيش في الحيِّ نفسِه. فوظَّفته، وأرسلته مع الاثنين الآخَرين إلى البلدة «إن» في تلك الليلة.

لقد تركتُ صديقَيَّ في محطة يوستون. وقد قطعا بالقطار مسافةً أكثرَ بقليل من مائة ميل إلى البلدة «إتش» المكتظَّة بالسكان، ونزلا هناك. ومِن تلك النقطة، أكملا الرحلة في عربة خيول ثقيلة، حيث كنت أرغبُ في ألا يصل الجَمْعُ إلى البلدة «إن» قبل الساعة الثانيةَ عشْرة ليلًا. وفضَّلت أن يكون ذلك بعد الواحدة صباحًا بقليل، واقترحت عليهما ألا يُشعِرا أحدًا بوصولهما. وقد أخبرتهما أنه يتسنى لهما ذلك من خلال توخِّي الحذر لإبقاء وصولهما هادئًا وسريًّا.

وقد أطاعا تعليماتي، كما تأكدتُ بعد ذلك، بدقة تامة.

وعلى بُعد مسافة قصيرة جدًّا من مشارف البلدة، كانت توجد محطة تحصيل رسوم، مغلقة دائمًا في الليل، ولم يكن حارسُها معروفًا باليقظة أو الانتباه. فلم يجد الجَمْع صعوبة تُذكَر في دخول البلدة. وقد مرَّ بعضُ الوقت قبل أن يفرك الرجل في محطة الرسوم عينَيه، ويفتح البوابة الصغيرة، ويخرج لفتح البوابة الكبيرة. وأثناء قيامه بذلك، أدهشه منظرُ عربة مكتظَّة بها ثلاثة أشخاص.

وقد استشفَّت فِطنةُ الرجل السرَّ كله كما كان يظن. فغمز بعينه وأومأ برأسه، ثم ابتسم ابتسامة عريضة. فقد رأى في واحد من الجَمْع مرشحًا آخرَ لمنح حقِّ الامتياز للناخبين الأحرار والمستقلِّين؛ وفي الاثنين الآخَرَين وُكلاءَه. كما غاصت رؤيته الحادَّة في ثقب مفتاح ذلك الصندوق، ورأى داخله وزنًا من الذهب، حدَّده، خلال محادثة في اليوم التالي، على أنه

مشهد لم يرَه في حياته من قبلُ حتى في الانتخابات. وقد غذَّى مرشحي المزعومُ هذا الوهمَ جيدًا، من خلال منح الحارس عُملتَين ذهَبيتين؛ وألقى كلٌّ من رفيقيه حفنةً من العملات الصغيرة عليه وهو يغلق البوابة من بعدهم.

ومِن ثَمَّ واصلت العربةُ المحمَّلة طريقها، بخُطًى بطيئة، والخيول تنبض وتلهث، بينما الركَّاب يضحكون ملء قلوبهم.

وبعد قليل وصَلوا إلى البلدة «إن»، ومع أكبر قدر ممكن من الهدوء والتمهُّل، توقفت العربة التي يقودها الغرباء، وأقصد رُكَّابها، أمام فندق خَصمنا؛ وبعد قرع الجرس، ورفض قبول الرد الذي جاءهم به الخدم، والإصرار على إيقاظ صاحب الفندق، حاولَ مرشحي عقدَ صفقةٍ معه (ووضعه تحت الثقة) للسماح بأن يُصبح فندقه هو مقرَّ اللجنة المركزية للمرشح المستقل. وقد كان السيد بونيفيس دليلًا على مواجهة الإغراء. حيث منح فندقه للسيد سالو تويتش، المرشح الدستوري الإصلاحي، وكان عازمًا على ألا يفسخ اتِّفاقه أبدًا. فهو لم يفعل شيئًا كهذا في حياته ولن يفعلَ ذلك أبدًا. وقال إن عليهم الذَّهابَ إلى مكانٍ آخر؛ وأنهى صاحبُ الفندق الغاضبُ المقابَلة، وقال لهم إنه لا يريد أن يُجريَ معهم المزيد من المفاوضات، وذهبَ ليكمل نومه.

وبعد ذلك، ذهب الجَمْعُ إلى الفندق الذي يقيم فيه السيد جوليفات، ويتَّخذ منه مقرًّا. وقد انتهت مقابلة مماثلة مع السيد بونج، في ذلك الفندق، بما لا يختلف عن المقابلة مع السيد بونيفيس.

وفي النهاية، وجَدوا شرطيًّا يغلب على مظهره طابعُ القرون الوسطى وهو يتجوَّل بمفرده في خُمول عبر السوق، وتعهَّد نظير مكافأة يحصل عليها، أولًا، أن يُساعد في العثور على أفضل المقرَّات المتاحة في الوقت الحالي، وثانيًا، أن يُحافظ على سرِّية وهدوء وصول الجَمْع الذين أصبَحوا رُعاتَه إلى المدينة.

وقال إنه لسوءِ حظِّهم أنهم قد جاءوا إلى البلدة في وقت متأخر جدًّا، ذلك أن المرشَّحَين الآخَرَين موجودان على الساحة منذ فترة طويلة، وبدآ حملاتهما بشكلٍ طبيعي. ومع ذلك، هناك مكان مرتَّب وأنيق، كان دائمًا المقرَّ الرئيسي لمرشحٍ ثالث؛ ومن جانبه، هو يعتقد أنه إذا كان المرشح رجلًا نبيلًا عاديًّا فلا يُهم كثيرًا في أيِّ منزل سيُقيم. واعتقد هذا الشرطيُّ الفَطِن أن الأمر سيكون مشابهًا، إذا كان لدى المرشح أصدقاء يعرفون عمَلهم جيدًا.

وقد أخَذوا بنصيحة الشرطي في اختيار مقرِّ اللجنة المركزية، وقد اختار فندق جرين سوان، الذي، دعني أُقر وآسَف، كان مكانًا متواضعًا نسبيًّا كي يُتخَذ مقرًّا. كنت أُفضِّل

كثيرًا أفخم فندق في المدينة؛ ولو كان ذلك ممكنًا، لكنت قد تنازلت عن المكان الذي تُوج فيه السيد جوليفات. ومع ذلك، كما ستكشف الأحداث، فإن هذا الأمر لم يؤثر على نجاح الخُطة.

دون مزيدٍ من إضاعة الوقت، في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، شرَع مرشَّحي في العمل. فكان أولُ شخص قدَّم له خُطبَه المطبوعة، بصفته وكيلًا عن المرشح المستقل، ليس عُمدةَ البلدة، ولا سكرتير البلدة، ولا عضو مجلس محلِّي، ولا عضو مجلس البلدة، ولكنه كان عاملَ لصقِ الدعاية.

وهكذا ظهرت على الجدران مطبوعاتُ دعايةٍ انتخابية كُتبت على النحو التالي:

إلى الناخبين الأحرار والمستقلين في البلدة «إن»

أيها السادة المحترمون، لقد كانت مدينتُكم في كثيرٍ من الأحيان ساحةً للصراع الحزبي. وقد صُنِّفتم كأنصار للدستوريين الإصلاحيين والمحافظين. ولم يحترم مُمثِّلوكم في البرلمان تقاليدكم التاريخية العريقة وفضائلكم العامة المرموقة ولم يهتمُّوا بها أو يفهموها أو حتى يعرفوها من الأساس على ما يبدو، مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين يتطلَّعون إلى تمثيلكم في الهيئة التشريعية وهو ما يُعَد أسمى شرفٍ يتطلع إليه أيُّ إنسان محبٍّ لوطنه.

أيها السادة، على الرغم من أنني غريبٌ بينكم، حيث أقمت في الخارج لسنواتٍ عديدة، وعُدت مؤخرًا إلى وطني؛ بعد أن درَستُ المؤسسات السياسية في أوروبا وأمريكا، واطلعتُ عليها عمَليًّا، وعلاوة على ذلك، فقد قرأت تاريخ بلدتكم العريقة، الذي يُشكِّل العديد من الصفحات الرائعة في التاريخ العظيم لوطننا، كما أنني محظوظٌ بما ورثتُه من ممتلكات وفيرة؛ لذا فقد عقَدتُ العزم على وضع خدماتي تحت تصرُّف وطني، مع رغبةٍ خاصة في خدمة مصالح دائرة انتخابية حرَّة ومستنيرة، مثل البلدة «إن».

أيها السادة، في ظل هذه الظروف، أُقدم نفسي كمرشَّح في الانتخابات القادمة لتمثيل دائرتكم، وعلى الرغم من أنني سأحظى على الفور بشرف مقابلتكم بنفسي، وتوضيح معالم حملتي الانتخابية لكلِّ واحد منكم في منزله، أعتقد أنه من الصواب أن أضعَ أمامكم بيانًا موجزًا عن مبادئي السياسية.

أيها السادة، أنا أؤيد أوسعَ وأشمل خُطةِ إصلاح يمكن للفلسفة السياسية أن تبتكرَها. وإذا منحتموني شرفَ تمثيلكم في البرلمان (وكلي ثقةٌ في أنكم ستفعلون)،

فسأدعم، من خلال خُطَبي وتصويتي، كل إجراء ينشر السعادة بين الناس، من خلال زيادة الطلب على العمالة، وزيادة أجور الصناعة، وفي الوقت نفسه زيادة أرباح رأس المال، وتعزيز راحة كلِّ رجل وامرأة وطفل في جميع أنحاء البلاد التي تخضع لجلالة الملكة.

أيها السادة، أنا أُؤيد إجراءاتٍ أخرى للتحسين السياسي والاجتماعي التي تُفيد الجميعَ بشمولها ونفعِها ولا تَضر، لكن لن يتَّسع المجالُ هنا لشرحها بشكل وافٍ، في حدود هذا البيان المطبوع، ولكن سيكون أمامنا العديدُ من الفرص لشرحها عندما ألتقي بكم وجهًا لوجه في اجتماع عام، وفي منازلكم، وفي يوم الترشيح.

أيها السادة الأفاضل
يُشرفني أن أعرفكم بشخصي
خادمكم الأمين والمطيع
هوراشيو ماونت-ستيفن فيبس

ومِن ثَمَّ، لم يُضِع عاملُ لصق الدعاية أيَّ وقت في لصق البيان على جدران البلدة؛ لكن سبق عملَه انتشارُ دعاية أخرى على نطاق واسع من خلال كشف حارس البوابة، والسيد بونيفيس، والخادم، والسيد بونج، وسائس الخيل عما دار بينهم وبين المرشح.

وهكذا أمسَت المدينةُ في حالة اضطراب. وازدحمَ فندق جرين سوان في صالون البار، وأمام البار، وفي كل قاعة عامة به. حيث تلقَّى السيد سميث (أعني السيد هوراشيو ماونت-ستيفن فيبس) عددًا كبيرًا من العروض للمساعدة المِهْنية، والعديدَ من الطلبات للحصول على شرف التعارف، والرسائل التي لا تُعَد ولا تُحصى للحصول على توقيعه، مع مبادرات أخرى رقيقة وغير رقيقة لحُسن النوايا والصداقة؛ كل ذلك في غضون ساعاتٍ قليلة. وقد أخبرني السيد فيبس، بعد عودته إلى لندن، وتحويله من جديد إلى «سميث»، أن التجرِبة كانت «أكثر حدث ممتع وزخم» انخرط فيه خلال حياته؛ وأخبرني شريكي أن المرشح الوهميَّ لعب دوره بمهارة عبقرية.

وفي فترة الصباح، تجمَّع حشدٌ أمام فندق جرين سوان، وسُمِعَت أصوات صاخبة تكريمًا للمرشح «المستقل» الذي أصبح الآن «المرشَّح صاحب الشعبية». كما طبعَ صاحبُ

مطبعة مطبوعاتٍ أخرى، ومن دون توصية، إمَّا مِن فرط الحماسة السياسية، أو الاعتماد على تدقيق الحسابات بلا عناية، وعلَّقها على الجدران، وقد جاء نصُّها كما يلي:

فيبس للأبد!

أصبح الحشدُ أقلَّ صبرًا وأكثرَ ضجيجًا في فترة ما بعد الظهر، وكان على المرشح أن يُقدم نفسَه من شُرفة الفندق، ويُخاطب معجَبيه. ويؤسفني أن أقول، نظرًا إلى عدم وجود كاتب يُجيد الكتابة بطريقة الاختصار، فلن أستطيع أن أُعطي للقارئ تقريرًا عن هذا الخطاب، وأعتذر لهذا، فقد قيل لي إنها كانت إحدى أروعِ الخُطب التي ألقاها على الإطلاق مرشَّح مزعوم أو حتى مرشح حقيقي. ومع ذلك، دَعْنا من هذا.

وبحلول المساء، طلب وفدٌ بالنيابة عن المؤيِّدين، أن يحصل على الإذن بمقابلة هوراشيو ماونت-ستيفن فيبس، الموقَّر، للتعبير عن إعجابهم بالمبادئ التي أعلنها بوضوحٍ ودقة في بيانه، التي وضَّحها وطبَّقها بأسلوب جميل في خُطبته البليغة. وقد أجاب الرجل النبيل طلبَهم بمنتهى المودَّة، وألحَّ عليهم كي يُشرِّفوه بقَبول دعوته لهم على العشاء.

وقد قيل لي إن كرمَ ضيافة فندق جرين سوان تجعله يستحقُّ مكانةً أكثرَ شُهرة؛ كما نالت مهارة زوجة صاحب الفندق في الطهي الاستحسانَ والإنصاف، حسبما يقول كاتبُ ركن المرأة في الصحف. كما حَظِيت المشروباتُ المعتَّقة التي قدمها صاحبُ الفندق باستحسان متميِّز، أو على الأقل استطعتُ أن أحكم على ذلك من خلال فاتورة الحساب التي رأيتها فيما بعدُ تحت تاريخ هذا الحفل الترفيهي. صحيحٌ أن الأشياء الجيدة تحمل أسماءً مألوفة. ولكن قد يُعزى هذا الظرفُ على وجه الدقة إلى الطابَع الإنجليزيِّ للمرشَّح والمعجبين به، وليس إلى القدرة أو الوسائل المحدودة لصاحب الفندق وزوجته. إذ يبدو أن أفراد الوفد قد تناوَلوا شراب شيري وشراب بورت وشراب شمبانيا بغزارة مع الكثير من السيجار الذي بلغ وزنُه في المجمل بِضعة أرطال، وكان (نظرًا إلى السعر الذي كلَّفني إياه) أفضلَ سيجار كوبي يُمكن أن تُنتجه هافانا.

في هذه المأدُبة المفاجئة التي لم يُعَدَّ لها سلَفًا، أُلقِيت الخُطب بالطبع، واحتُسِيت الخمور، وأُنشِدَت الأغاني، حتى نهاية الحفل — في مزيج من المنوعات من «رول بريتانيا»، و«جد سيف ذا كوين»، و«وي وونت جو هوم تيل مورنينج» — التي أدَّاها المعجبون الوطنيون بفيبس بأداءٍ مميز.

وقد تشكَّلَت من هذا الحفل لجنةٌ من الرجال المتَّزِنين. ذلك أن سميث — أعني فيبس — سيطمئنُّ لوجود مَن يتابع النتائجَ عن قرب من المتزنين، وكان من المتوقَّع الآن أن يستمر كلُّ شيء في بهجة كما لو كانوا في حفلِ زواج.

مرَّ اليوم التالي مثلما مرَّ سابقه، باستثناء أن المرشح الثالثَ الحائز على الشعبية، كمسألةٍ شكلية، قابَل عددًا من السكان المحترمين، ومثَّل دورًا عن واجبات المرشح، مثل مصافحةِ مشرَّد أو اثنينِ أمام الفندق يرتديان ثيابًا متسخة، وتقبيل بعض الأطفال الذين يَسيل لُعابُهم على صدورهم، والتحدُّث بسرور إلى زوجات الناخبين، وشرح المبادئ للناخبين أنفسِهم.

في هذا اليوم أرسلَ وكيل السيد تويتش مذكرةً باليد إلى وكيل السيد جوليفات، يقترح فيها أن يتقابلا بسرِّية ودون تحامُل لمناقشةِ مسألةٍ ذات أهمية لكِلا المرشَّحَين. وردَّ المستشار القانوني للسيد جوليفات بالموافقة على الاجتماع. ومِن ثَم تقابلا. حيث كان ترشُّح فيبس هو موضوعَ النقاش. فقال وكيل تويتش إنه أرسل برقية إلى مكتب بروكس، وحزب الإصلاح، والسيد كوبوك، لكنه لم يحصل على أيِّ معلوماتٍ عن فيبس. لم يكن معروفًا للحزب، واعتقَدوا أنه شخصٌ مغامر بالتأكيد، وأنَّ ثروته مُبالغٌ فيها بشكل كبير، إذا كان لها أيُّ وجود حقيقي من الأساس. فقال محامي السيد جوليفات إنه استفسر بالطريقة نفسِها في كارلتون، لكنه لم يستطع معرفة أيِّ شيء عن خَصمِهم. وهكذا أُصيبَ الليبرالي بالإحباط. ولم يأخذ المحافظ الأمر على محملِ الجِد. واتفقا على أنه لا يمكن فعلُ أيِّ شيء لإفساد المرشح الجديد.

ذهبَ شريكي إلى مطبعة محلِّية وحصلَ على بعض الاستمارات مطبوعةً بنظام الورَق المكربَن، مثل «دفاتر التسليم» الخاصة بالتجَّار أو شيكات المصرفيِّين، التي سيتَّضح فيما استُخدِمت على الفور. كما تمكَّن من التعرف على عددٍ قليل من قادة الشعب — من يُطلِق عليهم الفرَنسيون «الرجال الفاعلون» — وهم أنصارٌ غير متفلسفين أو غيرُ مغرورين على نحوٍ صارخ.

وفي مساء اليوم الثاني بعد وصول السيد فيبس إلى البلدة «إن»، أجرى شريكي مشاوراتٍ مع نحوِ ستةٍ من هؤلاء الرجال الذين قد يُطلَق عليهم رؤساءُ عصابات الناخبين، وهم أشخاص اعتبَروا امتياز التصويتَ مِلكيَّة تُباع في السوق، مثل أيِّ سلعة أخرى، باستثناء أن هذه السِّلعة التي تُسمَّى تصويتًا يجب أن يشتريَها المرشحُ بالتجزِئة، حتى يتمكنَ من بيعها، كدائرة انتخابية، قطعةً واحدة أو بالجملة. وكانت النتيجة اتفاقًا أو تفاهمًا، ليس

لديَّ شكٌّ في أن البائعين سيُحافظون عليه بأمانة. فهؤلاء الرجال يُحافظون دائمًا على ثقةِ مشتريهم، إذا لم يكن هناك مرشحٌ آخر، من المفترض أن يكون لديه وزنٌ أثقلُ من الذهب يمكن من خلاله التأثيرُ على أمانتهم، والذي قد يصل في أي ليلةٍ لاحقة بين تاريخ الاتفاق معهم ويوم الانتخاب.

وهنا يتطلَّب هذا الجزءُ من الخُطة أن يُفسَّر بدقة كبيرة، وإلا فلن يُلاحظ القارئ النقطةَ المركزية أو محور الحيلة الكبرى للحملة الانتخابية التي أعتزمُ الآن شرحها.

لقد أُتيحت الفرصة لشريكي كي يُخاطب أحد بائعي امتياز التصويت على النحو التالي. لقد أوضح له أن قانون مكافحة الرِّشوة صارمٌ إلى حدٍّ ما. وأن هوراشيو ماونت-ستيفن فيبس، الموقَّر يتمتَّع بمشاعرَ حساسةٍ للغاية، وتعافُ نفسُه قَبول الرِّشوة؛ وأنه إذا لم يكن هناك قانونٌ في كتاب القوانين المطبَّقة أو بين القضايا السابق لتجريمِها (وفي الواقع هو موجود بالفعل)، فيجب أن يتم كل شيء بحُرِّية وعلانية، أو على الأقل يجب أن يتمَّ بعلم، ليس فقط رجال الشرطة، أو القُضاة، أو المفوضين البرلمانيين، أو غيرهم من المسئولين القضائيِّين، ولكن أيضًا الرجل الأكثر استقامة، وصلاحًا، وثراءً، المرشح صاحب الشعبية نفسه. وتابعَ الوكيل قائلًا إنه نزل إلى المدينة مع الرجل الذي يتشرف بخدمته. ولم يكن يتوقع أن حالة البلدة سوف تفرض عليه ضرورةَ القيامِ بأشياءَ يرى أنها ضروريةٌ لنجاح السيد فيبس، ولكن نظرًا إلى وجوده في خِضمِّ المنافسة، فقد قرر المُضيَّ قدمًا وتأمينَ انتصارٍ للرجل المميز والكريم القلب الذي يُمثله في تلك المقابلة. أما بالنسبة إلى المال، فهذا لا يُمثِّل مشكلة على الإطلاق. إذ إن السيد فيبس غنيٌّ بما فيه الكفاية ليُقدم كلَّ ما يستلزمه الأمرُ من أموال. وأيُّ مَبالغَ قد يُضطَر إلى دفعها لن تُؤثر عليه حتى ولو تأثيرًا طفيفًا؛ لكن شخصيته يجب أن تكون فوقَ مستوى الشبهات أمام الناس وأمام نفسِه. وتابعَ شريكي قائلًا إن هناك طريقةً واحدة للخروج من هذا الموقف الصعب، خطرَت بباله، وعقد العزم بالفعل على اتِّباعها، وإلا فسينسحب مرشَّحه في الحال قبل إنفاق أيِّ أموال تُذكَر؛ لأنه على الرغم من أنَّ لدى السيد فيبس ما هو كافٍ مِن المال، وأكثر من كافٍ، لكلِّ ضرورة، إلا أنه لا يرغب في إهداره، وفقدان المنصب الذي يطمح إليه أيضًا. وعند هذا الاقتراح بسَحْب المرشَّح وأمواله، بدا قادةُ الشعب مرتبِكين أو منزعِجين إلى حدٍّ ما. وقالوا إن رجلًا مثل السيد فيبس سيفوز بالتأكيد إذا سلكَ الطريقَ الصحيح، واعتقدوا أنه مِن المؤسف أن ينسحب بعد الاحتفاء الرائع الذي تلقَّاه من قِبل جميع فئات المجتمع.

ومِن ثَم جرَت بعضُ المفاوضات، التي أسفَرَت عن الاتفاق على أنه في وقتٍ متأخِّر من الليل، يجب على العديد من قادة الشعب، واحدًا تِلوَ الآخر، أن يأخذوا شريكي إلى منازل الناخبين الأحرار والمستقلِّين الذين يجب في الواقع رِشوتُهم، وأن تتمَّ العملية بطريقةٍ خادعة وَفقًا للترتيب المتفَق عليه.

وهكذا أُبرم عقدٌ مع كل ناخب ينصُّ على ضرورة مَلءِ بطاقة الانتخاب وسيحصل على ١٠ جنيهات في نهاية الانتخابات. وسيضمنُ حصوله على المبلغ من خلال استمارةٍ مطبوعة من الورق المكربن، موقَّعة من شريكي بتوقيعه الواضح، وسيكتب عليها الناخب، الذي أُغرِي بذلك، اسمَه أو يضع علامة (+). وقد مُنح كلُّ ناخب مستأجر مبلغ خمسة شلنات بمجرد دخول الاتفاق معه حيِّز التنفيذ.

في اليوم التالي جرَت تسميةُ المرشحين. حيث استُقبِل السيد تويتش، المرشَّح الدستوري الإصلاحي، بصيحاتٍ ساخرة ومستهجِنة. ولم يكن حالُ السيد جوليفات أفضلَ من ذلك، فلعنَ البلدة من أعماق قلبه وشعَر بالندم الشديد على ذلك الطموح أو تلك الحماقة التي دفعَته إلى دخول القوائم كمرشَّح. وتوصَّل إلى استنتاجٍ مفادُه أنه من بين كل صفات التفاخر الزائف الذي ميَّز الإنسانيةَ منذ أيام سُليمان، لا شيء يُضاهي الرغبةَ في أن تُصبح ممثِّلًا في البرلمان لدائرة انتخابية حرة ومستقلة مثل دائرة البلدة «إن».

وكان السيد هوراشيو ماونت-ستيفن فيبس هو بطلَ ذلك اليوم. فإذا كان هناك شيءٌ يُمكنه الحدُّ من تدفُّق لسانه الفصيح، فهو التقديرُ السريع من جمهوره الذي تولَّى إكمال جملِه. حيث هتَفوا وصاحوا وهلَّلوا، وفعلوا كلَّ ما يُمكن تصوُّرُه، وبالنسبة إلى القارئ، العديد مما لا يمكن تصوُّره من مظاهر المودة تجاهَ شخصِه، والإعجاب بمبادئه. لكن بالنسبة إلى هذه المظاهر الغزيرة من التعلُّق والتفاني، يُمكنني بالتأكيد أن أعطيَ القارئَ نموذجًا رائعًا لما يمكن أن تكون عليه خُطبة الحملة الانتخابية. وقد تخللَت التهليلاتُ والصيحات مجادلاتِ السيد فيبس وعباراته البليغة. ويكفي القول، إنها كانت خُطبة عبقرية ورائعة.

وعند الدعوة إلى التصويت برفعِ الأيدي، رفعَ عددٌ قليل أيديَهم من أجل التصويت للسيد تويتش، وعددٌ قليل آخر للسيد جوليفات، بينما رفع عددٌ كبير للغاية أكفَّهم، معلنين عن رغبتهم في أن يصبح هوراشيو ماونت-ستيفن فيبس نائبًا في البرلمان عن دائرة البلدة «إن». ومِن ثَمَّ أعلَن المشرفُ المسئول عن تنظيم عملية التصويت، بالطبع، أن اختيار الناخبين،

من خلال تصويتٍ علَني، قد وقعَ على هذا الرجل المحترم، بينما طالبَ كلٌّ من خَصمَيه بإجراء اقتراع.

وهكذا فإن أهمَّ شيء يجب القيامُ به الآن هو الهروب من البلدة. ولم يكن هذا في الواقع أمرًا سهلًا للغاية، على الرغم من أنه قد يبدو للقارئ سهلًا. إذ أصبح كلُّ مَن في المكان يعرف المتآمِرين الثلاثة، ولم يُترَك المرشح ولا شركاؤه المباشرون بمفردهم ولو لخمسِ دقائقَ متتالية. كما أن الخروج من المكان عبر أيٍّ من الطرق العادية، وبأسلوبٍ معتاد، من المرجح أن يُثير الشك. ولو هربَ كلٌّ منهم منفردًا، وفي الوقت نفسه، عبر ثلاثة طرق مختلفة، فإنه سيُثير شكًّا أقل، لكنه سيكون أكثرَ إدانةً إذا اكتُشف. وإذا لم يهرب الثلاثة في الوقت نفسه، فمن الممكن أن تتعرَّض للعقاب أو للخطر حياةُ شخص أو اثنين ممن سيظلُّون في المكان بعد التأكد من هروب أحدهم.

علاوةً على ذلك، فمن المحتمل، تحت أيِّ ظرف من الظروف، أن ينكشف أمرهم بسرعة عند الهروب. حيث لاحظَ شريكي وجودَ ما لا يقل عن ستةٍ من الغرباء في معسكر العدو. كان هؤلاء الغرباء يتمتعون بنظرةٍ خبيرة، ويبدو أنهم من العاصمة. وقد اشتبه في أنهم جواسيسُ علينا. قد يكون أسلافُ السيد فيبس، لأيِّ سبب عكس ما نعلم، قد انكشف أمرُهم، وأصبحوا معروفين للمرشح الليبرالي، الذي كان يُحاول إفساد لُعبتِه، على الرغم من أن هذا الرجل وصديقه قد لا يعتبران ذلك لائقًا (إذا كانوا لم يستطيعوا إثباتَ الصِّلة بين حزب فيبس وحزب السيد جوليفات) لتفجير قصة ترشيح الأول. وعلى أي حال، يجب أن يهربوا، وذلك قبل الاقتراع غدًا؛ أي قبل فواتِ الأوان.

كان جزءًا من تصميمي لهذه الحيلة هو أن المخطط يجب أن ينفجر، وأن يُطبق التوافُق عند هذه النقطة بالضبط من المخطط.

كنا قد رتَّبنا لإبقاء الاقتراع علنيًّا من أجل فيبس، على الرغم من هروبه. ولذلك لم يُبلَغ المشرف المسئول عن الاقتراع بأي إخطارٍ رسمي بالتخلِّي عن ترشُّحه.

في الواقع، وعلى الرغم من هروب فيبس، يجب أن يظلَّ فيبس مرشحًا. وقد رأى محامينا الرئيسيُّ أن ذلك ضروري، وأنه مِن الحكمة استطلاع رأي رجلٍ واحد على الأقل حول الهرب.

وبعد المداولات، رُتِّب الأمر بين الهاربين المقصودين أن يَختاروا ذلك الصباحَ من أجل هروبهم، وأن يهربوا مجتمِعين. ومِن ثَمَّ، بعد الترشيح، أُقيمَت احتفالاتٌ صاخبة في فندق جرين سوان. وحضرَ ممثِّلون لكلِّ قسم من مجتمع البلدة «إن» حيث وُجِد أفرادُ الطبقات

الدُّنيا في قاعةٍ مخصَّصة لهم، وقُدِّمت لهم المشروبات التي تناسب أذواقهم، في حين أن كبار الشخصيات ووُجهاء البلدة الذين ربَطوا أنفسهم بالقضية الشعبية والفائزة لفيبس، استُضيفوا في قاعةٍ أفضلَ من الفندق. ولم يُفْرط فيبس نفسُه، وشريكي والمحامي الذي كان بصُحبته، في تناول الشراب. وظلوا هم الأشخاصَ الواعين فقط وسط الجَمْع الثَّمِل. واستمر هذا الصخب طوال الليل وحتى الصباح. وقد تهاوى صاحبُ الفندق نفسُه، بفعل الإرهاق وجرعات الشراب، على أريكةٍ غير مريحة. بينما حصلَت زوجته على القليل من الراحة، ثم واصلت الإشرافَ على الفندق بينما كان زوجها نائمًا. أما بالنسبة إلى السيد فيبس وشريكي والمحامي، فقد حاولوا فصلَ أنفسهم عن مؤيِّديهم عند حوالي الساعة الثالثة صباحًا، في ظل مطالبات قوية تُعبر عن القلق من أجل رفاهية وراحة هؤلاء السادة، الذين حثَّهم البعض، من أجل صحَّتهم ومظهرِهم الخاص، على الانصراف والحصول على قدرٍ من النوم، كي يعودوا إلى فعاليات الاقتراع في الصباح وهم نَشِطون. وبهذه الطريقة تخلصوا من الجموع المحيطةِ بالمرشح، باستثناء رفيقَيه. وهكذا سارت الأمور على نحوٍ جيد حتى ذلك الحين.

عند حوالي الساعة السادسة صباحًا، طلبَ فيبس — تحت شعوره بصداعٍ وهمي وإحساس بالتعب وكذلك فعل شريكي هو والمحامي — بعضَ المياه الغازية مع رَشْفة من البراندي، وبدَءُوا، في حضور صاحبة الفندق، في التعبير عن أسَفِهم لعدم قدرتهم على خوض أعمال الكفاح الوشيك؛ قاصدين بذلك فعالياتِ الاقتراع. واقترحَ شريكي أنه قد يكون من الجيد قيامُهم بنزهة، ويُفضَّل الخروج بهدوء وعدم وجود أحد برفقتهم. وسألوا إذا كان ذلك ممكنًا. فوافقت صاحبةُ الفندق على السماح لهم بالخروج من بابٍ خلفي عبر حديقة ملحَقة بالفندق، حيث يمكنهم السيرُ عبر بعض الممرات الجانبية، والحصول على ما يحتاجون إليه بشدة؛ نسمة من الهواء النقي. وكان هذا مناسبًا بشكلٍ رائع. حيث سبق لشريكي أنْ سلك تلك الطرقات، وعرَف أنه بهذه الطريقة يُمكن لثلاثتهم أن يسيروا أو يهربوا لمسافة خمسة أميال فقط، حتى يصلوا إلى المحطة التي استقلوا منها القطار إلى لندن في الساعة الثامنة صباحًا.

لم يكن هناك الكثيرُ من السائرين في ضواحي المدينة، باستثناء مُزارع ريفي هنا وآخرَ هناك ذاهبٍ ليكدحَ في حقله؛ كان هؤلاء المزارعون رجالًا ذَوي غِلظة غير متعلِّمين، ليس لديهم طابَعٌ أو فكر سياسي، ولذا فهُم غيرُ مهتمين بالنضال الانتخابي الكبير في البلدة «إن»، ولم يَزِد اهتمامُهم عن مجرد ردِّ تحية «صباح الخير» على السادة عابري الطريق.

وسرعان ما اكتُشِفَ غياب السيد فيبس ووكيلِه ومحاميه، وساد على الفور اشتباهٌ في حدوث شيء خبيث. وانتشرت هذه الفكرة كالنار في الهشيم في جميع أنحاء المدينة، وتبعَ ذلك مشهدٌ من الإثارة استعصى على الوصف حرفيًّا؛ ولم يُضاهِه شيءٌ أبدًا في تاريخ الحملات الانتخابية. فقد تعرض فندق جرين سوان لخطر التدمير التام. وعُوقِبَ بعض الأبرياء، المشتبَه في مشاركتهم في عملية الاحتيال، من قِبَل الغوغاء، الذين يجب أن يكون لديهم ضحيَّة أو اثنتان، والذين صبُّوا جامَ انتقامهم على المشتبهِ بهم في غياب أولئك الجناة الحقيقيِّين الذين بحلول هذا الوقت كانوا يتَّجهون جنوبًا في أمانٍ نحو العاصمة في القطار الذي استقلُّوه.

ومِن ثَم تحطمَت نوافذُ فندق السيد فيبس. لم يُصدق جزءٌ كبير من الحشد احتجاجاتِ المالِك، على الرغم من أنه، من أجل سُمعة الرجل الموثوق فيها، يمكن القول إن مجموعةً كبيرة من المشاغبين قد وضعوا ثقتهم في تأكيداته.

وبعد ذلك اقتُحِمت غرفة اللجنة ونُهِبت، وساد الكثيرُ من السرور عندما وجدوا الصندوق الحديدي. حيث انبثَقَ بصيصٌ متقطع من الأمل الهمجي لدى المقتحمين. وظنوا للحظةٍ أنهم قد عثروا على كنز، وأبهج قلوبَهم احتمالُ حدوث نهبٍ كبير. وسرعان ما أبلَغوا الحشد في الخارج بهذا الاكتشاف. وهكذا طالبوا بإخراج الصندوق إلى ساحة السوق، وتوزيع محتوياته بشكلٍ عادل بينهم. وبصعوبة بالغة، نُقِل الصندوق الثقيل عبر السُّلم إلى الشارع. ولفترة من الوقت صمَد القفل أمام كلِّ الجهود لفتحه؛ ولكن في النهاية جاء الحدَّاد، بأدوات تكفي لتدمير بوابة حصن. ونتيجةً لهذه المساعدة الفعالة، كُسِرت المفصلات أو خُلِعت من مكانها، ورُفِعَ غطاء الصندوق الغامض. ومِن ثَمَّ وجدوا ما أثار دهشتَهم وذهولهم، حيث وُضِعت بعناية داخل نشارة خشب — ليس الجنيهات الذهبية التي كان يُفترَض أن تُعوض مختلِف الناخبين، وحاملي اللافتات ومُدققي الحسابات وموظَّفي الانتخابات وغيرهم، لكن لا تندهش أيها القارئ اللطيف — عشر كُتَل صُلبة من الجرانيت الاسكتلندي الناعم، التي تم تحويلُها من غرضها الحقيقي (وهو رصفُ جزءٍ من الطريق في شارع أكسفورد) إلى التدنيس غيرِ المسموح به للناخبين الأحرار المستقلِّين في البلدة «إن». فانطلقت صيحاتُ السخرية واللعنات الشديدة والعميقة، وانهال اللومُ الشديد على المرشَّح صاحب الشعبية السابق؛ ويمكن قَبول الأمر كحقيقة أنه، إذا وقع السيد فيبس، أو محاميه، أو شريكي في أيدي هذا الحشد الغاضب، لكان من حقِّ ممثِّليه القانونيين رفعُ دعوى ضد المكاتب التي أمَّن فيها على حياته.

كان هروب فيبس واكتشافُ حقيقة الصندوق موضوعَين هَزْليَّين. ولكن ربما لم تكن النكتة أو الحيلة في أيِّ جزء من البلدة أكثرَ إثارةً مثلما كان الحال بالنسبة إلى مقرِّ الحملة الانتخابية للسيد جوليفات، مرشحنا الحقيقي.

ويجب أن يُذكَر أيضًا، لمعلومات القارئ — ومطلوب منه بشدةٍ أن يُلاحظ — أن التسليم البريديَّ العام من لندن يَنقل إلى كلٍّ من مقارِّ الحملات الانتخابية لمنافسي السيد فيبس نشرةً مطوَّلة، موجَّهة إلى كلٍّ من المرشحين المتبقِّين بالاسم، ووكلائهم، وجميع الذين قد يُهمهم الأمر، لإعطائهم إخطارًا رسميًّا بأن الرجال الذين أُدرِجَت أسماؤهم في القوائم المرفقة في النشرة (الذين هم ناخبون أحرارٌ ومستقلون للبلدة «إن») قد استبعَدوا أنفسهم من التصويت في الانتخابات الحاليَّة، من خلال قَبولهم المكافَآت، بموجِب عقودٍ قانونية مُلزمة مع أحد المرشحين.

نتيجةً لهذا الإخطار، فإن المساكين التعساء الذين دخلوا في الاتفاقات المذكورة مع شريكي لن يتمكَّنوا من بيع أصواتهم وضمائرهم للسيد تويتش، إذا كان يودُّ شراءها؛ لأنه لو اشترى أصواتَ الناخبين الملوَّثين، فسيُمنَع من المنافسة الانتخابية، وسيفوز منافسه بالمقعد بكلِّ تأكيد. كما تلقى المشرف المسئول عن العملية الانتخابية نشرةً مماثلة وقوائمَ مماثلة.

ونظرًا إلى بقاء الاقتراع مفتوحًا في ظلِّ هذه الظروف، يمكن لخيال القارئ التأكُّد من النتيجة العامة جيدًا؛ ولكن، لمعلوماته الخاصَّة، يمكنني أن أذكر الأرقام التي أعلنها المشرفُ المسئول عن العملية الانتخابية وهي:

جوليفات: ٢٠٩.
تويتش: ٦٤.
فيبس: ١.

كانت النتيجة أن السيد جوليفات قد فاز بالانتخابات، وشغَل المقعد البرلماني، وأصبح لعدةِ سنوات ممثِّلًا بلا منازع للبلدة «إن». ومن الإنصاف أن نقول إنه قد فاز، بتكلفةٍ قليلة نسبيًّا، وبأغلبيةٍ كاسحة من أصحاب الاقتراع الأمناء من الرجال المحترمين في الدائرة الانتخابية. وأعتقد أن شريكي قد نجحَ في قطع الطريق على الفاسدين في هذا المكان السيئ السمعة.

كما صار مالكُ فندق جرين سوان بالطبع حزينًا جدًّا على المصائب التي حلَّت به. لكنه تمكَّن من إصلاح زجاجه المكسور والتلفيات الأخرى على حساب هاندرد؛ وخابَ أملُه تمامًا في أن يستردَّ ديونه من السيد فيبس، لكنه تلقَّى خطابًا من مُحامٍ سياسي معروف في وستمنستر، يفيد بأن السيد فيبس يرغب في تلبية أيِّ مطالبة صحيحة وأمينة؛ وأنه إذا أعدَّ صاحب الفندق فاتورة حسابه وأرسلها إليه، فسيفحصها، وإذا ثبَت أنها صحيحة فسيتم تسويتها. وهكذا أرسل الرجل فاتورة الحساب، وتبيَّن بعد فحصها أو مراجعتها أنها كانت تتضمَّن مُبالغة كبيرة. ومِن ثَمَّ حصل المالِك على ثُلثي المبلغ الإجمالي؛ أي حوالي ١٠٠ جنيه. وعلى الرغم من رفض سداد مبلغ ٥٠ جنيهًا، فإن لديَّ سببًا قويًّا للاعتقاد أنه لم يخسر بسبب ترشُّح هوراشيو ماونت-ستيفن فيبس.

وقد ظهَر الآن ظرفٌ صغير لم يتوقَّعه أيٌّ منا، وهو أمرٌ محرج. إذ كشَف سداد تلك الفاتورة لمالِك فندق جرين سوان عن قصةٍ محفظة فيبس بدقةٍ تقريبية. فقد أصبح العديدُ من الناس يشكُّون في أن السيد جوليفات، المرشح الناجح، على صلةٍ بحيلتي الكبرى. ولكن لإثبات ذلك، كان من الضروريِّ تعقُّبُ فيبس ومهاجمته، ويُؤسفني أن أقول إنَّ الناخبين الأحرار والمستقلِّين المحبَطين الذين لم يتمكَّنوا من التصويت في هذه الانتخابات قد نجَحوا في القيام به. وما زالت كيفيةُ التوصُّل إليه هي سرًّا بالنسبة إليَّ حتى اليوم؛ لكنهم بالتأكيد اكتشَفوه بطريقةٍ ما، وهاجَموه بسلسلةِ أحكام صادرة عن محكمة صاحبة الجلالة للاستئناف العامِّ في وستمنستر. وقد أخبرَنا محامٍ خبيرٌ في القانون بأن لدينا دفاعًا جيدًا ضدَّ هذه الأحكام، على أساس أن اتفاقاتِ الخدمة كانت عقودًا لدفع المال إما لحثِّ الرجال على التصويت — التي تُعَد رِشوة — أو عدم التصويت، مما أدى إلى اعتبار الارتباطات ملغاةً وباطلة. فيما يخصُّ النقطة الأولى أعتقد أنه لا يُمكن أن يكون هناك شك؛ وفيما يخصُّ الثانية أعتقد أنه كان هناك مجالٌ كبير للمضاربة والبراعة القانونية. ومع ذلك، أعربَ السيد جوليفات عن رغبته في تجنُّب تشويه سمعة ناخبيه؛ لذلك رأى أنه من المناسب تسويةُ المشكلة بأسلوب آخر. كان فيبس رجلًا ذا أذواق كوزموبوليتانية، ولم يكن محبًّا للمحلية والالتصاق بمكانٍ ثابت. كما لم يكن يُهمه كثيرًا في أيِّ جانب من المحيط الأطلسي أو المحيط الهادئ سيعيش. ولذا أخبرَ شخصٌ ما نيابةً عنه، وهو محامٍ، محامي السيد جوليفات أن تسوية الأمر مع فيبس ستكون أقلَّ تكلفةً من تقديم جميع الناخبين وقضاياهم إلى المحكمة. وأن ١٠٠ جنيه هو المبلغ الذي تَحدَّد على أنه سيُخرج المرشَّح البليغ

والمحبوب خارجَ نطاق اختصاص القضاء والشرطة. ومِن ثَمَّ حصل على المبلغ المطلوب، وأبحرَ بهدوء، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قيل لي: إنَّ هناك فُرصًا وافرةً لممارسة القدرات الخاصة لهذا المرشَّح المحبوب في خدمة الأحزاب المختلفة التي تقسِّم غنائم الجمهورية النموذجية.

هُوية مغلوطة

جلسَ تاجر محترم للغاية في مكتبٍ صغير مريح، يستخدمه لحفظِ سِجلاته وإدارة الحسابات، في الجزء الخلفي من متجره، الذي يقع على بُعد ميلٍ واحد من مانيسون هاوس في مدينة لندن، وذلك في عصر أحد أيام صيفِ عام ١٨٦١. ولم يوجَد معه أحدٌ في هذه المناسبة سوى زوجته. وقد كان ظرفًا غيرَ معتاد أن تكون السيدة هناك، حيث يُقيم السيد دلمار في منزلٍ صغير أنيق في إحدى الضواحي الشرقية من العاصمة. وعِلاوة على ذلك، كان أبًا لعائلة تتكوَّن من أربعة أبناء وثلاثِ بنات، تتراوحُ أعمارهم بين السابعة والثانية والعشرين. كما أنه الوكيل الكنَسي للأبرشية التي يُزاول أعماله التِّجارية فيها. وهو يعتبر مثالَ الفضيلة في البلدة ونموذجًا للاستقامة في الأعمال التجارية. وفي الواقع، فإن قلةً من الرجال في العالم كله يتمتَّعون بسُمعة أفضل من السيد دلمار. إذ لم تَشُب سمعتَه شائبةٌ على الإطلاق، ولا يحقُّ لأحدٍ أن ينتقد شخصيته ولو بكلمة. وكان منزله مبهجًا بفضل قدرٍ لا بأسَ به من الرَّخاء وزوجته الصالحة وأولاده المطيعين.

هذه التفاصيل عن السيد دلمار وعائلته وعلاقاته وظروفه وسُمعته ضروريةٌ لتمكين القارئ من تقديرِ الأحداث التي يجب أن أصِفَها.

لقد جاءت السيدة دلمار إلى المدينة، في هذه المناسبة، من أجل التسوُّق. وقد طلبت من زوجها الحصيف مبلغًا تقريبيًّا من المال الذي تحتاجه — أو اعتبرت أنها بحاجةٍ إليه — لشراء مجموعة متنوعة من المستلزمات المنزلية، من حذاءِ طفلها الصغير إلى أغطية رأس ابنتها الكبرى. فتفحَّص السيد دلمار النفقات المتوقَّعة، أو كما قد أصِفُ الأمر، راجعَ التقديراتِ المنزليةَ بحَصافة تستحقُّ الثناء، وأعتقد أيضًا، بعاطفة الزوج والأبِ تجاه مَن يعول.

وأثناء ذلك دخل أحدُ مساعدي السيد دلمار إلى المكتب، وقال له: «هناك رجل يرغب في رؤيتك يا سيدي، في المتجر.»

«أحضره إلى هنا يا ويليامز.»

«يقول إنه يريد أن يراك على انفرادٍ يا سيدي.»

صاحَ السيد دلمار مندهشًا: «على انفراد! أحضره إلى هنا.» ونظر إلى زوجته وهو يُنهي الجملة.

غادر ويليامز المكتب وأخبر الرجلَ، الذي كان يقفُ في المتجر، أن سيِّدَه يريدُ مقابلتَه في الداخل.

قال الزائر المجهول للبائع: «لقد أخبرتني أن السيدة دلمار موجودة في الداخل مع زوجها؟»

أجابه البائع: «أجل يا سيدي.»

«إذن أنا أُفضِّل أن يخرج السيد دلمار إليَّ هنا.»

«لن يفعلَ ذلك يا سيدي. ويقول إنَّ عليك أن تدخلَ إليه.»

«حسنًا، سأدخل.»

تقدَّم الزائر المجهول إلى المكتب حيث يوجد الزوجانِ المحترمان السعيدان؛ وفتحَ البابَ بحذرٍ وتوتر، وبدا أنه متردِّد في تنفيذ هدفه.

ومِن ثَمَّ قال: «أُفضل أن أتحدث معك يا سيدي للحظةٍ على انفراد.»

«يُمكنك التحدث كما تريد يا سيدي؛ فهذه السيدة هي زوجتي.»

«إنه موضوعٌ خاص.»

صاحَ السيد دلمار وقد تصاعد توتُّرُه: «ليست لديَّ موضوعات خاصة أو أسرار غير معروفة لزوجتي يا سيدي.»

«حسنًا يا سيدي، سأُصبح ممتنًّا لك للغاية إن تمكنتُ من الحديث معك على انفراد.»

«قلت لك يا سيدي، ليس لديَّ أسرار أُخفيها عن زوجتي. ما هو الموضوع الذي تريد الحديث فيه؟»

«أنا أُصرُّ يا سيدي!»

«ماذا تقصد أيها السيد؟ أنا الذي أُصر على أن تُخبرني فورًا ما الذي أتى بك إلى هنا. وإن لم تفعل فسأطردك إلى الشارع.»

قال السيد دلمار هذه الكلمات بنبرة أثارت انزعاج زائره، الذي ربما يكون قد أدركَ جِدية التهديد الذي تسببَت فيه طريقتُه الرقيقة؛ لكنه استجمع شجاعته وتقدم نحو المكتب وأخرجَ من جيبه ورقةً سلمها في صمتٍ إلى الزوج المذهول والساخط.

كانت الورقة عبارةً عن استدعاء للمُثول أمام القضاء لتبرير عدم إنفاقه على طفلة السيدة سيلينا ويلكنز، عاملة خدمة الغُرف في فندق جريفينز هيد (وهو فندق ممتاز، معروف جيدًا للمسافرين التِّجاريين على طريق ميدلاند الذين يزورون بلدة ...)

كان السيد دلمار رجلًا خاضَ الكثيرَ من تَجارِب الحياة، على الرغم من أنه، لحسن حظِّه، لم يتعرَّض للكثير من تقلُّباتها أو شرورها ومَخاطرها. ومع ذلك، لم تُساعده معرفته وخبرته على استيعاب هذا الموقف. وخلال دقيقتَين أو ثلاث دقائق من الصمت التام، أخذَ الأشخاصُ الثلاثة ينظرون بعضهم إلى بعض بالتناوُب، وصار السيد دلمار فريسةً للمشاعر المتضاربة والأغراض المتقاطعة. في البداية وجد أنه مجبرٌ على طرد الرجل، دون سابق إنذار، لتنفيذ التهديد الذي أطلقَه منذ وقتٍ قصير، ومعاقبته كوكيل لهذه المزحة العمَلية الشائنة التي تُمارَس الآن عليه، كما تصوَّرَها، من خلال توبيخه على نحو شديد كي يَخْزى من تصرفه. وبعد ذلك، ارتجفَ أمام تخوُّفٍ غامض من أن مؤامرةً حمقاء ربما قد حِيكَت لتدمير سلامه وسلام عائلته. ثم طرأت عدةُ تساؤلات على ذهنه؛ هل تصرَّف بحصافةٍ عندما أجبر الضابط المتنكر على تقديم الاستدعاء في حضور السيدة دلمار؟ هل ينبغي أن يُعامل المرسال الذي جلب هذا التشهيرَ الرسمي الفاضح بتحضُّر؟ هل يأتمنه على سرِّه؟ ما الذي يجب حقًّا أن يفعله؟

وخلال فترة الثلاث الدقائق الوجيزة، ساوره العديدُ من الشكوك حول ما إذا كان، في نهاية الأمر، من الحكمة لرجلِ أعمال، ورجلٍ خبير بالدنيا، أن يُخبر زوجته بكل أسراره. وأخيرًا قرر أن يستمرَّ في هذا الظرف الطارئ في اتباع تلك الصراحة والاستقامة تجاهَ زوجته، التي كانت مصدرَ الكثير من الراحة لهما في حالات الطوارئ المختلفة التي تُواجهها أحيانًا حتى الحياة الهادئة لتاجر لندن ذي الأعمال المزدهرة.

كانت الزوجة قد نظَرت إلى المشهد السابق بدهشة وخوف. إذ إن تغيُّر لون وجه زوجها، وارتعاش ملامحه، والحركة المتوترة لأطرافه، في ظل الغضب المكبوت، والاشمئزاز، والرهبة، أخبرَتها أن الوثيقة التي رأته يتسلمها كانت بمثابة رسالة تمهيدية لشيء مروِّع للغاية. وهي إن لم تكن تعرف جيدًا مدى استقامة والدِ أطفالها وشرفه، لكانت قد قفزَت إلى استنتاج، في ظل حيرتها، مفاده أنه قد ارتكبَ تزويرًا، أو قتل شخصًا ما، وأن الاستدعاء

هو أمرٌ قضائي لاعتقاله بتهمةٍ ربما تُؤدي لإيداعه في سجن بورتلاند أو قد تصل به إلى حبل المشنقة.

كان الضابط هو أولَ مَن كسر الصمت.

حيث قال: «إنها مهمة مؤلمة يا سيدي.»

«لا بأسَ. ولكن ماذا يعني هذا؟» أجابَ السيد دلمار، منتقلًا بسرعة من اللامبالاة المتأثِّرة إلى الفضول المؤلم.

قال الضابط: «أنت تُدرك يا سيدي ما يَعنيه.»

لولا خشيةُ الرجل من أن يبطش به السيد دلمار، لارتسمَت ابتسامة ساخرة على وجهه.

«أنا أعرف يا سيدي ما هو.» أجاب السيد دلمار؛ وقد استجمع كلَّ عزيمته، ورفع نفسَه إلى مستوًى عالٍ من الكرامة الأخلاقية، الذي ربما لم يرتقِ إليه أبدًا في أي لحظة من حياته الزوجية، منذ اليوم الذي تزوج فيه تلك المرأةَ في شبابه ورجولته النقية، بكل السبُل المحترمة، لتُصبح شريكتَه ورفيقتَه إلى المذبح، وأضافَ:

«وأنا سعيد جدًّا بالفعل يا سيدي، لسبب واحد فقط، هو أنني لم أوافق على رؤيتك، أو أن أتسلَّم من يدك هذه الورقةَ الشائنة، دون معرفة زوجتي.»

ظلت السيدة دلمار صامتة ومتحيِّرة وقلقة للغاية.

قال الضابط بنبرةٍ اعتذارية، وهو ينظر إلى الباب وكأنه يرغب في المغادرة: «لقد قمتُ بواجبي.»

قال السيد دلمار: «يمكنك المغادرة.»

لن أسرد كلَّ تفاصيلِ المشهد الذي أعقبَ ذلك. لكن يكفي، على كلِّ الأحوال، أن يعرف القارئ أن السيد دلمار قد قرأ الوثيقةَ على زوجته، وشرحَ هدفَها بالضبط، وطلبَ مساعدتها في حلِّ هذا اللغز. ولم تكن لديه فرصةٌ لسؤالها عما إذا كانت تعتقد أنه مذنبٌ بالجُرم المنسوب إليه. فقد بادرَت هي بتأكيدِ إيمانها ببراءته التامَّة. وأخبرته أنها تشعر بأن ذلك حدث نتيجةً لخطأ فادح في الهُوية الشخصية، أو لمؤامرة شائنة.

سيكون من الخطأ القولُ إن الثقة المتبادَلة لم تترك إحساسًا مؤلمًا بالعواقب المحتمَلة لهذا الحادث الغامض؛ ومع ذلك يُمكن التأكيد أن الحدث لم يُقلل من حب تلك المرأة لزوجها، ولم يُثر في صدرها ولو للحظةٍ أيَّ شك طفيف في إخلاص زوجها.

ومِن ثَمَّ ذهبَ الرجل البائس، الذي هو ملزَم هكذا بالدفاع عن نفسه ضدَّ تهمةٍ هو بريء منها تمامًا، إلى مُحاميه الذي قال إنه لا يستطيع أن يتَّخذ قراره. إذ وقع هذا الرجل

المحترم، السيد درولي، في حيرة من أمره لتحديدِ ما إذا كان موُكله غبيًّا بما يكفي لخداعه، أو ما إذا كان ضحيةً لما وصفَته السيدة دلمار بأنه مؤامَرة شائنة، أو ما إذا كان يُمارَس ضده مخطط ابتزاز مُحاك ببراعة.

ولذا طُلِبَت مني المساعدة حينَذاك. ومِن ثَمَّ طَلبت أن أحصل على حرية تصرفٍ كاملة، حتى أتمكنَ من التحقيق في اللغز بطريقتي الخاصة. أعتقد أنه كان بإمكاني توضيحُ الأمر بسهولة أكبر، إذا لم أشعر بالحرج من دقة تعليماتي. ومع ذلك، فقد طُلب مني الاستفسار، في المقام الأول، عما إذا كانت سيلينا ويلكنز قد وكَّلَت أيَّ محامٍ، وإذا كانت قد فعلت، فعليَّ أن أتواصل معه. كما طُلب مني استخدامُ أفضل مهاراتي في تتبُّع خيوط القضية؛ وفي الوقت نفسِه، إذا كان الرجل المحترف على الجانب الآخر رجلًا ذا سُمعة طيبة، فعليَّ التعامل معه بصراحة. إذ يتوجَّب أن أشرح ظروف المدَّعَى عليه وشخصيتَه، وأؤكِّدَ استحالة ارتكابه أيَّ جريمة من هذا القبيل تتنافى مع قواعد اللياقة العائلية وأصولها؛ كما طُلب مني أن أحاول تصفية القضية أو تسويتَها دون فضيحةٍ أو تشهير.

وقد فعلتُ كما طُلب مني. إذ إن عادتي، عندما أتلقَّى تعليماتٍ محددةً من المحامين، هي أن أتبعها حرفيًّا. وقد جنَّبَتني عمومًا الكثيرَ من المتاعب، ولكي تُصبح النتيجة مُرضية، فأنا أُفضل هذه الطريقة أكثرَ من غيرها؛ لكن في بعض الأحيان تُصبح الخُطة محيِّرة ومزعجةً بعض الشيء؛ لأنني أتصور أنه من خلالها قد فقدتُ هدفي، ولم أحصل على الفضل في النجاح بمجهودي الخالص.

ومِن ثَمَّ، تأكدتُ من أن الفتاة، بِناءً على توصية سيدها وسيدتها السابقَين، قد وكلَت محاميًا، وهو ذو مكانة مرموقة بين المحامين في ذلك الجزء من البلاد. وقد استقبلَني بلُطف، وأعربَ عن استعداده لإخباري بكلِّ شيء عن القضية. ومع ذلك، أصرَّ على أن المدَّعى عليه من المؤكَّد أنه نذلٌ مخادع، ومنافقٌ بارع، وإنسانٌ ملعون، وما إلى ذلك. كما أخبرني أنه ليس هناك أدنى قدرٍ من الشك بشأن القضية؛ واتخذ موقفًا متعصبًا بروحٍ حزبية وهو مقتنع تمامًا بصحة أقوالِ موكلته.

أما بخصوص هُوية الشخص، فهو يعتقد أن أيَّ دفاع عن هذا الرجل يجب أن ينهار؛ لأنه حصل، من خلال وُكلائه في لندن، على وصفٍ للسيد دلمار، الذي يتوافق تمامًا مع الوصف الذي قدَّمَته له «موكلته البائسة». صحيحٌ أن الفتاة المسكينة، كما قال، لم ترَ الرجل منذ وقوع مصيبتها؛ لأنه لم يكن لديها المالُ للقيام بزياراتٍ إلى لندن؛ كما، في الواقع، لم تكن قوَّتُها كافيةً لتمكينها من القيام بتلك الرحلة والعودة دون تعريض حياتها

للخطر. وقد عقَد الحزنُ والعار والإهانة المريرة لسانَها حتى آخرِ لحظة ممكنة. واعترفَت بما حدث لها فقط عندما أصبحَ الدليل الماديُّ على خطئها واضحًا لسيدتها. وتابعَ المحامي قائلًا: «والعجيبُ في الأمر يا سيدي، أنه حتى بعد التأكُّد من حالة الفتاة المسكينة، رفضت أن تقول مَن هو المتسبِّب في بؤسها، وتشبَّثَت باعتقادٍ أحمقَ مفاده أنه نظرًا إلى كونه رجلًا نبيلًا، فسوف يَفي بوعده يومًا ما ويتزوَّجها. لكن الأمر كشف يا سيدي على النحو التالي. حيث أُعيدت إلى منزلها لتُحبَس هناك. ففتشَت والدتُها كيس نقودها الصغير ذات ليلة، ووجدت فيه بطاقة الرجل العديم الضمير. فتأكَّد أصدقاؤها من اسمه وعنوانه.»

وعندما حصلتُ على هذه التفاصيل من محامي سيلينا ويلكنز، كان ذلك في وقتٍ متأخِّر نوعًا ما؛ لذلك كتبتُ تقريرًا عن مقابلتي مع المحامي بأسرعِ ما يمكن، وأرسلتُه إلى المحامي الذي تلقيت تعليماتي منه في لندن.

بعد ذلك تلقيتُ الرد عبر برقية، وطُلب مني متابعةُ التحقيق، فليس هناك شكٌّ في أن القضية تنطوي على تآمُر أو احتيال.

وربما كان من الأفضل ذِكرُ بعضِ التفاصيل الإضافية لهذه القضية الغامضة عبر السرد الموجز الذي يُمكنني تقديمه عن التحقيق أمام القضاة.

ففي اليوم المحدَّد لجلسة المحكمة، حضر السيد دلمار من لندن، مع محاميه المحترم، ومع محامٍ آخرَ شهير ظهر اسمُه في ألف رواية من روايات محكمة الجنايات المركزية بشارع أولد بيلي. وقد استُجوِبَت الفتاة. حيث روَت قصتها وسط دموع وتنهُّدات وانفعالات. وخلاصة القصة أن رجلًا نبيلًا، أو «تاجرًا» كما وصفته، والذي زار بلدة ... ونزل خمس مرات أو ستًّا في الفندق الذي كانت تعمل فيه، أبدى إعجابه الشديد بها، وتحت غطاء الوعد بالزواج، تسبَّب في وقوعها في الخطيئة. ولم تتردَّد في التصريح بأن المدَّعى عليه هو مَن فعَل ذلك. وقدَّمت البطاقة التي طُبع عليها اسمه وعُنوانه إلى المحكمة. ولم يستطع الاستجوابُ المتعمق من قِبَل محامي المدعى عليه أن يُفنِّد هذه الادعاءات. وعلى الرغم من أن الرجل لم يذهب إلى الفندق المعنيِّ عدةَ مرات، فإنه بدا معتادًا على المدينة، وقد رأته يدخل فندقًا منافسًا قبل أن تعرفه كواحدٍ من نزلاء سيدها أو زبائنه. وبعد ذلك أدى المدعى عليه اليمين. ونفى أن يكون قد رأى الفتاة مطلقًا من قبل، أو أنه جاء إلى البلدة منذ عدة سنوات، أو أنه نزل مطلقًا في الفندق الذي كانت تعمل فيه.

وقد دافعَ محامي المدعية بأن القضية المرفوعة ضد المدعى عليه هي قضية محسومة. وقال إنها لا يعتريها أيُّ شك. ثم وجَّه طعناتٍ لاذعةً لسُمعة المتهم؛ ذلك أنه من خلال دفاعه

السيئ قد وجَّه إهانة إلى موكلته علاوةً على الضرر الذي سبق أن ألحقه بها. ومن ناحية أخرى، دفعَ محامي المدعى عليه بأن الأدلة التي قدَّمتها المدعيةُ منقوصة؛ كما أنها بعيدةُ الاحتمال من عدة نواحٍ؛ وأنه ينبغي ألا يُؤخذ بها مقابل شهادة المدعى عليه المحترم نيابةً عنه. ودعا الرجل الخبير هيئة المحكمة إلى رفض القضية، وألمحَ إلى أنه إذا كان الحُكم ضدَّ موكله، فسوف يلجأ إلى الاستئناف. وقد اتفقَت هيئة المحكمة مع محامي المدعية؛ وأعربت عن رأيٍ مفاده أنها فتاةٌ قد غُرِّر بها وخُدِعت؛ وقالت بعضَ الأشياء السيئة عن المدعى عليه، كما أعربت عن رغبتها في فعل ما لا يمكنها، بالمناسبة، سوى فعله، على حدِّ اعتقادي وهو منحُه فرصةً للاستئناف على الحُكم.

سيَخطر للقارئ أن هناك عدةَ وسائل لدحض بعض الحقائق الخاصة التي استندَت إليها قضية المدعية، كما حدث بالفعل، على الرغم من أنني حذفتها من أجل الإيجاز، ولأنها ليست ضرورية للتفسير يجب أن أعطيَ حقيقةً واحدة مهمة.

سيتساءل القارئ كيف وصلَت بطاقة المدعى عليه إلى يد المدعية. سأقول على الفور، من أجل إزالة بعضِ الغموض، إن الفتاة نفسَها كانت بلا شكٍّ مخطئة، على الرغم من التسرع إلى حدٍّ ما في الأدلة التي قدمَتها بشأن هُوية مَن أغواها.

لكن، ما لم يكن أحدُ شركائها قد أعطاها هذه البطاقة، فكيف يمكنها الحصولُ عليها؟ لا بد أنها قد وصلت إليها من قِبل شخصٍ شرير للغاية، يريد أن يُحوِّل التحقيقَ من مساره الصحيح إلى مسار أهل بيت رجل بريء وسديد العقل، وإلى خطَرِ تدمير سعادته وأسرته.

وهكذا أصبح تتبعُ هذا المجرم هو مهمتي الخاصة. لكن لم يكن لديَّ الكثيرُ من الوقت لاكتشاف الحقيقة قبل سماع الاستئناف والبتِّ فيه.

لم يستطع السيد دلمار مساعدتي. فقد أعطى بطاقته، في أوقاتٍ مختلفة، لمختلِف الناس؛ وخلال عدة سنوات، ربما يكون بضعُ مئات من الأشخاص هم الوسيلةَ الواعية أو اللاواعية، المباشرة أو البعيدة، لنقلِ البطاقة المدمرة من يده إلى يد المدعية.

وبعد أن أمضيتُ أسبوعًا في بذل الجهود لتعقُّب الجاني المزدوج — ودَعْني أقُلْ بصراحة، بدون أيِّ دليل يُمكنني أن أكتشفه من خلاله — كنتُ قد سئمت المهمة، لكن خلال هذه الفترة بزغ شعاعٌ من الضوء عبر ذِكْرى غير مكتملة للسيد دلمار. وتذكَّر أنه قبل حوالي عشَرة أشهر من تقديم الدعوى ضده في ... اضطُرَّ إلى زيارة نورويتش في مهمة عمل عاجلة. حيث كان الرجل الذي يَدين له بمبلغ كبير من المال يُواجه صعوباتٍ مالية، فدعا إلى اجتماعٍ لدائنيه، ودُعي السيد دلمار للحضور. وبعد إتمام هذه المهمة، كان ينوي العودةَ إلى

المدينة في قطار متأخِّر، لكنه انخرط في محادثة مع بقية الدائنين حتى تأخر الوقتُ وأصبح من الضروريِّ التخلِّي عن هذه النية. وبِناءً عليه، قضى ليلته في فندق ساراسنز هيد، وسعى إلى قضاء الساعات التي تسبق النومَ في التدخين وتناوُل الشراب في قاعة التجَّار بالفندق. حيث قابل الموجودين، كما قد يفعل أيُّ غريب متواضع، بتحيةٍ وُدية ورفقة جيدة. وتعرَّف السيد دلمار هناك على رجلٍ ظل يُثرثر معه وتقرب منه للغاية. هذا الرجل، الذي أخبره عن مجال عمله أثناء المحادثة، أخرج علبة بطاقاته وكان على وشك منح بطاقته للسيد دلمار، ولسوء الحظ، كما قال، وجد أنها قد نَفِدت، لكنه أخبره بعُنوانه. فأخرج السيد دلمار أيضًا علبة بطاقاته، ولسوء الحظِّ أيضًا، كما ستوضح بقيةُ الأحداث، أعطى التاجر اسمَه وعُنوانه المطبوعَين.

لم أستغرق وقتًا طويلًا — وكذلك سيفعل أيُّ شخص، كما أظن — في استنتاج أن هذا التاجرَ هو الشرير في قصتي.

ومِن ثَمَّ أخذتُ صورة فوتوغرافية للسيد دلمار في جيبي، وحجزتُ تذكرتي بسرعةٍ إلى نورويتش، ولم يكن لديَّ الكثير من الشك بشأن الإيقاع بذلك الوغد.

هل يرغب القارئ في معرفة كيف أوقعتُ به؟ تبدو عمليةً بسيطة وسهلة للغاية بعد شرحها، ولا أظن أن الكثير من الفضل يعود إليَّ في ذلك. امنح رجلًا ثاقبَ الفِكر خيطًا، وأضمنُ لك أنه إذا كان لديه الوقتُ والفرصة، فسوف يتمكن من خلاله من حلِّ اللغز.

حسنًا، إن الطريقة التي تتبعتُ بها الخيط إلى أقصى الحدود كانت كما يلي. لقد استنتجتُ على الفور في ذهني أنَّ ميول هذا الرجل ستسبقه أينما ذهب، وأنه في أغلب الفنادق والحانات التي أقام فيها سنجد على الأقل خادمةً جميلة واحدة تتذكَّر اسمه وشكله.

وقد كنت على حق. فبعد أن تعرفت بأسلوبٍ محترم وبريء على الخادمات في فندق ساراسينز هيد في نورويتش، تجرأتُ وعرَضت على إحداهن صورةَ الرجل الذي أقتفي أثرَه. فرأيتُ على الفور أن هذه الفتاة تشعر نحوَه باستياءٍ شديد. لقد لاحظتُ شيئًا مثل احتقار، أو اشمئزازٍ منه. وكان هذا كافيًا بالنسبة إليَّ. فقلت للفتاة بصراحة إنني أريد أن أتعقَّبه وأُعاقبه على جريمة دنيئة وحقيرة. وقد رأيتُ، على الرغم من أنها خادمةُ غرف في فندق، أنها كان لديها حسُّ احترام قواعد السلوك التقليدية كغيرها من النساء. ومع ذلك، للتأكُّد أكثرَ من مساعدتها لي، ناشدتُها مستخدمًا وسيلة أخرى، والتي من المفترض أن يكون لها بعض التأثير على فتاة فقيرة. حيث عرَضتُ عليها مكافأةً قدرها خمسةُ جنيهات ذهبية

إذا مكَّنَتني من اكتشافه، وكتأكيدٍ لصدق المكافأة وجديتها منحتُها جنيهًا ذهبيًّا في الحال. فأخبرتني أنها تعتقد أن الصورة تُشبه ملامح السيد جون براون، موظف التحصيل بشركة السيجار الذي يتنقل على هذا الخط، والذي أقام في هذا الفندق منذ فترة، والذي قد يعود مرة أخرى في غضون أسبوع أو أسبوعَين على الأكثر، حيث إن موعد زيارته إلى نورويتش قد اقترب. كما قالت إنها ستعرض الصورة على الخادمات الأُخريات، إذا تركتُها معها، ولما كان بإمكاني الحصولُ على صورة أخرى بسهولة، فقد فعلتُ ذلك. اتفقَت بقية الخادمات على أن تلك الصورة لم تكن صورة السيد جون براون بالفعل، لكنها تُشبهه للغاية. وقالت إحداهن: «مَن في الصورة يُشبهه تمامًا.» وفي صباح اليوم التالي وصلت رسائل إلى الفندق، بخصوص تأكيد حجزٍ للأشخاص المتوقَّع وصولهم (والتي توضع على رف في الغرفة التجارية)، ومن بين تلك الرسائل رسالتان للسيد جون براون من لندن. وفي اليوم التالي، وصل السيد جون براون من لندن، وأدهشني شَبهُ الرجل وهو يفتح باب الغرفة التجارية، التي كنت جالسًا فيها حينذاك، مترقبًا وصولَه في قلق. ولا داعي لأخذ القارئ عبر الخطوات اللاحقة لتحقيقي. فهو سيُدرك أنني قد امتلكت زمام الأمور. إذ يكفي أن نقول إن بعض الاستفسارات حول الموضوع أوضحت حقيقة أن مسافرًا منتظمًا (على الطريق الذي تقع فيه بلدة ... وفندق جريفينز هيد) قد أُصيب فجأةً بالمرض، وأن العديد من الحسابات مستحَقة للشركة التي يُسافر من أجلها على هذا الخط، فكلفت الشركة السيد جون براون بالقيام بالرحلة إلى وسط البلاد عدة مرات. وخلال إحدى هذه الرحلات، وجد فرصتَه الشرِّيرة لإغواء خادمة الفندق، والتلاعب بها عبر الحيلة الدنيئة التي أدَّت إلى استدعاء السيد دلمار، وتقديم المدعية للشهادة الطائشة عن هُويته، وإدانته من قِبل هيئة المحكمة. وهكذا أصبح من الضروري توضيحُ أن الحكم الصادر ضدَّ السيد دلمار قد أُبطِل في محكمة الاستئناف؛ وأن شخصيته كرجل يتمتَّع بشرفٍ لا تشوبه شائبةٌ وبالفضيلة العائلية قد تعزَّزَت، إن أمكن، عبر المحنة التي خاضها.

امرأة منعدمة الضمير

قبل بضع سنوات، وُكِّلتُ لكشف غموض قضية لا تختلف من نواحٍ كثيرة عن جريمة قتل رود الشهيرة؛ وكان عليَّ أن أُقدم المجرمَ إلى العدالة إذا أمكن ذلك. والقضية هي جريمة قتلِ طفل. كان المنزل الذي ارتُكِبَت فيه الجريمة البشعة عبارةً عن كوخ، يتوسط قطعة أرضٍ واسعةً — ربما تبلغ مساحتها ١٠ أفدنة — يربطها طريقٌ رئيسي، لا يُستخدَم كثيرًا، ولا تمر عليه أيُّ عربات، باستثناء تلك المتوجِّهة من أو إلى الكوخ المذكور أو منزل ريفي مجاور.

أشعر أن لي الحريةَ في الإشارة إلى مكان وقوع هذه الجريمة، فقط بأنه في مقاطعةٍ تقع جنوب إنجلترا.

ومع ذلك، لشرح طبيعة القضية، يجب أن أُشير إلى أن ساكني الكوخ هم أسرة مكوَّنة من رجل نبيل تقاعدَ من تِجارته في لندن وزوجته وأطفاله وخدمه.

كان الرجل متشائمًا، كارهًا للبشر، وميالًا إلى العُزلة بشكل مَرضي. وهو رجلٌ غريب الأطوار، كان يدفع الناسَ إلى التحامل ضدَّه في كل مكان. وحتى التقاعد في هذا الكوخ لم يكن كاملًا بحيث يعزله كليًّا من الاتصال بالعالم، أو يُجنِّبه ذلك التحامل.

لقد تزوج — في وقتٍ متأخِّر من حياته بكثير عن المعتاد بالنسبة إلى الرجال الأثرياء — قبل نحوِ عامٍ من إقامته في المكان الذي وصفته. وزوجته هي فتاة فقيرة، رغم أنها جميلةٌ إلى حدٍّ ما، وفي رأيي، فإن لُطفها وطيبتها عوَّضا مثل هذا الرجل عن افتقارها إلى المؤهلات الفكرية.

وفي اللحظة الآنية التي أحدثكم فيها كان مَن يعيشون في هذا الكوخ هم السيد روبنسون وزوجتَه وطفلَيهما الرضيعَين وخادمتَين للعائلة؛ إحداهما فتاة شابَّة تبلغ من العمر ٢٣ عامًا تقريبًا أحضَروها معهم من لندن إلى هذا المُعتزل في جنوب إنجلترا.

وذاتَ صباح في شهر يونيو، نهضت السيدة روبنسون من سريرها في نحو الساعة السادسة والنصف، وقبل أن ترتديَ ملابسها، كما كانت عادتها، عبَرَت الممرَّ المتعرج وغرفة الاستقبال والطعام إلى غرفةٍ بعدها، حيث ينام طِفلاها بصحبة الخادمة التي تُؤدِّي واجبات المربِّية. وكان كلاهما نائمَين. ومع ذلك، فقد اندهشت لملاحظة أن أحدَهما بدا باردًا عند لمسه. في دهشة ورعب، اكتشفَت المسكينة أن طفلها الأصغر كان نائمًا في حضن الموت!

هُرِعت الأمُّ الثَّكلى بشكلٍ محموم إلى زوجها، الذي كان قد استيقظ للتوِّ من سُباته، وأفاقته إلى وعيه التامِّ بصُراخها وعويلها الجامح. سرعان ما انتفضَ الزوج من فِراشه، وبدا الجميع، كما يجب أن يكون، متأثرًا بالحزن الشديد.

كان الاهتمام الأكثرُ صَخبًا والألم الأكثرُ وضوحًا هو الذي انسكبَ في هيئة البكاء والدموع والاعتراضات وكلمات النعية — كلها غامضة وغير متماسكة وغير محددة — التي صدرَت عن الخادمة.

لن أُسهِبَ في الحديث عن الحادث المخيف، ولن أُحاول أن أرسم بالتفصيل فاجعةَ تلك الأسرة وبؤسَها. ربما تكفي الإشارة إلى أن تلك الشائعة الخبيثة قالت كلَّ أنواع الأشياء القاسية. كانت الثرثرةُ المحلية تعكس حالةً كبيرة من عدم الرِّضا عن إجراءات التحقيق؛ فِطْنة قاضي التحقيق، أو عدم فِطنته، وحِكمة هيئة المحلَّفين أو افتقارها إلى الحكمة. وكان من بين الحقائق المروِّعة التي تُؤكدها الشائعة (والتي كانت في أغلب الأحيان تستندُ إلى شكوكٍ ومزاعمَ ليس لها أيُّ أساس من الصحة) في هذه القضية، اتهامات بوجود علاقة حميمية غيرِ لائقة بين المربية وسيد المنزل، وغيرة هذه الفتاة من سيدتها، تلك الغيرة التي قيل إنها أدَّت إلى ارتكابها الجريمة، من خلال رغبةٍ في الانتقام بإذاقة الأم ألوان العذاب. وقد أوعزَ أحدُ المنظِّرين البارزين — الأشبه بعرَّافٍ محلِّي في نظر الكثيرين، والذي كان يظنُّ بنفسه أنه أُوتي الحِكمة كلَّها — بأن السيد روبنسون، ذاك التاجر المنحط الأناني المتكبِّر، خشي أن يُسارع أبناؤه بالتعدي على أرباحه المتراكمة، ومِن ثَمَّ لجأ إلى الوسيلة التركيَّة لتقليص الأُسَر؛ باستخدام يد خادمته الوضيعة — في قضيتنا هذه — لتنفيذ مخطَّطه الحقير.

وقد أقرَّ الجراح الذي أجرى تشريحًا للجثَّة بعد الوفاة — وهو رجلٌ خبير في مِهنته — والذي امتنعَ عن تقريرِ ما إذا كان يرجح نظرية الموت العرَضي أو القتل العَمْد، بعد أن

أقسم اليمين، أنه مِن الممكن أن يكون الطفل قد كُتِمت أنفاسه من قِبَل المربية في أثناء الليل عن طريق الصُّدفة.

انقسمَت آراءُ هيئة المحلَّفين لمدة ساعتَين حول الحكم الذي يتعيَّن عليهم اتخاذُه. حيث رجَّح البعضُ حكمًا بجريمةِ قتل عَمْد ضد السيد روبنسون. بينما رجَّح أحدهم أن يُصدر حكمًا بتسليم زوجته إلى حبل المشنقة. في تبرير موقف الأحدَ عشَر شخصًا الآخرين من قِبل هيئة المحلَّفين؛ يُمكنني أن أُضيف أنه كان هناك ميلٌ قوي، وسط جدِّية هذا التحقيق، إلى فرض عقوبةٍ جسدية على الرجل الأكثرِ غباءً. ووُجِدت رغبةٌ قوية للغاية في صدور أكثرِ من الأغلبية في إقرار حكمٍ يُدين المربيةَ بالقتل العَمْد، إما مع أو دون إقحام سيِّدها في تلك الإدانة. ومِن ثَمَّ استُشير القاضي، ومع قدرٍ هائل من الإحاطة، وهو الأمر الذي حيَّر بشدة مساعديه الحكيمَين وأربكهم، أصدر رأيه بأنه لا يوجد دليلٌ كافٍ أمام هيئة المحلفين لتبرير حكم القتل العَمْد ضدَّ أي شخص. كما غامر بإخبار هيئة المحلَّفين أنه ربما من الأفضل لهم أن يجدوا ما أسماه «حكمًا مفتوحًا»؛ وهذا يعني، إما «القتل العَمْد»، دون التكهُّن بالجاني، أو «وُجِدَ مقتولًا»، مع تركِ سبب الوفاة للمزيد من البحث والتحقيق.

وفي هذا الوقت تقريبًا استشارني رجلٌ نبيل، دون تدخُّل أيِّ مُحام، وطُلب مني البحث عن الحقائق بطريقة محايدة؛ وكانت توجيهاتي بعدم التقليل أو التهويل من أيِّ شيء.

مَن كان هذا الرجل؟ ما دافعُه؟ ما الرغبةُ الكامنة لديه حقًّا؟ مَن أراد أن يُبرئ، وعلى مَن رغبَ في توقيع العقوبة المرتبطة بالجريمة المفترَضة؟ يجب أن يعذرني القارئ لعدم قدرتي على التصريح.

وقبل أن يطلب مني هذا الزائرُ تولِّيَ الأمر، تلقيتُ تعليماتٍ بالتحقيق في قضية تزوير كُبرى في أحد البنوك. وكنت سأحصل، كمُكافأة مقابلَ خدماتي في حالة التزوير هذه، على مبلغٍ ضخم للغاية؛ وكان لديَّ أيضًا، كما كنت دائمًا، نُفورٌ من التحقيقات في قضايا القتل الغامضة. لم أكن أبدًا الوكيلَ الذي بسببه طوَّق حبلُ المشنقة رقبةَ الجاني. فهذه مسئولية مروِّعة (خوفًا من الخطأ) كنت أتجنَّبها دائمًا. وبصراحة، دعني أقُل، كنت أُفضل تجنُّب هذه المسئولية تمامًا، وقد استطعت، على ما أعتقد، الهروبَ بلباقةٍ من الانخراط شخصيًّا في هذا الأمر، حيث عرَضتُ على الزائر خطابًا يتضمَّن دفعةً مقدَّمة قدرها ١٠٠ جنيه تحت حساب أتعابي عن قضية التزوير. وقد كان رجلَ أعمالٍ حصيفًا، ورأى في الحال أنه لا يُمكنني أن أتخلى عن مهمة مربحة وسهلة نسبيًّا من هذا النوع مقابلَ تحقيقٍ أكثرَ صعوبة

وأقلَّ رِبحًا يُريد مني أن أتولاه. ومع ذلك، فقد قبلتُ القضية وأخذتُ دفعة مقدمة، ولكن بشرط؛ وهو أنَّ مَن سيُحقق في القضية هو مساعدٌ ينوب عني، وسأُشرف عليه بشكل عام أو أنصحه وأُوجِّهه.

ويمكن أن أخبر القارئَ أيضًا أنه من خلال تدخُّل أحد أصدقاء زائري، سُمِح لمساعدي بالإقامة في الكوخ، وقيل له أن يستخدمَ هذا المكان المنعزلَ كنقطة مركزية في تحقيقاته.

وبِناءً عليه، فقد وظَّفت أفضلَ مساعد لديَّ أو جعلته يترك القضية الأخرى الموكلة إليَّ، التي احتجتُ فيها إلى بعض المساعدة، وأرسلتُه إلى جنوب إنجلترا.

ولا أعتقد أنَّ هذا الرجل كان قادرًا تمامًا على إنجاز مهمَّته. بالطبع لم يتشكَّل لديَّ هذا الرأي عندما شرَعتُ في إسناد المهمة إليه؛ لكن مراجعة ما حدث الآن تدفعُني إلى الاعتقاد أن أسلوب عمله لم يكن مناسبًا إذ كان يستعرض شكوكَه على نحوٍ صارخ كما كان يكشف عن صفته ولم يكن يحتفظ بسرِّية العمل الذي يقوم به، ولكن ربما كانت لديه أسبابٌ وجيهة.

كان كلٌّ من السيد والسيدة روبنسون مقتنعَين بأن جريمة القتل (إذا كان ثَمة جريمةُ قتل) لم يرتكبها أيُّ شخص في منزلهما. وكان كِلاهما على استعداد لإنفاق أي مبلغ من المال للدفاع عن خادمتهما المشتبَه بها، إذا أُلقيَّ القبضُ عليها للاشتباه. لقد توصلا إلى استنتاجٍ مفاده أن الواقعة المحزنة كانت نتيجةً لحادث، ولم تكن فرضيةً انفعالية.

ومع ذلك، لو كانت القضية تتعلق بجريمةِ قتل —لا يبدو أنَّ هناك دافعًا واضحًا لارتكابها — فلا بد أن يكون قد ارتكبَها شخصٌ ما تمكَّن من الوصول من الخارج إلى الغرفة التي كان الطفلُ ينام فيها، وقد أظهر فحصٌ سريع للمكان بواسطة مساعدي أنه ليس من الصعب بأيِّ حال الدخولُ والخروج من خلال نافذة تنفتح على أحد جوانب الكوخ. وقد كان مساعدي سيتوصَّل إلى استنتاج سريع جدًّا أن وفاة الطفل المسكين كانت نتيجةَ حادث، وكان سيعود إلى لندن، لولا الشكوكُ الظاهرة التي أُثيرَت في حضرته داخل الكوخ نفسِه.

كانت الخادمة المربية فُضولية جدًّا لمعرفة رأيه، وحريصةً جدًّا على اقتراح نظريات معاكسة وغير محتمَلة، ومسرِفة جدًّا في التعبير عن الاحترام للسيدة روبنسون و«الصغير العزيز ويلي». لقد تابعتُ مساعدي عن قرب بشكل بدا له أنه يُشير إلى نوعٍ من الافتتان أو الرعب. على الأقل هذا ما قاله لي حول سلوكها. هذا وحده جعله يعتقد أن تلك الفتاة هي

القاتلة، وقرَّر أن يبقى لأطولِ فترة مُمكنة، مع تصنُّع الظهور بالمظهر اللائق، في الكوخ، واثقًا تمامًا من أن شيئًا ما سيَظهر لإثباتِ الجريمة عليها، وربما على شخصٍ آخر على صلة بها.

كانت الغرفة المخصَّصة له رَحْبة ومُريحة إلى حدٍّ ما، ومجاورة للغرفة التي تُوفي فيها الطفل الصغير، وعلى مسافة قريبة من الغرفة التي تنام فيها مربيته منذ «الحادث». بالطبع لم يكن مساعدي مؤمنًا بالخرافات، ولم تكن لديه مخاوفُ غير طبيعية، ولهذا السبب، ربما، ترك صندوقَ ملابسه مفتوحًا وشفراتِ الحلاقة مبعثَرة أثناء إقامته في الكوخ.

علاوة على ذلك، لم يكن مساعدي يخاف من الأشباح، وهذا من حسن الحظ. وكان مِزْلاج النافذة مكسورًا، وقُفْل الباب متهالكًا، لدرجة أنه لم يكن ليمنعَ دخول أيِّ كلب أو قطة جريئة، ولم يوفر للغرفة أيَّ حماية ضد الأرواح المتطفلة.

في إحدى الليالي، بعد حوالي أسبوع من وصوله إلى الكوخ، كان قد خلَد إلى النوم — وهو ذلك النوع من النوم الذي قد يُسمَح به لرجلٍ في مثل مهنته؛ إذ كان دومًا نومه أقربَ إلى اليقظة، حيث يُمكن لوقعِ أقدامٍ قزَم أن يُثير وعيه دون أن تتحرك عضلةٌ لديه أو يُرفَع أحدُ جفنَيه، ومن هنا لم يكن واردًا أن تُزعجه تحيَّة المدفعية على نحوٍ مفاجئ بما يكفي لإحداث رجفةٍ أو ارتعاشة في جلده أو عضلاته — وبينما هو نائم فُتِحَ ذلك الباب غير المؤمَّن، وظهرت بجانبه هيئة امرأة ترتدي ثوب النوم.

أثارت خطوتها يقظةَ مساعدي وهو مستلقٍ على السرير ووجهُه إلى الباب. ففتح عينَيه برفقٍ وبقدر كافٍ لتمكينه من فحص شكل الزائرة الليلية وتحديده، دون السماح لها بملاحظة تأثيرِ وجودها عليه. ورآها تُقلِّب بصرها في أرجاء الغرفة، التي أضاءتها أشعَّة القمر بشكل كافٍ يسمح برؤية الأشياء الموضوعة على منضدة التزين وفي بقية المكان. ظنَّ مساعدي أن عيون الزائرة أخذَت تُحدق في شفرات الحلاقة المبعثرة، واستغل الفرصة التي أتاحتها له إشاحةُ وجهها بعيدًا عن سريره لتحرير ذراعيه إلى حدٍّ ما من أغطية الفراش. وأصبح الآن على استعداد لمواجهة هجومها عليه ربما باستخدام شفرات الحلاقة.

لكنه قد أساء فَهْم غرضِ المرأة من زيارتها لحجرة نومه في تلك الليلة.

إذ استدارت مرة أخرى في اتجاه السرير. فاعتقد الآن أنه من الحكمة السماحُ لها بمعرفة أنه قد لاحظ وجودها. وجلسَ في هدوء متخذًا وضع القُرفصاء، ومثبتًا عينيه عليها.

ومِن ثَمَّ سألها في صرامة: «ماذا تفعلين هنا؟» ويبدو أن الكلمات قد نبَّهَتها.

فأجابت بلهجة متلعثمة وجُمَل متقطعة: «ماذا؟ أريد أن أراك. لماذا تنظر إليَّ طَوال اليوم؟ ماذا تقصد بالنظر إليَّ هكذا؟ هل تقصد أن تقول إنني قد قتلتُ ويلي؟ قل أيَّ شيء ضدي وسأُدمرك. عِدْني أنك لن تقول أي شيء ضدي وإلا فسأصرخ عاليًا.»

ثم حدَّقَت فيه بثَبات، وقالت ما كانت بلا شكٍّ هي الكلماتِ الوحيدةَ التي تنوي قولها: «إذا لم تَعِدْني هنا، وأنت جالس على هذا السرير، بأنك لن تشكَّ فيَّ، وأنك لن تقول أي شيء ضدي، وأنك لن تنظر إليَّ كما تفعل ولن تُحاول جعل الناس يشكُّون فيَّ، فسأصرخ. وأقول إنك طلبتَ مني أشياءَ غير لائقة؛ وإنك أغويتني، وإن ضميري قد أيقظني من نومي، وأنا أخاف من مخططاتك الشريرة الأخرى.»

«أوه، سوف تفعلين، حقًّا؟ وماذا بعد؟»

«ماذا بعد؟ عجبًا، ألن يقولَ الناس إنك بعد أن خدعتَني كي آتيَ إلى هنا وأُمارس معك الفاحشة، تخليتَ عني من أجل تغطية سلوكك غير اللائق؟»

ويعترف مساعدي باعتقاده أن هذا «ذكاء شيطاني». ولو أنه لم يكن هو الضحيةَ المقصودة، فإنه كان على حدِّ اعتقادي معجبًا جدًّا بمهارة هذه الفتاة، لدرجة أنه ربما كان سيعرض عليها أن تعمل في مِهنتنا كمحقِّقة خاصة، وأن يؤسِّس معها مكتبًا للتحقيقات كي يُنافس مكتبي. لكنه رأى الخطر المحدِقَ به، ولم يعجبه أن يصبح هدفًا لتجرِبةٍ مع وجود مثل هذه الحوادث المميتة التي تحيط بها.

وهكذا أمسك معصميها بإحدى يديه، ودفعها باليد الأخرى بعيدًا عن السرير، ثم وضعَ يده على شفتَيها، وأمسكَ بإحدى الشفرات الموضوعة على المنضدة، ووضعها أمام عينَيها لتخويفها دون أن يقول شيئًا، مع ذلك، ثم أسقط الشفرة فجأة بالقرب من المكان الذي يقفان فيه، وأمسك بالفتاة مرة أخرى، وصرخ بكلِّ قوته.

إنَّ مساعدي لم يكن لينخدع.

حيث اتهم هذه الفتاةَ بمحاولة سرقة غرفة نومه؛ لعلمها أنه من السهل فتحُها، وظنِّها أنه سيكون نائمًا، ومعرفتِها أيضًا أنه لم يكن حريصًا بما يكفي أثناء إقامته في المنزل إذ ترك شفراتِ الحلاقةِ الخاصةَ به على منضدة التزيُّن. وأعلن أنه استيقظ فرآها تضع الشفرة على حلقِها، وهي تنوي الانتحار في غرفته، بهدف — حسبما يقترح — إلصاق جريمةِ قتلها به.

سيكون من الضروريِّ فقط توضيحُ مزيدٍ من المعلومات للقارئ، وهي أنه على الرغم من عدم إمكانية تقديم أدلة كافية للحفاظ على لائحة اتهامٍ بارتكاب جريمة القتل العَمْد

ضد هذه المربِّية، وعلى الرغم من أنه كان يُعتقَد عمومًا أنها ارتكبت جريمة القتل (وهي حقيقةٌ كان لديَّ شكوك حولها، لأنني أعتقد أن الطفل قد اختنق بالخطأ أثناء نومه، كما هو الحال في كثيرٍ من الأحيان مع الأطفال)، لم يُقدَّم دليل إلى هيئة المحلَّفين لدعم لائحة الاتهام بارتكابها جريمةً يُعاقَب عليها بالإعدام؛ لكنها اتُّهِمَت وعُوقبت لمحاولة الانتحار.

عصابة الحَرْق العَمْد

في عام ١٨٣٣ أُوكل إليَّ التحقيقُ في ملابسات حريقٍ — واحد من سلسلة حرائق — انتهى بمطالباتٍ ضد العديد من شركات التأمين الكبرى في لندن، ويُعتقَد أن تلك الحرائق قد نشبت بسبب احتيال متعمَّد.

وقد اندلعَ الحريقُ الحالي بعد ظهر يوم الإثنين بين الساعة الواحدة والساعة الثانية، في مستودعٍ تابع لمصنع كبير لأغطية الرأس بالقرب من دانستابل، في بيدفوردشير.

ومن بين الملابسات الغريبة لهذه القضية الحقيقةُ اللافتةُ إلى حدٍّ ما، وهي نقلُ ملكية أعمال المصنع للتوِّ من مالكٍ إلى آخر، وأنَّ بوليصة التأمين كانت بحوزة مسئولي الشركة، في مقرِّها الرئيسي في لندن، لغرضِ الحصول على نقلٍ للعقد؛ مصدَّق عليها.

وقد أبلغَ المالكُ الجديد إدارةَ الإطفاء بأنه قرَّر توسيعَ مبناه من أجل توسيع أعماله.

وفي رسالة إلى الشركة، ذكَرَ بالفعل، بعباراتٍ دقيقة، أنَّ بحوزته آنَذاك عدةَ طلبياتِ تصدير كبيرة يريد إنجازها. ومِن ثَمَّ فإن الوثيقة، التي كانت تُغطي تأمينًا بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه حتى ذلك الحين، زِيدَت الآن إلى ٤٥٠٠ جنيه.

وبعد مدَّة وجيزة من تلقِّي الشركة هذه الرسالةَ الأخرى، التي ذكر فيها كاتِبُها أن مبلغ ٤٥٠٠ جنيه لن يُغطيَ قيمة جميع التحسينات والآلات والمخزون التجاري؛ ولذا اقترحَ زيادة مبلغ التأمين إلى ٦٠٠٠ جنيه.

ونظرًا إلى أن هذه كانت مخاطرةً كبيرة بشكل غير معتاد بالنسبة إلى بوليصة تأمين ريفية، وحيث إن المبنى كان على بُعد نحو ثلاثين ميلًا فقط من المدينة، فقد قرَّر المجلس أن يتوجه خبير المعاينة الخاص بالشركة إلى هناك ويُقدِّمَ تقريرًا عن الحالة قبل قَبول الاقتراح الأخير.

وبِناءً على ذلك ذهبَ السيد فيليمور، خبير المعاينة. ووصلَ الساعة الحادية عشرة ظهرًا تقريبًا، واستقبلَته الشركة وتُدْعى «نيوتن براذرز» باحترامٍ شديد، حيث أطلَعوه على المبنى، الذي فحَصه بدقته المتناهية المعتادة، ودُعي لاحقًا للصعود إلى مكتب المدير في موقع العمل، حيث وافقَ على تناول كأسٍ من الشراب وشطيرة إلى أن يحينَ موعدُ قطار العودة إلى المدينة.

لقد مرَّت الآن بضعُ دقائق بعد الساعة الواحدة، وكان جميعُ العاملين في المصنع قد غادروا المبنى لتناوُل الغداء.

وذهبَ العضو الأصغر في الشركة، السيد ألبرت نيوتن، ليُحضِر الشراب، ثم عادَ في غضون بضعِ دقائق، وظلَّ يتحاور مع خبير المعاينة لمدة نصف الساعة أو ثلاثة أرباع الساعة، إلى أن بدأ العُمَّال في العودة.

وقبل وصول العديد منهم، انطلقَت صيحة: «حريق!» حيث اكتُشِف أنَّ جزءًا من المبنى القديم، المجاورِ للمبنى الجديد، اشتعلت فيه النيران، وأن كَمِّيةً كبيرة من القبعات المصنوعة من القش وكذلك أغطية الرأس قد اشتعلت. وبسرعة هائلة، امتدَّت ألسِنةُ اللهَب إلى جوانب المستودع، الذي خُزِّنت فيه، على ما يبدو، كميةٌ كبيرة من البضائع المصنَّعة. لكن المظاهر كانت خادعة بعضَ الشيء في هذا الصدد. فقد وُزِّع المخزون على الرفوف (ربما كان ذلك لتسهيل التصنيف) بحيث بدا الحجمُ أكبرَ مما هو عليه بالفعل. ولكن، ربما ساعدَ هذا الأمر على تزايُد الحريق أكثرَ من إعاقته؛ لأن اللهب انتشر بسهولة أكبرَ عبر الفجوات أو المساحات التي خُزِّنت فيها الطرود، أكثرَ مما كان ممكنًا لو كانت مُعبَّأةً بشكل أكثر كثافة.

خيَّم ارتباكٌ ورعبٌ على الأشخاص القلائل في الجزء السفليِّ من المبنى، وشلَّ الرعبُ جهودَهم لمدَّة. كما أنهم لم يعلموا أن هناك أيَّ أشخاصٍ موجودين في الغرف بأعلى؛ فقد فهموا على الأرجح أنهم، مع العائدين من الغداء، كانوا الأشخاص الوحيدين في نطاق الحريق. وبِناءً على ذلك هُرِعوا إلى المدينة، وبحَصافةٍ جديرة بالثناء — أي فورَ استعادتهم الهدوء والعقل — سعَوا إلى الحصول على المساعدة في إخماد النيران. وبالنسبة إلى بقية العمَّال، عند وصولهم، فإنهم إما انطلَقوا في مهمَّات مماثلة، أو تجمَّعوا حول الجزء الخارجي من المبنى.

في غضونِ ذلك، واصلَت ألسنةُ اللهب مسارها دون رادع، وانتشرَت بالسرعة المشارِ إليها بالفعل، وسرعان ما أتَت على الطابق الأرضي بأكمله. وبدأت في التهامِ السلَّم، وقليلٍ

من العوارض الخشبية، قبل أن يصلَ إشعارُ خطرها إلى عددٍ قليل من الموجودين في الطابق العلوي.

لقد انزعجَ السيدُ نيوتن وخبيرُ المعاينة لدى الشركة في البداية من همهمةٍ خافتة أو ضجيج ناتج عن محادثة المتجمهِرين الذين كانوا في الأسفل ينظرون إلى المشهد.

كان سلوك الحشد وتصرفه بعد ذلك موضعَ الكثير من الاستفسارات والشكوك، ولكن لم يكن هناك في الحقيقة سبب للشك أو الدهشة. فلو كان الحريقُ قد اندلع ليلًا، لأصبح هناك الكثير من الأسباب للاعتقاد بأن صيحات الإنذار الطبيعية كانت ستأخذ نبرة أعلى وأقوى من التظاهر. ولو كان مثل هذا الحريق قد اندلع في لندن، حيث عادةً ما يُمكن العثور على الأشخاص في جميع الأوقات في كل طابق من مستودعٍ كبير، وحيث إن الألفة النسبية للأشخاص بمثل هذه الحوادث تقودهم إلى اتخاذِ خطواتٍ أكثرَ حِكمةً مما قد يفعله سكانُ الريف، فإن صيحة «حريق! حريق!» كان الجميع سيطلقها في وقتٍ واحد حتى في وضَح النهار. لكن لأن الناس غيرَ المعتادين على مثل هذه الأشياء، قد أصابهم الشلل بسبب الرعب إلى حدٍّ كبير، وبسبب الذهول بدرجة أكبر، لم تصدر عنهم صيحاتٌ عالية بما يكفي لإيقاف محادثة الجَمْع الصغير المهدَّد بالخطر في الطابق العلوي، وهذا ليس أمرًا لافتًا، حسَبما يبدو لي.

إنَّ الأصوات التي قرَعَت آذانَ السيد ألبرت نيوتن وضيفه في البداية جعلتهما يُصغيان، وفي الوقت نفسِه صرَخ أحد المحتشدين (لأنهم كانوا قد تجمَّعوا في هذا الوقت): «حريق!» كما داهمت رائحةُ مادة محترقة أنوفَ الجَمْع الصغير.

لا داعيَ للقول، إنهما قد هُرِعا على الفور إلى النافذة بهدف التأكد من الأمر، وتحديد المسار الذي يجب اتباعُه إذا كانت حياتهما، مثلما تأكَّدا تقريبًا، في خطر.

أثار ظهورُ السيد ألبرت نيوتن عند النافذة صرخةً من النساء والفتيات، وصيحات إنذار من الرجال بالأسفل.

صاحَ السيد ألبرت نيوتن: «يا إلهي! إنَّ المصنع يحترق.»

وبينما كان يتحدَّث، تصاعدت ألسنة اللهب عبر النوافذ السفلية بكثافة؛ وعلى الرغم من أن جزء المبنى الذي يقف فيه المالِك وضيفه كان إلى حدٍّ كبير باتجاه الشرق من ذلك الجزء الذي سيطرَت عليه النار، فإن الخطر كان كافيًا لشحوب وجهَي الرجلَين، ولجعل المالِك — الذي كانت لديه، بالطبع، خبرةٌ أقلُّ بكثير في مثل هذه الأمور من خبير المعاينة، السيد فيليمور — يُظهِر درجة من الارتباك جعلَت هذا الرجل المحترم يُصاب بالقلق أكثر مما يُمكن أن تفعله النار وحدها.

مع درجةٍ من الهدوء وتمالُك الذات يُناسبان الأزمةَ، سأل السيد فيليمور السيد نيوتن عن وسائل الهروب المتاحة لهما، وناشده أن يُحافظ على هدوئه، حيث يستلزم الأمر تمالُكَ الذات بالإضافة إلى الشجاعة؛ حتى يُنقذا نفسَيهما من هذا المأزق.

صاحَ الرجل الحائر: «هل نقفز من النافذة؟»

وكان رده الحازم: «كلا!»

«هل تعتقد أنه يُمكننا نزول السُّلَّم بأمان؟»

«دعنا نُحاول.»

ومِن ثَم حاولا نزول إحدى درجات السُّلَّم، لكنهما وجدا دخانًا كثيفًا يتصاعد عبر بئر السُّلَّم، وهي صعوبة لا يمكن تخطيها.

فصاحَ السيد نيوتن: «نحن هالكون!»

بدا القلق الشديد على وجه خبير المعاينة؛ لأنه أدرك أن هتاف الرجل المذعور ينطوي على حقيقة مروعة.

«دعنا نُحاول الوصول إلى السطح. هل لديك أي حبل هنا؟»

أجاب السيد نيوتن: «أجل.»

وفي صمتٍ وسرعة كادا يطيران بدلًا من الركض صعودًا على السلَّم، وتقدم نيوتن الطريقَ إلى حيث توجد لفافةٌ من الحبال القوية، قُطْرها رُبُع بوصة، ملقاةٌ في زاوية غرفة مخصَّصة للعبوات الفارغة والنفايات.

حدَّدَت عينُ خبير المعاينة المتمرِّس مدى وسيلة الهروب هذه وقدرتها بدقةٍ كبيرة، ورأى أنها ستكون كافيةً لغرض تحريرهما، إذا تصرَّفا بحذرٍ وحكمة عند استخدام الوسائل المتاحة لهما.

لم يتبادَل الرجلان ولو كلمةً واحدة. وفي صمت شبهِ تام، سحبَ السيد فيليمور أول جزء من الحبل وربطه ببراعةٍ حول خصر مالِك المصنع وتحت ذراعَيه، ثم ربط جزءًا آخرَ من الحبل بالجزء الذي أحاط برفيقه المرعوب. ثم ربط الطرَف الآخر بالطريقة نفسِها.

«هذا، على ما أعتقد، سيفي بالغرض.» كانت هذه هي الكلماتِ الأولى التي نُطِقت، والتي قالها خبير المعاينة.

قد يُعذَر السيد نيوتن على الأنانية التي سمحت له بالاستفادة من وسيلة الهروب هذه، دون التفكير كثيرًا في منقِذه. قلةٌ من الرجال في ظل الظروف المماثلة كانوا سيتصرفون بخلافِ ما فعله. فقط في حالاتٍ مثل اشتعال النيران بسفينةٍ في البحر، تصل البطولةُ، التي

عادةً ما تكون بطيئة في مظاهرها، إلى ذروة الكَرم الذي يسعى إلى الحفاظ على الآخر بدلًا من الذات. ربما لا تميل التجارة إلى إبراز أفضلِ صفات طبيعتنا. لكن المشاعر العائلية هي الأسرعُ في توليد روح إنكار الذات أو التضحية بالنفس. فقد يتنازل الأخُ عن نعمة الحياة أو امتيازها لأخيه، أو الزوج لزوجته، أو الأم لطفلها؛ لكن الغرباء، أو المعارف العارضين، لا يُظهرون تلك الفضائل السامية ونُكران الذات والتضحية بالنفس.

وعلى الرغم من ذلك، ربما لم يكن السيد فيليمور ليتغاضى عن أول فرصةٍ للنجاة من النيران المتزايدة بسرعةٍ الآن، إذا لم يتمَّ تمكينُه، من خلال الحكمة المهنية والتدريب الطويل، من التأكد أن أفضل وسائله للحفاظ على الذات تكمن حقًّا في المحافظة في المقام الأول على رفيقه. وأصبحت لديه فرصة أفضل للنجاة عندما وصل السيد نيوتن إلى الأرض الباردة في الأسفل، مما كانت لديه أثناءَ بقائه في الطابق العلوي خائفًا في كل لحظة من أفظع الأقدار وهو الموت حرقًا. عندما يبعد الرجل الأكثرُ عرضةً للذُّعر عن الخطر، فسيُصبح لدى الآخَر التحكُّمُ الكامل، حسَبما يرى، في تلك التدخلات التي كانت آنَذاك تحت السيطرة المتساوية لكليهما.

وقد حوَّل السيد فيليمور أحدَ إطارات النوافذ إلى نوعٍ من الرافعات، أو جعلها على الأقل تعمل مثل البكرة، وبواسطةِ عملية لا تتطلَّب وصفًا، أنزل الرجل الخائف إلى ارتفاع متر أو اثنين من الأرض، إذ لم يكن الحبل طويلًا بما يكفي للسماح بلمس قدميه لها.

وبينما هو يتدلَّى في هذا الوضع، صاحَ المتجمهِرون في الأسفل وصرَخوا، وشعروا بالشلل والارتباك. ومع ذلك، كان لدى واحد أو اثنين منهم حضورٌ ذهني كافٍ لفهم الأزمة، وقد هُرِعا على الفور إلى ساحة بناء مجاورة، وأحضرا سلَّمًا طويلًا بما يكفي للوصول إلى الارتفاع الذي علق السيد ألبرت نيوتن عنده.

كانت ألسنةُ اللهب في هذه اللحظة قد بدأت للتوِّ في إلقاء ضوئها اللامع من خلال نافذة مجاورة في الطابق الأرضي عند هذه الزاوية من المبنى عندما وصلَت آخرُ وسيلة للنجاة. وخلال لحظةٍ ثُبِّت السُّلَّم مستندًا إلى الحائط. صعد أحدُ العمَّال ذَوي الثبات الانفعالي على درجات السلَّم، ووضع ذراعه حول خصر سيدِه المعلَّق، الذي أوشك الآن على أن يفقد الوعيَ تقريبًا، وفكَّ الحبل، وأنزله بأمانٍ وسط صيحات الحشد في الأسفل.

في هذه الأثناء، خطَرَ مزيدٌ من الأفكار على رأس السيد فيليمور، الذي تزايد الخطرُ حوله بالطبع بشكل كبير خلال الفترة الزمنية التي دارت فيها الأحداث التي رويتُها للتو. فأخذ يبحث عن حبل إضافي، مدركًا، لربما، للمرة الأولى، أنه سيحتاج إلى طولٍ أكبر كي

يستطيعَ الوصول إلى الأرض. ولحسن الحظ، اكتشفَ في إحدى عُلب التغليف بعضَ القطع الأخرى من الحبال، وهي ليست بنفس الجودة مثل تلك التي أنقذَ بها رفيقه؛ ولكن بالطبع كان عليه أن يستفيد منها قدرَ استطاعته، وأن يثقَ في احتمالات قوتها. ومِن ثَمَّ ربط أطراف قطع الحبال التي وجدها، والتي كانت ذاتَ أطوالٍ قصيرة وغير متكافئة بعضها مع بعض، وبينما هو يفعل ذلك أثار انتباهَه صوتُ الحشد بالأسفل، وهم يهتفون لتحذيره من أن ألسنة اللهب قد بدأت في الانفجار من كلِّ فتحة في طرَف المبنى تحت قدميه؛ وربما تجدر الإشارة إلى أن الحريق قد بدأ للتو في الوصول إلى الطابق الثالث في الجهة التي بدأ منها.

كان نيوتن قد حُرِّرَ من الحبل، وبدأ الطرف الآخر من الحبل الذي أحاط بجسده في الاشتعال.

وبدأ السيد فيليمور يفقد الهدوء والقدرة على التمييز.

وقد أخبرني؛ فيما بعد، أنه أصبح آنَذاك يشعر بالغثيان أو يقترب من الدُّوار. وبإرادةٍ قوية تغلَّب على أكبر خطر في الوقت الحالي، واستعاد إدراكه وحصافتَه مرة أخرى مع تزايد الخطر.

ومِن ثَمَّ ربط كلَّ قطع الحبال معًا — ما وجده مع ما استخدمه في إنقاذ نيوتن — وربط أحدَ طرفي الحبل حول جسده، وأنزل نفسَه ببُطء وحذرٍ حتى بدأ يشعر بألسنة اللهب الحارقةِ حول أطرافه.

لم يكن الحبل طويلًا بما يكفي!

ولذا اجتاحه إحساسٌ فظيع آخرُ بالموت الوشيك؛ وأخبرني بعد ذلك أنه لا يعرف كيف تمكَّن من استكمال عملية إنقاذ نفسه والإفلات من النيران.

لكن في الحقيقة، كما علمتُ بعد ذلك من اثنين من المتجمهِرين، مثلما بدا لهما، فقد تحرك بانتظامٍ رائع، مع سرعةٍ غير عادية، واستمرَّ في إنزال نفسه عبر كتلة من اللهب المتصاعد. وعندما هبطَ على الأرض، شوهد أن ذُيول معطفه قد اشتعلت، وأن وجهه كان محترقًا بشكلٍ رهيب. ومن المؤكد أنه قد أغمض عينَيه، وإلَّا كان سيُصاب بالعمى حتمًا.

ولحسن الحظ، لم تلتهم النارُ الجدار ولا الأرضية، وتمكَّن ثلاثة أو أربعة من المتجمهرين الأكثرِ جُرأةً أن يندفعوا إلى الأمام، ويحملوا الرجل الذي فقد وعيه الآن، وينقلوه إلى عيادة طبيبٍ بالقرب من المصنع. حيث تلقى رعاية فورية، ثم نُقِلَ بعد ذلك إلى فندق، حيث ظلَّ يَهْذي لعدة أيام؛ ولكنه استعادَ رُشده بعد فترة، وضُمِّدت جروحه وأُعيدَ إلى مقرِّ إقامته في لندن. وبفضل علاجٍ بارع من طبيب ماهر، تعافى تمامًا. على الرغم من وجود أثرٍ

أو اثنين من ألسنة اللهب على وجهه بشكل لا يُمْحى، فإنها لم تكن سوى آثارٍ باهتة أو طفيفة.

ولم يكن من الممكن عملُ أيِّ شيء فعَّال للحفاظ على المبنى. حيث استمرَّت النار لبعض الوقت في مسارها المدمِّر تمامًا دون عوائق. وبعد مدة وصلَت عربةُ إطفاء من مجلس البلدة، وبدأت في إلقاء دفعات ضعيفة من الماء على ألسنة اللهب. ويبدو أنه لم ينتج عنها أدنى تأثيرٍ ممكن، وأثار عملُها السخريةَ والتهكُّم. وهكذا حدث تدميرُ المبنى بأكملِه. واحترق كاملُ مخزون المصنع والموادِّ الخام. ولم تَعُد الماكينات صالحةً للعمل، وقُدِّرَت الأضرار بما لا يقلُّ عن ٢٠ ألف جنيه؛ ولكن شمل ذلك ضررَ المبنى القديم الذي كان مؤمَّنًا عليه من قِبَل المالك.

لا أستطيع أن أقول كيف حدث أنْ وصَلَت تقاريرُ غير دقيقة عن هذا الحريق إلى لندن، أو تم تداولها في صحف الضاحية. ربما كان ذلك، كما قيل لي، لأن المراسلَ المحلي كان رجلًا يتمتع بقدرة وصفية متدنِّية، وغير قادر على إضفاء قدر من التشويق أو الإثارة على الحدَث الذي يكتب عنه، اللذَين بدونهما، كما يعلم القارئ بالتأكيد، لن تحظى روايةُ الحدث بجذب عموم القرَّاء، واللذَين بهما، يمكن جعلُ الأمور الصغيرة نسبيًّا ممتعة، أو حتى مثيرة. ربما كان ذلك بسبب أنَّ شقيق السيد نيوتن وشريكَه لم يرغبا في إيلاء القضية أهميةً أكبرَ من اللازم، وكان مهتمًّا بالفعل بعدم إثارة اللغَط حولها أكثرَ من اللازم. وقد سمعتُ أنه يعرف الممثِّل الوحيد للصِّحافة المحلية في البلدة، وقد سعى إليه، أو سعى الممثِّل الصحفي إليه، وأنه أملى عليه أو ألهمه الروايةَ الواهنة غير المثيرة للاهتمام التي نُشِرَت عن الحدث.

هذه الظروف أو الشائعات لها أهمية كافية لتطورات القضية التي أنا على وشكِ وصفها لتبرير سردها.

يجب أن أذكر أن السيد هنري نيوتن، المالكَ الآخر للمصنع، كان غائبًا في برمنجهام. وقد كان يُسافر بالفعل نيابةً عن الشركة التي هو عضوٌ فيها، ولم يعرف شيئًا عن الكارثة حتى أُخطِر بها عبر برقية، ومِن ثَمَّ بالطبع عاد إلى البلدة بأقصى سرعةٍ ممكنة.

ولم يُعرَف قط سببُ هذا الحريق على وجه اليقين. لكن الفرضية المحتملة، التي قد تقتنع بها هيئة المحلَّفين، أنه قد نشأ من إهمال فنيِّي تركيب الغاز. حيث ذهب هؤلاء الرجالُ لتناول الغداء في الوقت نفسه مع العمَّال العاديين في المصنع؛ ولذلك، أوقفوا بواسطة سدادةٍ خشبية أحدَ طرَفي أنبوب الغاز الذي وُصِّل بالمقياس، وغلَّفوا أيضًا مفصلًا غير مكتمل،

بالقرب من العدَّاد، برصاصٍ أبيضَ وفتيلةٍ كتَّان. ولم يكن محبس ضخِّ الغاز مفتوحًا في هذا الوقت في العدَّاد، أو هكذا كان يُعتقَد، والجانب الأكثرُ غموضًا في القضية هو كيف فُتِح المحبس بعد ذلك. لكن، لم يكن من الممكن توضيحُ هذه النقطة، ولم يكن ذلك بالطبع يقع على عاتق المؤمَّن عليه.

ووَفقًا للإجراءات المتبَعة قُدِّمت مطالبةٌ ضد الشركة. وجرى التحقيق بشأنها. وعلى الرغم من وجود شكوكٍ في حي مانيسون هاوس، حيث يقع مقرُّ الشركة، من أن الكارثة كانت بفِعل فاعل، لم يكن بالإمكان إثباتُ الحقيقة، ودُفِع مبلغ التأمين في النهاية.

زعمَ السيدان نيوتن أنَّ المبلغ الذي حصلا عليه من مكتب الإطفاء لم يكن كافيًا لتغطية قيمة آلاتهما ومخزونهما وتجهيزاتهما وما إلى ذلك. وزعما كذلك أنهما تكبدا خَسارةً كبيرة نظرًا إلى توقف أعمالهما، وبالتالي رفعا دعوى ضد شركة الغاز التي تزود البلدة، والتي تعهدت بتركيب المواسير في المبنى.

جرى تداول هذه القضية حتى يومِ المحاكمة، وظهرت على رأس قائمة هيئة المحلفين الخاصة في جيلدهول ذات صباح. وكانت القضية التي تسبقها مباشرةً قد قاربت على الانتهاء تقريبًا. وأوشكَ القاضي على الحكم فيها. وانتظر عددٌ كبير من الحضور (وكنت موجودًا بينهم)، مع درجات متفاوتة من الاهتمام، قضيةَ «شركة نيوتن ضد شركة إتش جاس».

في هذه المرحلة من القضية، جرى تشاورٌ لدى هيئة المحامين بين سيرجنت باسيل والسيد كويك من مجلس جلالة الملكة القانوني، وهما المحاميان اللَّذان مثَّلا المدَّعِيَ والمدَّعَى عليه، وقد انتهى باقتراحهما على سيادة القاضي السيد بارون سنابويل أنه من المحتمل إجراءُ اتفاقٍ بين الطرفين، إذا سمح سيادته بإرجاء القضية إلى اليوم التالي. ومِن ثَمَّ وافق سيادته على الطلب، بشيء من التردد، لكنني أظن أنه كان لديه استعدادٌ تامٌّ للتخلص من قضيةٍ طويلة ومعقَّدة، وكل ما لديَّ لإخبار القارئ به هو أن توقعات هذَين المحاميَين المخضرمين قد تحققت.

وبالفعل توصلا إلى تفاهمٍ بشأن القضية. حيث حصلت شركة «نيوتن براذرز» على مبلغ سخي إلى حدٍّ ما عن طريق تعويض إضافي عن إصاباتها وخسائرها التي أسفرَ عنها الحريقُ الهائل.

ثم وقعَ ظرفٌ آخرُ غير عادي ومريب؛ وهو وفاة السيد باترسون بعد مدة وجيزة، المالِك السابق للمصنع، الذي كانت «نيوتن براذرز» مَدينة له بمبلغٍ كبير. حدث هذا بعد

نحو أربعة أشهر من الحريق، وفي ظل هذه الظروف. حيث كان يعيش في المدينة، ولم يكن قد قرَّر بعدُ ما هو العمل الجديد الذي سيَشْرع فيه، ولم يكن، كما يعتقد، قد تلقى بعدُ كلَّ المقابل الذي اتفق عليه من الشركة التي نقل إليها أعماله.

كان كلٌّ من السيدين نيوتن والسيد باترسون يقضون أمسية في فندق دوف، وتناولوا كمية كبيرة من شراب براندي والماء بشكل مفرط. وقد غادر السيد باترسون الفندق قبل السيدين نيوتن.

كان طريقه إلى المنزل يمر عبر قناة، وفي الصباح عُثِرَ عليه غارقًا. لقد سقطَ، على ما يبدو، بطريقةٍ ما عبَر الحاجزَ المنخفض في الماء. وقد غادرَ السيدان نيوتن الفندق من بعده، وعادا إلى منزلهما في أمان. ومِن ثَمَّ فحص قاضي التحقيق جثة المتوفَّى، وأصدر حكمًا ضدَّ مجهولٍ لحدوث الوفاة «نتيجة الغرق». وقد أعربَ بعضُ الناس في البلدة والحي، ومن بينهم السيدان نيوتن، عن حزنهم الشديد بسبب الكارثة. وقال مالكا الشركة الجديدة، يبدو في الواقع أنَّ المكان وكلَّ شيء يرتبط به يخضع لتأثير تعويذة أو لعنة. وأعلنا أنه يبدو كما لو أن القدَر قرَّر ألا يزدهر أيُّ شيء له صلة بهذا المصنع تحديدًا. كيف، أو لأيِّ سبب، لم يتمكَّنا من معرفة ذلك؛ ولكن هنا كان موت صاحب الشركة السابق، ربما بمحض المصادفة، أو ربما عن طريق الانتحار، وهو في حالة ثمالة، وذلك بعد مدة ليست طويلةً من فقدهما كلَّ شيء (حسبما يدعيان) بسبب حريقٍ في المبنى.

ثم علمت شركةُ التأمين بوفاة السيد باترسون، وأدرك السكرتير أن السيدين نيوتن ما هما إلا محتالَين وقاتلَيْن وأنهما قتلا هذا الرجل لسبب خبيث هما فقط مَن يعلمانه. ولذا استشار السكرتير محامي الشركة، وأسند إليَّ القضية لكشف الغموض، وألا أدَّخر أيَّ جهد أو تكاليفَ في سبيل الحصول على أدلة بموجبها يُحال الوغدان المزعومان إلى المحاكمة، إذا تبيَّن لي أن شكوك السكرتير لها ما يُبررها.

ومِن ثَمَّ سافرتُ إلى البلدة سرًّا، وحققتُ في كل الملابسات بقدر ما استطعت. وجمعتُ مجموعةً متنوعة من قصاصات الحقائق القليلة، التي لم تترك أدنى شكٍّ في ذهني أن السكرتير كان على حق. حيث توصلتُ بالفعل إلى استنتاج مفاده أن السيدين نيوتن كانا أشدَّ الأوغاد شرًّا، واللذين سُمح لهما لفترة طويلة بالهروب من العقاب. ومع ذلك، دعني أقُل بصراحة إنني لم أتمكَّن من جمع معلومات كافيةٍ لإسناد لائحة اتهام تؤدي إلى احتمال الحصول على إدانة.

لا أحتاج إلى أن أوضح للقارئ وجوبَ اكتمال الأدلة التي أقدمها قبل أن أوصيَ الشركةَ بتحمُّل مخاطرِ الملاحقة القضائية. ذلك أنهم إذا فشلوا، على سبيل المثال، في إثبات

إدانة شركات التأمين بشكل قاطع، فإن سمعة الشركة وقيمتَها ستتضرَّران على نحو لا يمكن إصلاحه. إذ سيقول الرأي العام ومعلِّقو الصحف إن الشركة أقامت هذه القضية الشائنة من أجل التهرب من سداد مطالبة تأمين عادلة. وعندئذٍ يرتقي المتَّهمون إلى مراتبِ الاستشهاد. ويتعيَّن على الشركة سدادُ كلِّ ما هو مطلوبٌ منها، مع التكاليف، وقد تتوقف الشركة عن مزاولة نشاطها بعد ذلك تقريبًا، أو تُكلف المحامينَ بتصفية أعمال الشركة في تشانسري. ولذلك، بعد تقديمٍ بيانيٍّ مفصَّل أمام محامي الشركة (الذين دفَعوا لي بسخاءٍ مقابل خدماتي)، الذين أعَدُّوا تقريرًا بتعليقاتهم وآرائهم حول الحقائق التي قدمتها؛ نظر مجلس الإدارة في الأمر، وقرَّروا إغفاله.

ولكن لم يُحَل الأمرُ إلى طي النسيان تمامًا. بل استمروا في الاستعانة بي لمراقبة السيدين نيوتن دون انقطاعٍ لمدة سنتين، إذا شعَرتُ أنه من الضروري إطالةُ أمَدِ المراقبة طوال تلك المدة؛ وهي تعليماتٌ أرغب في الامتثال لها.

من خلال مساعدة العديد من مساعدِيَّ، الذين يتغيَّرون من وقتٍ لآخر، جرى تدوينُ النشاط التِّجاري اللاحق لهذين الشخصين بدرجة من الدقة أثبتت فيما بعد أنها مفيدة جدًّا لمصالح شركات التأمين في العاصمة على وجه الخصوص، ولمصالح المجتمع وتحقيق العدالة بشكل عام.

من بين الأشخاص الموجودين في المدينة التي يقعُ فيها المصنع الذي أُوقِفَ نشاطُه، والذين تعرَّفت إليهم، وأعتقد أنني قد اكتسبتُ ثقتهم، كانت أرملة المالِك السابق الذي مات غرقًا. لقد حزِنَت على الفقدان المبكر لزوجها، لكن لم يكن لديها شكٌّ واضح، أو على الأقل لم تكشف لي عن أيِّ شك، في أن مصرعه يحمل شبهة جنائية. أبديتُ تعاطفي معها، وتحدثتُ عن الآثار المؤسفة لتناول الشراب حتى الثُّمالة، ونعيتُ ذِكرى زوجها، وتطرَّقتُ برفقٍ ورقَّةٍ إلى موضوع هذا الضعف الغريب تجاه الشراب، الذي أدَّى إلى وفاته المبكِّرة. لكنَّ أيًّا من هذه المحادثات لم تُستخلَص منها أيُّ إشارة إلى أنه قُتِل على أيدي السيدين نيوتن.

بعد فترة وجيزة من سداد مبلغ التأمين؛ اكتشفتُ أنني، رغم اعتقادي أنني ماهرٌ للغاية، قد خُدِعت؛ ولكن ليس من قِبَل السيدين نيوتن، اللذين لم يعد هناك أيُّ غموضٍ آخرَ تجاههما لدى القارئ. فهما مثلما اعتقد السكرتير، واقتنعتُ أنا كانا مجرمَين حقيرَين، ينبغي أن يتدلَّيا من حبل المشنقة. فقد تفوقَت عليَّ براعةُ امرأة. إذ لم يشكَّ أحدٌ بي أو بمهمتي في البلدة (كما اتضحَ فيما بعد) باستثناء الأرملة باترسون. لقد تعرفَت بطريقةٍ ما على اسمي وشخصيتي الحقيقية، وكانت تتحاور معي أو تستهزئ بي، وهي مستعدَّة،

عند ظهور مناسبةٍ أو فرصة، أن تستغلَّني. ومع المخاطرة بفقدان بعضٍ من هيبتي أمام القارئ، فأنا صادق بما يكفي لأعترف بذلك.

بعد مدَّة وجيزة من تلقي السيدين صاحبا شركة «نيوتن براذرز» المكافأةَ على جريمتهما بسبب مخاوف شركة التأمين، وإذا جاز التعبير، من خلال عدم اكتمال دليل إدانتهما على حقارتهما ونذالتهما؛ تلقَّيتُ رسالة من مجهول، يمكن أن أوضحَ للقارئ محتواها. حيث كانت بيانًا يوضِّح أن شركة التأمين قد تعرضت للسرقة من قِبل السيدين نيوتن، اللذين أشعلا النار في مصنعهما من أجل تحقيق أهدافهما؛ وأن مُرسِل الرسالة كان، مقابل ضماناتٍ مناسبة، على استعداد لوضعي على مسار تحقيقٍ ناجح في لُغز الجريمة. كما طلبَ مني أن أردَّ على الرسالة، في المقام الأول، بإعلانٍ في العمود الثاني من صحيفة «تايمز»، في صباح اليوم الثالث من استلام الرسالة. ووضَّح لي شكل هذا الإعلان، الذي كان عليَّ نشرُه فقط إذا وافقتُ على الشروط، وقدَّمتُ الضمانات المطلوبة، وكنت مستعدًّا لمتابعة الدليل الذي سيُخطرني به.

ومِن ثَمَّ قابلتُ محامِي الشركة، ومعهم السكرتير، حيث رتَّبنا لِقَبول الشروط، ومقابلة المرسل، ومنحِه الضمانات، ومتابعة التحقيق بالطريقة التي تبدو لي مناسِبة، والاعتماد على الشركة لسداد النفقات والمكافآت التي قد أعتقدُ أن من الضروري تحمُّلُها. وبعد نشر الإعلان، وتبادل رسالة تمهيدية أو رسالتَين، قابلتُ مرسل الرسالة الأولى في مكانٍ محدَّد. واتضح أن مرسل تلك الرسالة هي الأرملة باترسون. وهي امرأة مميزة؛ لأن السيدة باترسون، ليست فاتنةً أو جميلة بأي حال من الأحوال، ولكن ليست بأي حال من الأحوال عكسَ أيٍّ من هاتين الصفتين. إنها لم تكن تحمل صفاتٍ رجولية، وبالتأكيد لم يكن لديها أيٌّ من رِقة الأنوثة. كانت امرأةً منعدمة الضمير، متآمرة، شريرة، وتهتم براحتها ورفاهيتها المادية وتعتزُّ بهما أكثرَ من أي شيء آخر. أعتقد أنها كانت حزينةً لفقدان زوجها، لكنها في الوقت نفسه حريصةٌ على تحقيق الاستفادة القُصوى من مصيبتها، حيث خابَ أملُها بشكل كبير عندما تأكدَت من أنَّ خَسارته تنطوي أيضًا على خسارة المال المستحَقِّ له، الذي كانت تتوقع أن تتمتعَ به بعد وفاته.

عندما التقينا شعَرْنا بالحرَج قليلًا. لقد أدهشَها نجاحُ حيلتها السابقة وقدرتها على إخفائها. أما أنا فقد كنتُ مرتبكًا، إن لم أكن مهزومًا إلى حدٍّ ما، من الحقيقة الواضحة في ذلك الوقت وهي أنها كانت تعرف حقيقتي طَوال الوقت بينما كنتُ أستجوبها، كما

اعتقدتُ أنا. ولكن، سرعان ما زال هذا الإحراج كي نبدأَ في مناقشةِ قضيتنا. حيث أطلعَتني على مؤامرة لم تكن لديَّ فكرةٌ كاملة عنها حينذاك.

إذ لم تستطع تأكيد وجود شبهة جنائية في وفاة زوجها. وفي بداية الأمر كانت لديها شكوكُها، مثل الآخرين. وكل ما يمكن أن تقوله بوضوح هو أن السيدين نيوتن قد أحرقا مصنعهما. والحقيقة أن زوجها كان يمر بضائقة مالية. وعندما عَلِمَ السيدان نيوتن بذلك اقترَحا عليه مخططًا مفصَّلًا للاحتيال على شركة التأمين. سيتمكَّن من خلاله أيضًا أن يحصل على مُهلة من دائنيه، الذين قد يُسوِّي الأمر معهم فيما بعد، أو «إرضائهم» بإعلان الإفلاس، وَفْق ما يرغبون فيه بعد ذلك. في هذه الأثناء كان يُفترَض أن ينفذ هو والسيدان نيوتن مخطط الاحتيال الكبير. فاتفقوا فيما بينهم على توسِعة المبنى وحرقِ المصنع، ومطالبة شركة التأمين بمبلغ التعويض، ثم تقسيم الغنيمة. وقد نُفِّذَت كل هذه الترتيبات، كما يعلم القارئ، باستثناء الجزء الأخيرِ من المخطَّط الذي كان موضوعَ احتيالٍ آخر، يوضح حقيقةً أصررتُ عليها مِرارًا؛ أنه لا توجد كلمةُ شرف بين اللصوص.

إذ من الممكن أن يكون السيدان نيوتن قد قتلا باترسون أو لم يقتلاه بعد أن غادر فندق دوف، فهو لم يكن قادرًا على السير نحو منزله بسرعة كبيرة؛ لأنه مخمور. وربما يكونان قد ألقياه من فوق جسر القناة في الماء أو لم يلقياه؛ لكن اتضح أنهما ظنَّا أن وفاته منحتهما فرصة لحرمانه، أو على وجه الدقة حرمان أرملته، من نصيبه في حصيلة جريمتهم المشتركة. لقد علمت السيدة باترسون من زوجها بشأن مخطط حريق مصنعه. ولم يكن السيدان نيوتن على دراية بهذه المعلومة الصغيرة. إذ إن السيد باترسون أخبرهما في الغالب أنه لا يسمح لزوجته بمعرفة كل شيء عن عمله، وقد تحدث كثيرًا بعباراتٍ غير محترمة عن الجنس اللطيف (لا سيَّما فيما يخصُّ الأسرار أو المؤامرات)، مما جعلهما يعتقدان أن زوجته لا تعرف شيئًا عن المؤامرة. لكنها في الحقيقة قد علمت من زوجها كلَّ شيء عنها. ومِن ثَمَّ حافظت على سلامتها، منذ وفاة باترسون، لترى كيف سيتصرَّف السيدان نيوتن عندما يحصلان على أموال التأمين، وقررت سرًّا طوال الوقت أنهما إذا خدعاها، أو لم يسلما لها ما اعتبرته نصيبها العادل، أو ما اتفق عليه زوجها معهما، فستبوح بالسر؛ وتُساعد رجال العدالة في وضع مالِكَي تلك الشركة فوق منصة الإعدام خارجَ سجن البلدة، حيث كان الجلادُ معروفًا في السابق بتنفيذه حكم الإعدام في عدد قليل من المآسي المروعة. وهكذا عندما حصل السيدان نيوتن على المال، طلبت منهما بجرأة أن تحصل على حصتها. فغضبا بشدة، وهدداها بمعلوماتٍ جنائية للتشهير بها، الأمر الذي أثار مخاوفها قليلًا؛ لأنها لم

تكن ترى بوضوحٍ كيف ستُقيم قضيتها ضدَّهما. وقد كانت على دراية كافية بالقانون لتعلَمَ أنه في أيِّ إجراءات جنائية ضدَّها، سوف تُغلق فمَها، بسبب أحكام هذا الفرع من القانون الإنجليزي. لم يتطلَّب الأمرُ الكثير من تمالُك النفس من جانبها للحفاظِ على سرِّها لمدةٍ أطول، والتظاهُر، إن لم يكن بأنها راضية، فعلى الأقل بأنها متنازلة، عن نصيبها من المال المنهوب. ولكنها عقَدَت العزم على مقابلتي، كي أستطيعَ بمساعدتها أن أُوقِعَ بالمجرمَيْن، اللذين لم يكونا وفيين لميثاقهما الحقير، ومعاقبتهما بما يستحقان، إن لم يكن على جرائمهما الأصلية، فبسبب افتقارهما إلى شرفِ الحفاظ على العهد.

وهكذا استمعتُ إلى قصتها، ودوَّنتُ كلَّ التفاصيل التي روَتْها. ثم قدَّمتُ تقريرًا آخر للشركة، مرَّ بإجراءات تقريري السابق نفسها، وخرج بالنتيجة نفسها. فأدلة هذه المرأة كانت أدلةً فاسدة. وهي لم تكن تُريد في الواقع أن يجريَ تقديمُها. وارتجفَت خوفًا من أن يقتلها بعض شركاء السيدين نيوتن الآخرين، إذا تسبَّبت في تعرُّضهما للعقاب. لقد كانت تُريد «معاقبتهما دون تورُّطها هي في الأمر». وبدا لي وللمستشار الآخَر في شركة التأمين أنه مع الأدلة التي قدمتها، لم تكن محاكمة السيدين نيوتن تجربة آمنة تمامًا؛ وأنه من دون مثل هذا الدعم، ستصبح لائحة الاتهام وسيلةً بالغةَ الخطورة بالنسبة إلى الشركة.

لا داعي لأن نُشير إلى أنَّ ما كشفَت عنه هذه المرأة جعل حقيقة ارتكاب السيدين نيوتن للجريمة مؤكَّدة على نحو مضاعف بالنسبة إلينا؛ لكن كل ما لا يزال من الممكن القيامُ به هو المراقبة وانتظار فرصة أخرى لتقديم هذين الحقيرين إلى العدالة.

أوضحَت التفسيراتُ التي حصلتُ عليها من السيدة باترسون؛ أنه على الرغم من تعرُّض زوجها لضائقة مالية في الوقت الذي باعَ فيه المصنع، فإن جزءًا كبيرًا من الأموال المستحَقة عليه عبارةٌ عن أموال يحتفظ بها كوصي، والتي كانت لديه الإدارة الحصرية لها، لكونها مُودَعةً في صناديقَ وأسهم سكك حديدية وما إلى ذلك، بعد أن أخذ جميع الأوراق المالية منذ عدة سنوات من أيدي المحامين المعنيِّين في الصندوق. ولم يكن هناك مَن يُدقق في سوء تصرُّفه، ومن خلال وسيلةٍ بسيطة هي الاستمرارُ في دفعٍ على الفائدة، أفلتَ من اكتشافِ خدعته. وبعد فترة، اكتشف أنَّ الأمور قد خرَجت عن سيطرته، وأصبحَت وسائلُ إخفاء خدعته بشكلٍ دائم أكثرَ صعوبة بسبب تزايد حجمِها، وتضخَّمَت الخسائرُ في التِّجارة، وربما الفائدة على رأس المال المفقود، على نحو فظيع، فأخبر السيدين نيوتن بذلك، وابتكر ثلاثتهم مخططًا ماكرًا لبيع أسهمه المتداولة، والأصول، والسمعة الطيبة للعلامة التِّجارية، وما إلى ذلك، لتوسيع المباني، ثم حرق المصنع، وذلك لتحقيق مبلغٍ كبير من

المال الجاهز؛ أكثر بكثير من قيمة الأشياء التي أمَّنوا عليها. وبهذه الوسائل كان يأمُل في استعادة منصبِه كوصي، ووضعِ مبلغٍ جيد من المال في جيبه؛ كما سيربح شريكاه، السيدان نيوتن، أرباحًا كبيرة إلى حدٍّ ما.

كان باترسون رجلًا غريبًا يميل إلى الاعتماد على نفسِه. علاوةً على ذلك، لم يستطع توكيل أيِّ محامٍ للدخول في مثل هذه الشراكة. ومن المؤكد تمامًا أنه لو كان بإمكانه إقناعُ أيِّ شخص في مهنة المحاماة بالانضمام إلى مثل هذا الاتفاق الخسيس، لكان الأكثرَ حقارةً بين المحامين الحقيرين. كان من المحتمَل أنه يعرف جيدًا كيفيةَ تحصين نفسه، وكذلك كيفية ابتلاع نصيب الأسد من المال المنهوب والاحتفاظ به. كلُّ هذه الأمور كانت واضحةً أمام السيد باترسون؛ ولذلك احتفظ بإيصالات الأمانة التي أعطاها له السيدان نيوتن في حوزته، ولكي يحميَها من السطوِ المخيف، أو سرقتها من منزله أثناءَ غيابه، إذا سنحَت فرصةٌ من أيِّ نوع، كان يحمل هذه الوثائقَ عادةً معه في محفظته عندما يُغادر المنزل. كانت هذه خُطةً خطيرة بالطبع لن يتبعَها أيُّ رجل نزيهٍ في وضع عادي؛ ولكن ربما، في النهاية، كانت الأكثر أمانًا لرجل مثل باترسون في موقفه آنَذاك.

علم السيدان نيوتن بوصاية باترسون الاحتيالية. إذ كانت لديه ثِقةٌ كافية فيهما؛ ومِن ثَمَّ أطلعهما على جميع المعلومات تقريبًا التي مكنتهما من إبقائه تحتَ سيطرتهما. وبالطبع عَلِمَ باترسون أيضًا بالمطالَبة المبالَغ فيها التي قُدِّمت إلى شركة التأمين، بِناءً على قوائم الجَرْد والأوراق التي قدَّمَها لها بشأن نقلِ مِلكية المصنع. ومن الصعب القولُ إن أحد الطرَفَين كان متورطًا في الشرِّ بقدر أعمق من الآخر؛ على الرغم من وضوح أن باترسون، الذي وقفَ وراء الكواليس وحُجِبَ من قِبل المحتالَيْن البارزَيْن، كان متورطًا بشكل عميق، وربما أكثر عمقًا، في الخداع والحرق العمد أكثر من السيدين نيوتن. ولم يكن موقفُ الطرَفين بعضهما تجاه بعض مختلفًا تمامًا عن وضع اللصوص في العادة. كان لدى أحدهم سببٌ للخوف من الآخر، ونتيجةً لذلك تولَّدَت الغيرةُ المتبادَلة وانعدام الثقة والتوجُّس خيفة.

وهكذا بعد مغادرتِه فندقَ دوف؛ لم يكن لديَّ أدنى شك في أن السيدين نيوتن سارعا في الاتجاه الذي سلكه باترسون، نحو منزله، ونجحا في التغلُّب عليه؛ لكونه ثملًا جزئيًّا، وكان مِن السهل الإمساكُ به من قِبَل شريكيه، ومن المحتمل أن أحدَهما قد كتَم فمَ الضحية بينما استولى الآخَرُ على محفظته بسرعة، وأخَذ منها الموافقاتِ وإيصالاتِ الأمانة التي منَحاها إياه مقابلَ نقل مِلْكية المصنع. وبعد ذلك ألقياه في الماء. وعند انتشال الجثةِ من القناة وتفتيشها، عُثِرَ على محفظةٍ في جيب القتيل الذي حرَّض على جريمة الحريق، وفيها

جميع الأوراق التي كان معروفًا أنه يحملها باستثناء الموافَقات، التي كان فقدانها أمرًا مؤلمًا للسيدة باترسون.

لقد أوضحَتْ أن السيدين نيوتن لم يعلما بمعرفة السيدة باترسون بتفاصيل مخططهما، وأنهما تخيلا أن زوجها لم يُخبرها، وأن زوجها، إمعانًا منه في التثبت كحال جميع المتشكِّكين، أخبرهما بأنه لا يُطْلِع زوجته على مثل هذه الأمور. فكان كثيرًا ما يقول، عند ذِكْر اسم السيدة باترسون في محادثاتهما قبلَ الحريق وبعده، إنه: «لم يأتَمِن امرأةً على سرٍّ أبدًا مهما كانت أهميتُه؛ لأنها بالتأكيد ستُثرثر أو تُفشِيه.» ومع ذلك، وكما قلت، فقد كان يكشفُ لها طوال الوقت عن تفاصيلِ المؤامرة والمكيدة. إذ أخبرَها بدقةٍ عن كلِّ الظروف، وعرَفَت كل شيء عن إجراءاتهم من البداية إلى النهاية مثلما عرَفها أيٌّ من السيدين نيوتن.

وبعد وفاة زوجِها، وقبل أن تطلب مساعدتي في أزمتها الطارئة، استشارت المحامين الجنائيِّين المعروفين، في شركة «ليفي ليفي براذرز آند صنز» للمُحاماة الذين يتصوَّرون أنَّ المبالغة في الصمت تُجسِّد جوهر الحكمة أو أعلى درجاتها (باستثناء عندما يحضرون إحدى محاكمات محاكمات الشرطة، ويعتقدون أن الاستعراض ضروريٌّ لإثبات مهارتهم لعالَم قرَّاء الصحف، ليكون بمثابة إعلان عن شركتهم في السطر نفسه). ولذا نصَحوا السيدة باترسون أن تنتظر وتصمُتَ مؤقتًا. وقد فعلت ذلك حتى علمت أن المال قد سَدَّدته شركة التأمين، وأبلغت بعد ذلك محاميها البارعين. وعندما سمعوا عن هذا الوضع من موكلتِهم، أخبَروها، لربما، بحِكمةٍ ودهاء أن الوقت قد حانَ الآن للتحرُّك، وأنهم هم من عليهم التحرُّك، وأنه من الأفضل لها أن تسلم لهم أمرها وتذعن لما يملونه عليها. لهذا وافقَت على الفور؛ لأنها، كما أوضحت، كانت مرتعبةً من السيدين نيوتن. وهي لو لم تكن مُدرِكة أن لديها مَيْزةً في معرفتها بمؤامرتهما، وأنهما لا يتصوران في الوقت الحالي أنها على دراية بجريمتهما، لكانت قد ارتعدَت خشيةَ أن يقودهما جشَعُهما إلى قتلِها كما قتَلا زوجها منعًا من إفشاء المزيد عنهما.

لكن تصرُّف محاميها لم يكن رائعًا أو بارعًا على ما أعتقد. شيءٌ واحد يُمكن قوله؛ هو أن هذين السيدين لديهما قدرٌ هائل من الأعمال المربحة للغاية، وأن هذا، حسبما أعتقد، لا يدفعهما إلى التفكير مليًّا في أيِّ شيء لا يدر عليهما ربحًا. فعلى سبيل المثال، عندما يُلقَى القبض على مزوِّرٍ بالجملة، أو مزيِّفِ عُملة بطريقة تِجارية واسعةِ النِّطاق، أو بعض النشَّالين أو مُمارسي السطو، أو عضو في عصابة، فإنه يستدعي على الفور السادة «ليفي ليفي براذرز آند صنز» للحصول على أفضلِ خدمة، ويدفع لهم مبالغَ كبيرة. ومِن

ثَمَّ يسمع السادة ما يود قوله. ويحضرون إلى محكمة الشرطة، ويرهبون شهود الادِّعاء، ويُدْلون بكلِّ قول يُمكن تصوُّره حول احترام مُوكلِهم في الحدود التي تسمح بها الأدلة؛ وعلى الرغم من أن المجرم عادةً ما يُحال في هذه القضايا إلى المحاكمة، فإنه يذهب إلى السجن مبتهجًا باعتقادٍ راسخ بأنه قد حصَل، في جميع الأحوال، على أفضل محامين جنائيِّين في البلاد ليُدافعوا عنه. وعندما يَمثُل المتهَم للمحاكمة، يكون السادة «ليفي ليفي» قد انتزعوا من السجين أو أقاربه أو معارفه أو عصابته مبلغ مائة جنيه أو مائتين أو أكثر، ويقدم هؤلاء المحامون مذكرةً أو مذكرتَين بملخص وقائع الدعوى، والتي لا تتضمن سوى بعض نسخ من الإفادات التي أُخذت أمام القضاة، لتقديهما إلى المستشار القانوني، وعلى ظهر تلك المذكرات يجري تظهيرُها فُرادى، «السيد نوكشس ساوند، عشرة جنيهات»؛ و«السيد مودست إمبتيبيرس، جنيهان». ربما يحاول أول هذين السيدَين أن يعثر على ثغرةٍ في لائحة الاتهام، التي لم تكن مفيدة جدًّا للسجناء منذ عدةِ سنوات؛ لأنه إذا كانت الثغرة صغيرة، وإذا لم تقتنع المحكمة بأن لائحةَ الاتهام، كما هو واضح، تصفُ جريمةً مختلفة عن تلك التي قُبِض على السَّجين بسببها، أو أُعِد لمواجهتها، فإنها تُعدَّل في المحكمة لمعالجة الخلل الذي جرى اكتشافه بفضل الفِطْنة — العادية — التي يتمتَّع بها السيد نوكشس ساوند. أو قد يرفع السيد ساوند بشتى الطرق أمام محكمة الاستئناف الجنائي، كي تُحال القضية من المحكمة الأدنى إلى المحكمة الأعلى وعبر هذا المسار يحصل السادة «ليفي ليفي آند صنز» على مبلغٍ كبير آخَر من المال. ومِن ثَمَّ فإنه في الوقت الذي يُحققون فيه مكاسبَ هائلةً من خلال عمليةٍ سهلة للغاية، لا تنطوي على أي مسئولية ولا تتطلب جهدًا ذهنيًّا كبيرًا — إذ إن السادة ليفي ليس لديهم تقريبًا أيُّ قدرٍ من الكفاءة الذهنية رغم كثرة عددهم — فإنهم ليس لديهم أيُّ استعداد لتحمُّل الكثير من المتاعب أو «تجشم الكثير من العناء» حتى في ظلِّ ما قد يُمثل للمحامي العادي إغراءً بالتكاليف السخية، على حدِّ قول أحدهم.

ومِن ثَمَّ كتب السادة «ليفي ليفي براذرز آند صنز» رسالةً إلى السيدين صاحبي نيوتن براذرز، ذكَروا فيها أن أحدَ العملاء قد وكَّلَهم واستشارهم بشأن مسألةٍ ذاتِ صلة بالسيدين صاحبي نيوتن براذرز، وأن السادة ليفي يُسعدهم مقابلةُ السيدين صاحبي نيوتن براذرز.

تلقَّى السيد ألبرت نيوتن هذه الرسالةَ وفتحَها. وعندما أبلغَ أخاه بها، قال له: «إن الأمر يُثير الشكوك»؛ ولذا قرَّرا أنه من المستحسَن استشارةُ محامٍ قبلَ المقابلة. كان من الممكن أن يذهبَ السيدان نيوتن إلى السادة «ليفي ليفي براذرز آند صنز»؛ ولكن من أجل

اتِّخاذ الحيطة حيالَ الخدمات المِهْنية التي يُقدِّمها هؤلاء المحامون المشهورون بالخداع، استشار السيدان صاحبا نيوتن براذرز محاميًا آخرَ على شاكلةِ السادة ليفي، وقد يكون أو لا يكون، حسبما أظن، أحدَ أقرباء أعضاء المحكمة المركزية الجنائية لإنجلترا وويلز «أولد بيلي». وقد قابل السادة ليفي، وكانت النتيجة أن السيدة باترسون، عندما قابلتهم في المرة التالية، قيل لها إنها «قضية خطيرة»، وإنهم «لم يتوصَّلوا إلى طريقةٍ للتعامل معها دون مخاطرة». وتحدَّثوا إليها بلُغة الحكمة المهنية وغير المهنية أيضًا. وقد قالوا شيئًا عن الرائحةِ الكريهة التي تفوح من العمَلية، واستخدموا ملاحظاتٍ حكيمةً أخرى غيرَ متكافئة. وعلى الرغم من ذلك لم ينكسر قلبُ الأرملة، لكنها بالتأكيد أُحبِطَت وغَضِبت للغاية.

تعهَّدَت السيدة باترسون بالانتقام، لكن في صمت. أصبحت عازمة على المضيِّ قُدمًا في الانتقام من شركاء زوجها في عملية النصب والحرق العَمْد، كانت تريد أن تثأرَ من قتَلَتِه، لكنها اختارَت الانتقامَ من كلِّ هؤلاء بالطرق القانونية. لقد قادها هذا المنعطفُ الجيد من التفكير للتَّواصل معي في النهاية، وقد أخبرتُ القارئ بالفعل بالنتيجة الفورية.

يؤسِفُني القول إن الاعتقاد السائد في البلدة التي يوجد بها مصنعُ أغطيةِ الرأس، كان مَشوبًا إلى حدٍّ كبير بالتعصُّب أو الخرافة، وهو ما ساعدَ بشكلٍ ملموس الخططَ المستقبلية للسيدين نيوتن. ومِن ثَمَّ أصبحت خيانةُ باترسون للأمانة وخسائره في التجارة معروفةً للجميع. كما أن اندلاع الحريق بعد وقتٍ قصير من إبرام عقدِ نقل مِلكية المصنع، ثم انتحار المالِك السابق — كما قيل — قد أكَّدا لجميع الناس هناك اعتقاد السيدين نيوتن أن تعويذة، أو سحرًا، أو تأثيرًا مميتًا من نوعٍ ما، قد أُلقي على المصنع. لذلك، لم يَبدُ إيمان السيدين نيوتن بتلك الخرافة مستغرَبًا. وقد تساءل عددٌ قليل من الناس عن سبب عزم شركة السيدين نيوتن على عدم استئناف العمل هناك. حيث كانا راضيين عن سداد تلك الديون لأنهما تعهَّدا أمام البلدة، بإظهار القليل من اللطف تجاهَ عددٍ من العمَّال الواقعين في ضائقةٍ شديدة، لكنَّ شركة التأمين وحدها هي التي ارتابت؛ وبعد أن اكتسَبا سُمعة طيبة للغاية بهذه الطريقة، غادَرا البلدة إلى لندن، عازمَيْن، كما قالا، على الشروع في نوعٍ آخرَ من المشاريع.

وهكذا واصلتُ مراقبة كلا المجرمَين عن كثب، وعرَفتُ كلَّ تحركاتهما، لكن ما زلت لا أستطيع، لمدَّة طويلة، العثورَ على دليلٍ قاطع لتبرير الملاحَقة القضائية من قِبَل شركة التأمين. وعلى الرغم من ذلك كان من بين الأشياء التي اكتشفتُها، وجودُ مجموعة وفيرةٍ من الروابط في سلسلةٍ من الأدلة التي كنتُ على ثقة من أنها ستُثبت وقوعَ جريمة كبرى؛ وعلى

الرغم من أن شركة التأمين التي وظفتني، قد أوشك صبرُها على النَّفاد، مِثلي تمامًا، لم أشكَّ أبدًا في أن النتيجة ستكون شنق السيدين نيوتن، أو على الأقل إدانتهما الأكيدة بالسجن مدى الحياة.

لقد تأكدتُ أيضًا من أن هذَيْن الشريرَيْن كانا متورطَيْن بطرقٍ مع عصابة لعبت لسنواتٍ عديدة ماضية، ولسنوات عديدة بعد تاريخ هذه الرواية، دورًا بارزًا في كلِّ الجرائم الكبرى في لندن والعديد من المقاطعات أو كانت المُتسبِّبَةَ فيها. ويبدو أن السيدين نيوتن كان لديهما قسمٌ خاص للأعمال الإجرامية. على الرغم من تورُّطِهما في قضية تزويرٍ أو اثنتَين، في إحدى منشَآت السِّكك الحديدية، وقضية سَطْو على نطاقٍ واسع، فإن تخصُّصهما المفضل كان إشعالَ الحرائق. فقد ثبَت تورُّطهما في حريقٍ هائل في وايت تشابل، وآخرَ في مانشستر، وثالثٍ في ليفربول، على حدٍّ اعتقادي.

وبعد حوالي ١٦ شهرًا من الانتظار والمراقَبة — سافر السيدان نيوتن خلالها في رحلة أو رحلتَين للاستمتاع في أوروبا، وأقاما في عواصمَ مختلفةٍ في شقق مفروشة فاخرة، وأنفقا ببذخٍ على شراء الأزياء من الخيَّاطين — تأكدتُ من عزمِهما على استئناف أعمالهما.

ذهبَ أحدُهما، وهو السيد هنري نيوتن، إلى غرب إنجلترا، في البلدة «بي» واشترى منزلًا كبيرًا ومتجرًا هناك، وافتتَحه متجرًا لبيع المقطوعات الموسيقية وآلات البيانو. وبجوار المبنى الجيِّد الواسع الذي اشتراه السيد هنري نيوتن، كان يقع مبنًى صغيرٌ ضئيل، ولم يكن بأيِّ حال من الأحوال جميلًا. ولكن هذا لم يمنع العثورَ على مستأجِرٍ له قبل نحو شهرٍ أو ستةِ أسابيع من شراء السيد نيوتن للمبنى المجاور الأكثرِ فخامة. وقد افتتح المنزل الصغير متجرًا متواضعًا يديره رجل عجوز وامرأة. كانا يبيعان الحلوى والفواكهَ وكتب الأطفال وما إلى ذلك. وقد اشتكى نيوتن إلى الوكيل من الطبيعة المتدنية لهذا المتجر، وذهبَ إلى حدِّ التفاوض مع صاحب المتجر الصغير من أجل التنازُل عن استئجاره للمبنى؛ لكن المفاوضات توقفَت نتيجةَ مطالبة صاحب المتجر الصغير بمبلغ اعتبره السيد نيوتن باهظًا للغاية. وأعلن السيد نيوتن أنَّ لديه اعتراضًا تامًّا، من حيث المبدأُ، على خداعه أو سرقته بهذه الطريقة. وبدلًا من الخضوع للابتزاز الجسيم من صاحب المتجر الصغير، قال إنه سيتحمَّل الإزعاج، على الرغم من أنه سيَتعارض مع الأعمال المحترمة التي ينوي القيامَ بها.

وهنا يجب أن أُوضح، أن السيد نيوتن لم يظهر في البلدة باسم نيوتن. لكنه عُرِف هناك باسم «كيلينج وشركاه، لتصنيع آلات البيانو وبيعها بالجملة، وتوزيعها والتجارة فيها». وأطلق على متجرِه اسم «تيمبل أوف ذا ميوزيز»، وكان رائعًا للغاية.

أما السيد ألبرت نيوتن فقد ظل في لندن. وبدأ أعمالَه، تحت عنوان «كروس وشركاه»، حيث أصبح «وكيلَ سمسرةٍ عامًّا ومستوردًا وتاجرًا»، في مكتبٍ بالقرب من تاور هيل، وسرعان ما وجد نفسَه منخرطًا في عمليات مكثَّفة في الداخل والخارج. وكذلك عمل مستشارًا لأخيه السيد كيلينج.

لم يكد السيد كيلينج يفتح مَبْناه حتى أعلن عن نيَّته في التأمين على «تيمبل أوف ذا ميوزيز». وهكذا تَرك العديدُ من الوكلاء المحليين لشركات التأمين النشراتِ ومطبوعاتِ الدعاية في متجره، ودَعَوه بذلك إلى التأمين على حياته أو ممتلكاته أو كلَيهما. فأجرى مقابلاتٍ مع اثنين أو ثلاثة من الوكلاء حول الشروط، وكان شديد التدقيق في مقارنة الأسعار المختلفة لمكاتبهم، وتواريخ تأسيسها، والمكانة التي تتمتع بها إداراتها، وجميع الأشياء الأخرى التي يودُّ طالب التأمين الحصيفُ أن يكون على علمٍ جيد بها. كانت النتيجة أو الخلاصة، أنه أجرى التأمين من خلال وكيلٍ محلِّي لأحد أقدم شركات لندن (لا داعيَ لذِكر اسمها في الوقت الحالي)، على الرغم من أن ذلك كلَّفه مبلغًا يَزيد قليلًا على ما طلبه وكيلُ شركةٍ حديثة؛ لأنه لا يؤمن بالمخاوف غيرِ المُبرَّرة. وقد اعتبر الوكيل، الذي استفاد من ذلك، أن هذا القرارَ دليل على الحكم العمَلي السديد للسيد كيلينج.

ومِن ثَمَّ وصلَت عدةُ آلات بيانو، وبعضُ طرودِ المقطوعات الموسيقية الكبيرة، وسِلَع أخرى، نُقِلت على النحو الواجب من محطة السكة الحديد إلى «تيمبل أوف ذا ميوزيز»، بواسطة عمَّال السكك الحديدية، الذين عادةً ما يُخفِّف إجهادُهم القليل من البقشيش من السادة كيلينج وشركاه.

وقد أحضر السادة كيلينج مساعدًا وحمَّالًا من لندن كي يعمَلا في المتجر. حيث قال المدير إنه لا أحد سِوى رجالِ لندن يُمكنه أن يفهمَ طريقته في العمل؛ وإنه على الرغم من محبته لسكَّان البلدة «بي» (لا سيما الطبقات الراقية)، فإنه لم يكن بمقدورِه التعامُل مع المساعدين التِّجاريين من تلك البلدة.

بعد فترة وجيزة من افتتاح «تيمبل أوف ذا ميوزيز»، أُصيبَ المالِك بالصدمة بسبب وضعِ كُشك صغير خارجَ المنزل أو الكوخ المجاور، لبيع مشروب جعة الزنجَبيل وغيرها من المرطِّبات الزهيدة، التي، التي بدا في الواقع أن الجار يعرضها بنوع من التباهي المبتذَل، كما قال كيلينج، كوسيلةٍ لإزعاجه، حتى يُقدِّم سعرًا باهظًا للتخلُّص من تلك الجيرة. ومع ذلك، لم ينجح صاحبُ المتجر الصغير في تحقيق غايته. فعلى الرغم من أن استياء السيد كيلينج واشمئزازه كانا شديدَين، فإنه لم يكن ليشتريَ الكفَّ عن الإزعاج مقابل السعر

الذي طلَبه الجار. وقد أراد اللجوء إلى القانون ورفع شكوى ضدَّ الرجل العجوز، فاستشار المحاميَ الرئيسي في المدينة حول دعوى أو لائحة اتِّهام؛ لكنه أُبلِغَ بأن الإزعاج لم يكن كافيًا لمنحه الحل الذي طلبه.

ويبدو أن تجارة شركة كيلينج وشركاه لم تلقَ الرَّواج المطلوب. إذ بِيعَت فقط بعضُ المقطوعات الموسيقية. وجاء الكثير من الناس لرؤية آلات البيانو؛ لكن أسعارها لم تشجع العملاء إلى حدٍّ ما. كان السيد كيلينج يشعر بالاشمئزاز من حينٍ لآخر، وأكَّد لزوَّاره أنه لا يستطيع بيعَ مثلِ هذه الآلات بأسعار زهيدة؛ نظرًا إلى أنها ذاتُ جودة عالية، على الرغم من علمه بأن مثيلاتها الرائجة المنخفضة الجودةِ يمكن شراؤها بهذه الأسعار.

في أحد الأيام، كان هناك بيعٌ بالحسومات في لندن لمخزونِ شركة مصنِّعة لآلات البيانو أُعلِن عنه في الصحف اليومية. حيث تقرَّر عقدُ مزاد يُحدَّد له موعدٌ لاحق، ما لم يُبَع المخزون بالكامل مسبقًا بموجب عقدٍ خاص، إلى جانب عقد الإيجار والسمعة التِّجارية لمباني الشركة المصنِّعة. وقد تلقى السيد كيلينج برقية من السادة كروس، هذا نصُّها: «برجاء الاطلاع على صحيفة «تايمز». إعلان بيع المخزون والسمعة التِّجارية المملوكَين بالسيد ...»

بعد تلقي هذه البرقية، كان السيد كيلينج متلهفًا للاطلاع على صحيفة «تايمز»، التي وصلَت في موعدها عند منتصف النهار تقريبًا. لكنه أرسل إلى محطة السكة الحديد مرتَين أو ثلاثَ مرات، وفي النهاية ذهب بنفسه للحصول على نسخة مبكِّرة من الصحيفة. وفي طريقه إلى هناك، التقى بواحدٍ أو اثنين من معارفه (أحدهما كان مساعدي، وإن لم يفطن إلى ذلك)، حيث أخبرهما أن هناك فرصةً رائعة، حسَب اعتقادِه، لشراء مخزونٍ كبير، وربما الحصول على أعمال تِجارية من الدرجة الأولى في البلدة، يُمكن أن تُضاف إليها تِجارتُه الريفية في «تيمبل أوف ذا ميوزيز» مع عدة مميزات. كان يعتقد أيضًا أن بإمكانه الحصولَ على مخزونٍ من آلات البيانو، بجودةٍ أقلَّ مما لديه الآن، التي قد يُقبِل سكان البلدة «بي» على شرائها بالسعر المنخفض الذي يُمكن أن يقدِّمه لهم. ومِن ثَم بعد أن اشترى الصحيفة، وحرَص على أن يوضِّح لعددٍ من الناس السببَ الدقيق لرحلته إلى لندن، لم ينتظر سوى وصول القطار التالي، واستقلَّه إلى البلدة. لقد كان يتوقع أن يعود في اليوم التالي، لكنه وجد هذا مستحيلًا، حسَبما أوضح في برقية إلى مساعده أو البائع، لكنه قال إنه سيعود بكلِّ تأكيد في اليوم الذي يليه.

وفي الليلة الثانية بعد رحيل السيد كيلينج إلى لندن، وقبل منتصف الليل برُبُع الساعة، انطلقَت صرخةُ استغاثة بسبب نشوب حريقٍ في البلدة «بي». حيث اندلعَت النيران في

مؤخرة الكوخ الصغير، وتصادفَ أن ذلك المكان البائس ملاصقٌ بالفعل لمبنى «تيمبل أوف ذا ميوزيز». وهناك مبنًى خارجي خشبي خلف المبنى الصغير يُلاصق المبنى الخلفي لمتجر تيمبل، حيث تُخزَّن أكياس التغليف وشفاطات المشروبات، وما إلى ذلك.

وسرعان ما دمَّرت النيرانُ متجرَ الحلوى ذا السقف المصنوع من القش، ولم تترك شيئًا سِوى كومة من الرماد كنُصْب تَذكاري لدَماره. ورغم ذلك تمكَّن الرجل العجوز وزوجتُه من الهرب بسرعة؛ إذ اندلع الحريق في الجزء الخلفي من المنزل، وكانا غيرَ مستغرِقَين في النوم. إن قلةً من كبار السن، إذا جاز لنا أن نُصدِّق علماءَ وظائف الأعضاء، يستغرقون في النوم؛ ولذا يصبح الشكُّ في أن صاحب متجر الحلوى وزوجته هما مَن أشعلا الحريق عن عَمْد، على أساس هروبهما، أمرًا سخيفًا بقدرِ ما هو غيرُ عادل. علاوةً على ذلك، فإنَّ الرجل العجوز غيرُ مؤمَّن عليه. فما الدافع الذي قد يكون لديه لإشعال النار في متجره؟

ولم يكن مصير «تيمبل أوف ذا ميوزيز» أفضلَ بكثير من الكوخ. ورغم أن الجدران وبعضَ العوارض ظلت قائمة؛ لكنها تعرَّضَت للاحتراق التام، واحترق المخزون والأثاث بالكامل.

وتصادفَ لسوء الحظ أن البلدة «بي» ليس بها أجهزةٌ يُعتمَد عليها لإطفاء الحريق. كان الوضعُ أسوأ في هذا الصدد من البلدة التي كان يقع فيها مصنع السيدين نيوتن لأغطية الرأس. فعلى الرغم من وجود عرَبة إطفاء في البلدة «بي»، فلم يكن من العمَلي تشغيلُ هذه الأداة المجنونة. إذ مرَّ وقتٌ طويل قبل أن يُفتَح بابُ غرفة المحرك لعدم وجود المفتاح. ثم تبيَّن أنه من المستحيل تجميعُ أجزاء المحرك معًا. وكان من الممكن أن يتدمَّر نصف البلدة قبل أن يُصبح جاهزًا للاستخدام. فبعض أجزاء الخُرطوم كانت مفقودة؛ والمفصلات كلُّها صَدِئة، والأجزاء المعدِنية متَّسخة ومتآكلة. كان المحرك، في الواقع، حُطامًا، وفي مرحلة متقدمة من التآكُل. ولولا هذا، لكان من المحتمل ألا يتعرَّض «تيمبل أوف ذا ميوزيز» إلى هذا القدر من الضرر مثلما حدث؛ ولكن لحسن الحظ لم تُفقَد أرواحٌ في أيٍّ من المبنيَين.

تلقى السيد كيلينج برقية هُرِع على إثرها إلى البلدة مستقلًّا القطارَ السريع، وتوجَّه إلى موقع ما أسماه مصيبتَه، وتلقى تعازيَ كلِّ مَن هناك، حتى منافسيه ومعظم الجيران الغيورين.

إن الرجل الوحيد الذي لم يستطع فَهْم القضية، ولكن شكوكه، إن وُجِدت، لم تتخذ شكلًا محدَّدًا، كان وكيلَ شركةِ التأمين، وهو نائب أمين سجلِّ المواليد والوفَيَات والزِّيجات، وكاتِب الكنيسة، ومتعهِّد دفن الموتى، وتاجر الفحم، ووكيل السمسرة. أخبر هذا الرجلُ

العجوز المحترم الجميعَ أنه لم يحترق منزلٌ واحد في البلدة «بي» منذ ٤٠ عامًا. وأنه هو نفسه ظلَّ وكيلًا لشركة التأمين لمدة ٣٤ عامًا. وعلى الرغم من أنه حصَّل أقساطًا لصالح وثائق تأمين الشركة لا تقل عن ١٠ آلاف جنيه، فإنه لم يُطلَب منه بموجب أيٍّ من تلك الوثائق التعويضُ ولو بشلن واحد.

يبدو أن الرجلَ العجوز المسكين كان يظن، أو قد يَحكمُ المرء من خلال طريقته أنه كان متأكِّدًا، أن المطالَبة بتعويضٍ قيمته ٣٠٠٠ جنيه، التي سيُطالب بها السادة «كيلينج وشركاه»، من أجل «تيمبل أوف ذا ميوزيز»، ستخرب شركة التأمين، وتقضي عليها تمامًا كوكيل. ومِن ثَمَّ كان حريصًا جدًّا على شرح كلِّ شيء عن القضية؛ لتوضيح العناية التي أجرى بها فحصَ المبنى؛ وإظهارِ مدى الوضع المؤسِف الذي عليه الموقع والمبنى المجاوِر لمتجر «تيمبل أوف ذا ميوزيز»، وإثبات مدى ضآلة احتمالية توقُّع اندلاع حريقٍ في ذلك الكوخ؛ وكيف أنه، لو كان فكَّر في شيء من هذا القَبيل، لأمكَنه أيضًا استنتاجُ أن مبنى «تيمبل أوف ذا ميوزيز» لم يكن ليشتعلَ قبل أن يُتمكَّن من إطفاء ألسنةِ اللهب في المبنى الآخر.

سافر الوكيلُ في رحلة خاصة إلى لندن من أجل مقابلة مجلس إدارة شركة التأمين؛ وقد التقى السكرتيرَ في مقابلةٍ كنتُ حاضرًا فيها. وقد اقترحتُ أنه لم يكن من الممكن تجنبُ الأمر، وأن مِثل هذه الأمور تحدث. فقال السكرتير: «أجل؛ هو لم يكن يعلم ولكنَّ مطالبةً كهذه كانت، على المدى الطويل، مُفيدة للشركة.» ثم واسَى الوكيلَ من خلال التأكيد أنه قد يُساعده في توسعةِ عمليات الشركة، وأنه قد يأمُل في تعويض الخسارة من خلال الأعمال الجديدة، وأنه، في الواقع، يحقُّ له، عند تقدير نتائج أعماله الخاصة مع الشركة، المطالبة بمبلغ أكبر لتعويض هذه الخسارة؛ لأنه خلال وكالته التي دامت ٣٤ عامًا قد حقَّق مكاسبَ كبيرة للشركة.

عادَ الوكيل القديم المسكين، الذي لا يُفيدني كثيرًا في تحقيقاتي، إلى البلدة «بي»، ومن دون أن يُدرك قدَّم لي خدمةً بسيطة من خلال التصريح بما قلتُه له أنا والسكرتير بأن الاقتناع الراسخ لدى الشركة أنَّ كلَّ شيء كان على ما يُرام، وأن نيَّتها هي سداد المطالبة بأكثرِ الطرق وُدِّيةً، وقد وصلَ التصريح إلى السيد كيلينج، ولم يكن هناك شكٌّ في أنه اطمأنَّ به كثيرًا بقدر اطمئنان الوكيل نفسه.

يبدو أنَّ أحدَ الأطراف في البلدة «بي» سيُغفَل حقُّه على الأرجح، وهو الرجل العجوز وزوجته اللذان كانا قبل الحريق يبيعان الحلوى والفاكهةَ بجوار «تيمبل أوف ذا ميوزيز». لكن ظروفُ الزوجَين المحترمين بعد الحادث قد دفعتهما إلى طلب المساعدةَ من سكان

المدينة بشكلٍ واضح إلى حدٍّ ما. حيث طُبِعت إعلاناتٌ صغيرة في البلدة، وأخذها الرجل العجوز إلى مختلِف أصحاب المتاجر وغيرهم من السكان، حيث يُوضِّح الإعلانُ الحادثَ المؤسف الذي أحرَق منزله، ودمَّر مخزونه، وتركه متسولًا؛ لأنه للأسف لم يكن مؤمَّنًا عليه. وقد حظيا بقدرٍ كبير من التعاطف في البلدة وخارِجَها، كما حصل الزوجان الفقيران على ما يقرب من ١٠٠ جنيهٍ عن طريق التبرعات. فقد ألقى رجلُ دين خُطبةً في أكبرِ كنيسة في البلدة «بي» عن الرجل العجوز خصيصى، وقدَّم القَسُّ المحترم وصفًا مثيرًا عن معاناة الفقراء وحالتهم البائسة، بحيث جمَع له مبلغًا جيدًا جدًّا في الأطباق عند باب الكنيسة أثناء مغادرة المصلين للصرح المقدَّس.

غير أن الرجل العجوز لم يبدأ العملَ على الفور؛ لأن المنزل أو الكوخ لم يُعَد بناؤه على الفور. حيث أراد مالِكُ الأرض أن يبنيَ عليه مبنًى أكثر رقيًّا من ذلك الذي احترَق، ولم يستطع المستأجرُ السابق معرفةَ ما إذا كان سيتمكَّن من أن يُشغِّل الموقع القديم أم لا.

أما السادة كيلينج وشركاه، أصحاب متجر «تيمبل أوف ذا ميوزيز»، فقد اشتكَوا بمرارةٍ شديدة من الدمار الذي لَحِق بمبانيهم ومخزونهم، بينما هم على أعتاب الانتفاع برأس مالهم المستثمَر وأعمالِهم خلال الموسم الكئيب. ولذا تقدَّموا بشكوى رسميةٍ إلى السُّلطات المحلية بخصوص تشييد المبنى، وأكَّدوا أنه إذا كانت الترتيباتُ المماثلة لتلك التي تُتَّخَذ في العاصمة قد اتُّخِذت في البلدة «بي»، وهو ما يعني، على سبيل المثال، وجود جدران فاصلة لائقة بين جميع المباني في البلدة «بي»، فلم تكن النِّيرانُ المشتعلة في الكوخ المجاور لتمتدَّ وتَطولَ إلى متجر «تيمبل أوف ذي ميوزيز». والحق أن السيد كيلينج راح يبث شكوى شركائه على نطاقٍ واسع، على الرغم من أنه لم يتَّضح أبدًا مَن هم شركاؤه هؤلاء. كما علَّق أيضًا، بالطبع، بحرارة مشروعة على الحالة البائسة لعرَبة الإطفاء في البلدة، وعلى الافتقار إلى وسائل إطفاء الحرائق والسيطرة عليها قبل أن تُدمِّر المبنى.

لعله من غير الضروري القول إنني بعد هذا الحريق تابعتُ تحقيقاتي بعناية شديدة، وفرَضتُ مراقبة صارمة على السيد كيلينج والسيد كروس.

ومِن ثَمَّ نصحتُ الشركة باتباع مسار جريء، لكن المحامين الذين قُدِّمَت لهم هذه النصيحة مباشرةً، في المقام الأول، تردَّدوا في تأييدها. كما حذا سكرتيرُ الشركة حذوَهم بهذا الخصوص، وكنتُ قد قابلته في أكثرَ من مناسبة؛ لغرضِ فحصِ الأوراق المرسَلة من قِبَل السادة كيلينج وشركاه، عند تفعيل سرَيان التأمين. ومع ذلك، طُلِبَ مني متابعة تحقيقاتي، وقد فعلتُ ذلك.

وأعقبَت ذلك مراسلةٌ بين السيد كيلينج وسكرتير الشركة بعد الحريق مباشرة. كان السكرتير مراوغًا إلى حدٍّ ما، بينما كان السيد كيلينج صارمًا. وبعد بعض المناورات وتبادُل رسالةٍ أو رسالتَين، اعترت السكرتير نوبة من نفاد الصبر، وأخبر السيدَ كيلينج أنَّ الشركة لديها شكوكها بشأن صحة مطالبته، وأنه يعتقد أنها من الممكن أن تُرفَض.

وعند تلقِّي هذا التنبيه من السكرتير، استشاطَ السيدُ كيلينج غضبًا، وطلبَ مقابلةَ مجلس الإدارة.

إنَّ ثرثرة هذا الوكيل العجوز قد منحت هذا الرجل الثقة. فاعتقد أنه رأى في ذلك، وفي ظروفٍ أخرى من حوله، ما يكفي لتأكيد اعتقادٍ راسخ أن جريمته لم تكن موضعَ شُبهة. أو ربما حاجج نفسه بأنَّ السلامة تكمن في التصرفات الجريئة والنبرة الواثقة. ولذلك تبنَّى هذا النوعَ من النبرة والتصرف. جاء الرد على طلبه بأنه لا يُمكنه مقابلة مجلس الإدارة، لكنه قد يقابل السكرتير في أي يوم وفي أي ساعة يختارها.

يجب أن أوضحَ أنَّ هذه المقابلة كانت جزءًا من خُطتي. إذ كان السكرتير مصرًّا على رفض مقابلة مجرم الحرائق هذا تمامًا، لكنني رفضتُ اعتراضاته على الاجتماع.

وكنتُ قد عقَدت، قبل موعد إجراء هذه المقابلة، اجتماعَين أو ثلاثةَ اجتماعات متأنِّيةٍ للغاية وحذِرةٍ إلى حدٍّ ما مع محامي الشركة وسكرتيرها. وقد أصرَّ كلاهما على تبنِّي سياسةٍ حذرة للغاية. بينما أصرَرتُ على اتخاذ خطوات جريئة. فأوصيتُ بالقبض على السيد كيلينج في الحال، وقلت، دعمًا لهذا الإجراء، إنه من المحتمل، إذا فعلتُ ذلك، أن يهرب أعضاءُ عصابتِه الآخَرون، وهذا دليلٌ كافٍ على الإدانة، في جميع الأحوال، لدحض أيِّ مطالبة يمكن الحصول عليها في القانون العام بمبلغ التأمين. الحق أنني كنت أعتقد أنه لن تحدث أي محاولات لإنفاذ المطالبة في جميع الحالات. وحاججتُ بأنَّ هذه ستُصبح النتيجةَ النهائية، حتى لو أفلتَ السيد كيلينج من حُكم الإعدام أو السجن مدى الحياة؛ لكنني أضفتُ أنني أعتقد بوجود شك بسيط، وأنه إذا أُلقي القبض على السيد كروس والسيد كيلينج والعجوزَيْن، مستأجِرَي الكوخ، فيُمكنني الحصول على أدلة كافية لإدانة المجموعة؛ إذا لم يكن بأي طريقة أخرى، لا سيما باعتراف أحد أفراد المجموعة. ثم أضفت، لتوضيح الأمر أمام أصحاب العمل الذين يستمعون إليَّ، وباعتبار ذلك ذروةَ تسويغي المنطقي، أنني لم أُصادف بعدُ قضيةً قُبِض فيها على عصابة أو مجموعة كبيرة من المتحالفين في جريمة، ولم يكن هناك تبارٍ مِثالي بينهما في تقديم الأدلة. لم أتمكَّن من إقناع المحامي والسكرتير بإدانة العصابة، لكنهما وافقا على السماح لي بسلطة تقديرية واسعة إلى حد ما في محادثتي الشخصية إلى السيد كيلينج أثناء المقابلة.

في صباح أحد أيام الإثنين، عند الساعة الحاديةَ عشْرة، حضرَ السيد كيلينج إلى شركة التأمين. وبالطبع، بدا مختلفًا تمامًا عن السيد هنري نيوتن. حيث تحوَّل الوجه الحليق للسيد نيوتن إلى وجهٍ ذي لحية وشاربٍ مشذَّبين للسيد كيلينج. واستبدل بالزيِّ البسيط لصاحب مصنع أغطية الرأس، ملابسَ متأنقةً لمالِك متجر «تيمبل أوف ذا ميوزيز». قد يقول بعض الناس إنه قد بدا كرجلٍ نبيل، على الرغم من أنه بدا لعينيَّ على حقيقته تمامًا: نوع بارع ومثالي من الأشرار شديدي الدهاء. كان هادئًا وواثقًا من نفسه. وكنت على الأقل هادئًا مثلَه من الخارج، وأكثرَ هدوءًا في الداخل.

بعد محادثةٍ قصيرة بين السكرتير والمجرم، أشارَ فيها الأولُ إلى أن عناصر المطالبة التي يحاول استردادها غامضةٌ وغير مؤكَّدة، وقرر أنَّ الشركة ستطلب التحقيقَ بخصوصها، وأنه يعتقد أنها ستُقوِّض هذه المطالبة، وقد استخدم السيد كيلينج لغةً قوية حول الوشاية التي تحملها تلك التهديدات، وقال بالفعل إنه يجب أن يتخذ إجراءاته القانونية على الفور، وأنه يمكن للشركة أن تبذل قصارى جهدها أو تفعل أسوأَ ما لديها، لكنه سيبذل قصارى جهده لفضحها أمام العالم بأسره وتدمير مستقبل أعمالها؛ وعندها رأيتُ أنَّ الوقت قد حان للتدخل.

فتقدمتُ إلى الأمام، ونظرتُ إلى السيد كيلينج بثباتٍ في وجهه، ورأيتُ الخوف في عينَيه بينما كنت أخاطبه.

«اسمع أيها السيد. لقد حان الوقت لوضع حدٍّ لهذا الهُراء. وسواءٌ أكنت تعرفني أم لا، فأنا أعرفُك جيدًا، وأعرف كلَّ شيء عنك وعن العصابة التي تنتمي إليها. دعني أُخبرك، أنني أعرف كلَّ شيء عن ذلك الحريق في وايت تشابل، وما يكفي عن حريق برمنجهام؛ وما يكفي، على ما أعتقد، للزج بك في سجن بورتلاند لبضع سنوات بسبب تلك الحرائق في مانشستر وليفربول. لقد راقبتُ سجل جرائمك بأمِّ عينَيَّ لمدة طويلة، يا سيد نيوتن، أو كيلينج، أو روبرتس، أو جاميسون، أو أيًّا كان اسمك حقًّا؛ والآن أنصِت إليَّ جيدًا. لقد أفلتَّ بذلك المال من خلال حريقك بالقرب من دانستابل. افهم أنك محظوظ لأنك لم تُشنَق، مع شقيقك المخادِع ألبرت — أقصد السيد كروس — لقتل شريكِكما باترسون. واعلم أنه ليست نواياي الحسَنةُ هي ما سيسمح لك بعبور عتبة هذا الباب مرة أخرى؛ ولا أعرف حتى الآن ما إذا كان سيُسمح لك بفعل ذلك. اعلم أنني أعرف كل شيء عن تجرِبتك في البلدة «بي»، يا صاحب متجر «تيمبل أوف ذا ميوزيز». وأعرفُ مَن هم جيرانك، الرجل

العجوز والمرأة. إنهما بيل سميث وزوجته تاجرا البضائع المسروقة في حارة روزماري لين. وأعرف ما فعلاه بالمال الذي حصلا عليه من تبرعات الكنيسة. لقد اشتريت تذكرة القطار إلى لندن أمس من عائدات الخطبة الخيرية، أيها الشرير البارع. أنا لم أكن من قبلُ سببًا في إعدام شخص؛ ولكنني أود أن أسلمك إلى حبل المشنقة، بقدرِ ما أرغب في الاستمتاع بعشاءٍ جيدٍ اليوم.»

وضعتُ ظهري على الباب الخارجي لمكتب السكرتير، لكي أجبر السيد كيلينج على الاستماع إلى كلِّ ما أريد قولَه. لذلك، كان مضطرًّا إلى الاستماع إلى كل ما كتبتُه هنا، وأكثر إلى حدٍّ ما مما أطلعُ القارئَ عليه. وأتخيَّل أنه كان من الصعب عليه التحكمُ في التعبير عن مشاعره؛ لكنه قام بذلك بشكلٍ جيد، وباستثناء القليل من تململِ العينين، وحركةٍ عصبية طفيفة في الوجه. لم تكن هناك أعراضٌ واضحة للخوف، أو أي شيء من هذا القبيل، في صدره.

بعد حوالي نصف دقيقة من نهاية كلامي، كسَر الرجلُ حاجز الصمت — مضطرًّا إلى قول شيءٍ ما: «هذا سيئ للغاية يا سيدي؛ وعليك أن تتوقف عن مخاطبتي بمثل هذه اللغة.»

كنتُ أعرف ما تريده الشركة. لقد شرحت لهم، بالإضافة إلى ما وضحته بالفعل للقارئ، كيف تمكنتُ، بلا شك، من تتبُّع آلات البيانو حتى مصدرها، وأثبتُّ أنهم لم يُسددوا ثمنها بعد؛ أو أنها كانت من نوع متدنٍّ بشكل واضح، ولا تساوي ٢٥ في المائة من المبلغ المطلوب كثمنٍ لها عند البيع؛ وأنهم كانوا يقصدون فقط أن تصبح بمثابة غِطاء أو سِتار لمطالبة التأمين الاحتيالية. يمكنني في الواقع، بلا أي شك، الحصولُ على إدانة لهم بالحرق العَمْد في أي محكمة جنائية؛ لكنني علمتُ أن الشركة ترغب فقط في تجنُّب سداد مطالبةٍ احتيالية؛ وبما أن الشركات ليس لديها ضمير، ولا تهتم بمطاردة عصابة من مُشعلي الحرائق، أو القيام بأي شيء من خلال المنظور البسيط لخدمة السياسة العامة، ولمعرفتي بذلك، ورؤية النهاية الوشيكة للعبتي (دون الإساءة لأصحاب العمل)، وضعتُ ذراعي أمام مشعل الحرائق القاتل، وأعطيتُه كرسيًّا بأدب زائف، وسألتُ السكرتير إذا كان يسمح لي باستخدام مكتبه حصريًّا لبضع دقائق. فانسحبَ بناءً على هذا التلميح. وما إن غادر الغرفة — حيث لم يكن قد مرَّ على خروجه أكثرُ من دقيقة — حتى قلتُ للجاني: «بما أنك أتيتَ إلى هنا بدعوةٍ من السكرتير، فأنت حُر في المغادرة، لكنني سأعطيك مُهلةَ

ساعتين من الزمن فقط. فأنا ضابط تحرِّياتٍ جنائية، وأظن أنك قد خمَّنت هذا، وربما تعجَّبتُ أنك لا تعرفني. والآن، لأكونَ صريحًا معك، يمكنني أن أقول إنَّ هذه الشركة، على ما أعتقد، قد ترضى بالسماح لك بالفِرار، لكنها لن ترضى بالسماح لك أو لعصابتك بفرصة الاحتيال على مُساهميها أو أي شركة ثانية مرةً أخرى. سنُراقب تحركاتك من لحظة خروجك عبر هذا الباب؛ وفي كل طريق ستسلكه، تأكَّدْ أننا نقتفي أثرَك، كما كنا منذ أكثرَ من عامٍ ونصف العام. وإذا كنتَ حكيمًا بقدر ما أظنك، فستخرج من البلاد في أقربِ وقتٍ ممكن؛ وإذا كنتَ ذكيًّا، فلن تعود مرة أخرى. اعلم أنني ليست لديَّ سلطة لأنْ أقول هذا، لكنني أقول ذلك على مسئوليتي الخاصة.»

فتحتُ الباب الذي يؤدي إلى بَهْو مكاتب الشركة. ونظرتُ إلى كيلينج، وقلتُ له آخرَ كلمة: «انصرف.»

ومِن ثَمَّ انصرف.

كان من دواعي سروري أن أُبلِغتُ في غضون أيام قليلة بأنه قد رحل على متن سفينةٍ بخارية من ساوثهامبتون إلى نيويورك. كما كان من دواعي سروري أن أعلن للشركة أنه في غضون أيام قليلة بعد ذلك غادر السيد كروس شواطئنا قاصدًا الميناءَ نفسَه عن طريق ليفربول. كما علمت أيضًا أن الرجل العجوز وزوجتَه الموقَّرَين في البلدة «بي» قد عادا إلى مكانهما القديم، وسُمِعَا يشكوان من أنَّ السيد كيلينج والسيد كروس قد «تخلَّيا» عنهما.

وهكذا وفَّرَت الشركة بالطبع ٣٠٠٠ جنيه. كما أثنى المحامي على مجهوداتي، وتلقيتُ تحياتِ السكرتير، وتلقَّيتُ مقابلَ أتعابي عن تسوية القضية. وبدا أنَّ السكرتير، الذي كان رجلًا نبيلًا للغاية، يعتقد أنَّ شيئًا ما على سبيل المجاملة كان مستحَقًّا لي أكثرَ من سداد أتعابي. وقال إنه سيعرض الأمرَ على مجلس الإدارة، وسيشعر بسعادةٍ شخصية إذا حضرتُ يوم الأربعاء التالي في تمام الساعة الحادية عشرة، كي يُقدِّمني إلى مجلس الإدارة، ولا شكَّ أنه سيحصل منهم على تعليماتٍ لمنحي مكافأةً على الخدمات التي قدَّمتها، ليس فقط لتلك الشركة، ولكن لجميع شركات التأمين ضدَّ الحرائق في العاصمة.

ومِن ثَمَّ قبلتُ هذه الدعوة وحضرتُ اجتماعَ مجلس الإدارة. حيث يتكوَّن المجلس من عددٍ كبير من الأعضاء، ولكن وصفهم جميعًا قد يكون أمرًا مملًّا. لكن أودُّ أن أقول إنَّ رئيس مجلس الإدارة كان رجلًا عجوزًا بدينًا.

وبينما كان السكرتير يشرح القضية بالتفصيل (لأنه يبدو أن مجلس الإدارة لم يكن يعرف الكثيرَ عن هذه القضية حتى تلك اللحظة، وقد نُفِّذ كل شيء بأوامرَ من السكرتير

والمحامي، حسَبما أظن، وعلى مسئوليتهما الخاصة)، قاطعه هذا الرجلُ العجوز بملاحظاتٍ عميقة مثل «آه! لقد فهمت؛ قضية سيئة للغاية — يا له من حظ! — كان يجب أن يُشنَق ذلك الشرير — لماذا لم نُقاضِه؟ — أعتقد أنه كان يتعيَّن علينا مقاضاتُه!»

ومع ذلك، لم يكن من اللائق بالنسبة إليَّ أن أتدخَّل في المحادثة. لقد استمعتُ فقط. وفي الختام، قال السكرتير إنه قد طلبَ من هذا الرجل (يقصدني أنا) الحضورَ اليوم، حتى يحظى ببعض التقدير من أعضاء المجلس شخصيًّا عن تقديرهم لما قدَّمه من خدمات.

عندئذٍ خاطبني الرجلُ العجوز قائلًا: «نعم بالتأكيد؛ لقد أديتَ دورك جيدًا يا سيدي، وكنتَ بارعًا للغاية، أعتقد أنني يجب أن أُقرَّ بذلك.» ونظرَ حوله إلى الأعضاء الآخرين للحصول على إيماءة القَبول التي أُعطيت بالفعل.

قال عضوٌ متحمس وذكيُّ المظهر إنه يعتقد أنه يجب تقديمُ مزيدٍ من التقدير الجوهري لمثل هذه الخدمات كما وصفَها السكرتير، وأنه، لذلك، يجب عليهم التصويتُ لتوجيه الشكر إليَّ؛ وهو اقتراحٌ حصلَ على تأييدٍ من قِبَل عضو آخر، وأُقِر بالإجماع.

قال رئيسُ مجلس الإدارة، موجهًا حديثه إليَّ مرة أخرى: «كما ترى، لقد قدَّمنا لك تصويتَ شكرٍ.» فحيَّيتُه بإيماءةٍ بسيطة للرأس؛ فأنا لا أحب المجاملات بدرجة كبيرة.

ثم نهضَ عضوٌ آخر وقال: «أعلم أنَّ التصويت بالشكر هو أمر جيد جدًّا؛ لكن أعتقد أنه يجب علينا أن نمنح هذا الرجلَ بعضَ التقدير الجوهري لخدماته. وأنا فقط عضوٌ شاب في مجلس الإدارة. لا أرغب في نقل القرار بنفسي، لكنني أقترحُ عليك يا سيدي، كرئيس، إصدارَ قرار بمنح مكافأة مالية للضابط.»

قال الرئيس: «أنا لستُ مع هذا الاقتراح على الإطلاق. لقد عمل ببراعة كبيرة. لكنه لم يفعل سِوى واجبه في النهاية، مثلما نفعل نحن؛ ولا أعتقد أنه يتعيَّن علينا إنفاقُ أموال المساهمين في مجاملاتٍ لرجال لمجرد قيامهم بواجباتهم.»

سمعتُ هذه الملاحظة وأنا أشعر بشيء من عدم الارتياح، لكنني لم أقل شيئًا.

قال الرجل الذي قدَّم الاقتراح إنه لا يستطيع أن يتفق مع رئيسهم الموقَّر في كل ما قاله؛ وقال عضو آخر في مجلس الإدارة شيئًا بهذا المعنى.

ويبدو الآن أنَّ الرئيس يعتقد أنه كان مخطئًا بعضَ الشيء، وأنه تلقى هذه الملاحظات على أنها توبيخ. فبدا أنه يعتقد في وجوب تقديم التقدير الواجب على خدماتي من خلال ما تخيلَه، حسبما أظن، قليلًا من الكَرم الشخصي.

فقال: «حسنًا، حسنًا! لا تُضيعوا الوقت في هذا. لا يمكننا إنفاقُ أموال الشركة، هذا ما أنا متأكِّد منه. سأُقدم لهذا الرجل هديةً بنفسي.» ثم التفت إليَّ وقال: «تفضَّل يا سيدي؛ لقد سمعتَ ما قاله المجلس؛ سأُقدم لك هديةً عبارة عن نصف جنيه ذهبي من جيبي الخاص.»

أعترفُ أنَّ هذا التصرف الذي يتصف بالكَرم قد تغلَّب تمامًا على قدرتي للسيطرة على نفسي. ولم أستطع منعَ رغبة عابرة في إهانة الرجل العجوز. وقد حاولتُ جاهدًا، لكني لم أتمكن من خنق هذا القرار؛ لذلك، أخذتُ نصف الجنيه بين أصابعي، وقلت له: «حسنًا، كما ترى يا سيدي، أنا أتفق معك. عندما يقوم الرجلُ بواجبه، وخاصة عندما يتقاضى أجرًا مقابل ذلك، فإنه لا يريد أيَّ شيء آخر. وأنا لا أريد أي شيء آخر. لقد دفعَت لي شركتكم ٣١٠ جنيهات و١٤ شلنًا، وهو المبلغ الذي سيُعوضني تمامًا؛ وإذا لم يكن لديك أيُّ اعتراض يا سيدي، وحيث إنه ليس لديَّ أدنى شك في أنَّ لديك بعضَ العلاقات السيئة، فربما ستعطي إحداهن نصفَ الجنيه هذا مع تحياتي.»

لم أنتظر لأرى تأثيرَ هذا الرد على ذلك الغنيِّ البدين؛ لكنني وضعتُ العملة في منتصف الطاولة، وقلت ببساطة وعلى عجَل: «عِمتَ صباحًا يا سيدي، عِمتم صباحًا أيها السادة.» وغادرتُ المبنى الفخم الذي يحتوي على المقر الرئيسي لشركة «انتصار الوضاعة» للتأمين.

حادثة على شريط السكك الحديدية؟

قبل بضع سنواتٍ، وعلى بُعد نحو ١٥ ميلًا من لندن، كان على رجل يُدعى فريلينج، في طريق عودته من القرية أيه إلى القرية بي على مسافة أربعة أميال فقط، أن يَعبُر أحدَ خطَّين رئيسيين للسكك الحديدية يمتدان شمالًا من العاصمة الكبرى ويقطعان المناطقَ المكتظَّة بالسكان في إنجلترا. ولإعطاء الحقيقة الدقيقة عن هذا الرجل، نقول إنه كان في زيارةٍ لصديق؛ رجل خبير في مجال البستنة وزراعة الزهور والمحاصيل، حيث كان السيد فريلينج يرغب في الاستثمار بهذا المجال. ولإعطاء المزيد من الحقائق، إذ يُستحَب ذِكرَها كاملة، بعد الفحص والموافقة والإعجاب بمهارة صديقه ونتائجها، دعا السيد جودوين صديقه السيد فريلينج لتناول العشاء معه؛ وأعتقد أن الضيف قد شربَ بشكلٍ مفرط من مخازن الشراب لدى مضيفه. ومع ذلك لم يفقد قدرتَه على تمييز المشاهد والأصوات؛ ولو كان كذلك، ما برز كشخصيةٍ في هذه الرواية.

كان الطريقُ الذي سلكه السيد فريلينج من منزل صديقه إلى منزله، بعد عبوره شريطَ السِّكك الحديدية، عبر ممرٍّ ضيق غيرِ بعيد عن المحطة. لكن لحسن حظِّه، ربما، هو لم يكن يُدرك أنه، بالقرب من ممرِّ المشاة عبر الخط (أي، خط السكة الحديدية)، وقعَ اصطدامٌ كبير في الوقت الذي كان فيه الريفيَّان الهاويان منخرِطَين في الحديث؛ في مكانٍ ما قبل أربع ساعات تقريبًا من الأحداث التي أنا على وشك وصفها. ومع ذلك، فقد رُفع الركام قبل أن يمرَّ صديقنا بمكان الكارثة، ولم يظهر أيٌّ من بقاياها في ضوء القمر. لم يكن قد ابتعد عن القضبان، عندما اعتقد أنه سمع صوتًا منخفضًا مثل الأنين؛ وإذا كان يُجيد الحكمَ على مثل هذه الأمور (حسبما دار في عقله)، فهو أنينُ رجلٍ أو امرأة في حالة ألم. ومِن ثَمَّ توقفَ؛ وأنصتَ. لكن كان كلُّ شيء صامتًا. فتحرَّكَ خطوةً أو اثنتين. واستمعَ مرة أخرى فجلبَت له الريحُ شيئًا مثل تَكْرار الأنين. هل يمكن أن يكون مخطئًا؟ سألَ نفسه. كلا؛

كان هذا صوتًا بشريًّا. ربما أحد البائسين في حالة سُكْر. إذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ الفكرة الأولى التي طرحت نفسَها كانت، أنه يجب عليه العودةُ ليتأكَّد أن الرجل لم يكن مستلقيًا في مسار القطار الحديدي أو عرباته. يُقال إنَّ الأفكار الثانية هي الأفضل، وإذا كانت الأنانية أفضلَ من عدم المبالاة، فإن أفكار السيد فريلينج الثانية أفضلُ من أفكاره الأولى. فقد قال في نفسه، ما الذي يعنيه إذا كان الناس في حالة سكرٍ أو لا؟ يجب أن يُعانوا من أجل ذلك، كانت هذه الفكرة الثانية لدى هذا الرجل نصفِ المخمور. لذلك سار مرة أخرى؛ لكن الصوت الذي صار أعلى هذه المرةَ أتاه مرةً أخرى. وهو لم يكن في الأساس رجلًا قاسيًا؛ وعلى الرغم من أن منزله كان له عواملُ جذبٍ خاصةٌ له في حالته حينَذاك، فقد اضطُرَّ إلى التوقف بفِعل قوة طبيعته الإنسانية.

إنَّه أنينٌ آخر. لا يمكن أن يكون هناك خطأٌ في ذلك. كان هناك بائسٌ مسكين يرقد في مكانٍ ما بالقرب منه في حالة ألم واضح. فصاحَ:

«يا هذا! ما الخطب؟»

ردَّ عليه تأوُّهٌ ضعيف.

فصاحَ: «أين أنت؟»

مرة أخرى جاءَه الرد في صوت أنين.

لم يكن لإنسانٍ محترم، على الرغم من أنه نصفُ مخمور، أن يتجاهلَ الأمر. ولذا عاد في اتجاه السكة الحديدية لبضعِ خطوات. ثم توقف، واستقبلَت أذنه مرة أخرى صوتًا كئيبًا.

قال المسافر في نفسه: «لا بد أن هناك رجلًا مسكينًا ممدَّدًا على السكة الحديدية في حالة احتضار. فماذا أفعل؟ إنَّ أقرب محطة؛ وهي المحطة بي تبعد مسافة ميلَين؛ وأقرب منزل يبعد ميلين. ومع ذلك، يجب أن أعثر على مكان رقوده، وأن أعرفَ مشكلته، وأفعل ما بوُسعي لمساعدته.»

وبعد أن اتخذ هذا القرار، عاد إلى الوراء، وتوقَّف للإنصات، وبين الحينِ والآخَر كان يسترشد بصرخة الألم.

وبعد مدة وصل إلى البوابة المتاخِمة للسكَّة الحديدية، فتوقَّف واستمع إلى صرخةٍ أخرى تُرشده إلى اليمين أو اليسار. وانتظر لحظةً ليحصل على الإشارة التي يحتاجها. فاستدار إلى اليسار، وسار بسرعةٍ لمسافة ٣٠٠ ياردة، عندما واجه عقَبة في مساره، وتعثَّر فيها. وتبع ذلك صرخةٌ أو شيءٌ من هذا القبيل. تبيَّن أنها صادرةٌ عن رجل ممدَّد على وجهه كان قد اجتذبَته تأوُّهاته منذ البداية.

انحنى السيد فريلينج على المسكين الذي يعاني، فعلم أن حادثًا وقع لهذا الرجل على السكة الحديدية، وأنه يحتاج إلى المساعدة الطبِّية والعناية.

كان للموقف وأحداثِه تأثيرٌ جيد على الرجل المخمور؛ فقد أُوقِظَت حواسه. وفي غضون خمسِ دقائق عادَ إلى حالته الطبيعية وأصبح متزنًا. ومِن ثَمَّ أبعدَ أطراف جسد الرجل بعنايةٍ عن نطاق الخطر المباشر، وركَض على طول مسار السكة الحديدية حتى وصلَ إلى المحطة، وهناك علم بتفاصيلِ الاصطدام؛ لكنه أُبلِغ بأن جميع الركَّاب قد أُسعِفوا، ومعظمهم، إن لم يكن جميعهم، في حالة جيدة بما يكفي لمواصلةِ رحلتهم إلى منازلهم. وأصرَّ على أنه لا بد أن يكون هناك استثناءٌ واحد على الأقل لهذه القاعدة، وأنَّ المسئولين في المحطة لم يلحَظوا وجود الرجل المصاب؛ وهكذا أقنعهم بالتوجُّه معه لإنقاذه.

سارَ الرجل ومعه اثنان من الحمَّالين ورجلان آخَران من أجل المساعدة، وهم يحملون الفوانيس ونقَّالة نقل المصابين، وتوجَّهوا مع صديقنا إلى المكان الذي عثر فيه على الرجل المصاب.

كان لا يزال مستلقيًا هناك، يئنُّ ويتأوَّه بقوةٍ أكبرَ من ذي قبل. فرُفِعَ بكل اللطف الذي استطاع الحمَّالون الأربعة القيامَ به، وحمَلوه فوق نقالة على طول الشريط مرةً أخرى إلى المحطة.

ومن حُسن الحظ أنه، بالقرب من هذه المحطة، كان هناك فندقٌ عبارة عن مبنًى صغيرٍ متواضع، لن يُفكر أحدٌ في اختياره للإقامة المؤقتة إذا كان لديه وسيلةٌ لدفع ثمن الترفيه والمرطِّبات في مكانٍ آخر. ومع ذلك، فقد اعتُبر أنه مناسب للتخفُّف من الأعباء تحت سقفِه. ونُقل الرجل المسكين إلى الفندق الصغير، ووُضِعَ على سريرٍ مريح، كان يُشكِّل الجزءَ الرئيسي من أثاث أفضلِ غرفة نوم.

وهكذا استعادَ بعضًا من عافيته الآن. فطلبَ تناولَ بعضٍ من شراب براندي، فأحضروا له شرابًا رديءَ النوع، لكنه يُباع بالتجزئة باعتباره أفضلَ أنواع الشراب.

ويبدو أن الشراب قد أحدث تأثيرًا جيدًا على المسافر الجريح. فبعد بضعِ دقائق من استعادته الوعيَ، استعاد القدرةَ على الكلام تحت التأثير المنعِش للشراب. ثم طلبَ من أحد الحاضرين أن يُخرِج محفظته من جيبه، وأن يُخرج منها خطابًا، يحتوي مظروفًا يتضمَّن عُنوانه:

السيد إفراهام سويتمان

١٩ ... ستريت، بيمليكو.

وتمكَّن المسافر المصاب من إجراء محادثة قصيرة.

«هل هذا عُنوانك أيها الرجل الطيب؟»

ردَّ بضعف: «أجل!»

«هل أنت مصاب بشدة؟»

ردَّ مرة أخرى ببطءٍ وضعف: «أجل!»

سأله شخصٌ آخر: «هل هذا هو اسمُك وعنوانك؟» وأمسكَ السائل أمام عينَي الراكب الجريح مظروف الرسالة الذي أخرجه من جيبه.

وقَبِل الابتسامة كردٍّ بالإيجاب.

ثم قال أحد عمَّال السكك الحديدية لعاملٍ زراعي: «من الأفضل أن نُرسل في طلب الطبيب سكالبيل.»

فأظهر وجهُ المسكين علاماتِ استياءٍ واضح. وأسقطَ رأسَه كما لو كان سيفقد الوعي.

«يجب أن نستدعيَ الطبيب.»

سارع الرجل الجريح الراقد على الفراش بالقول: «لا!»

صاحَ رجلٌ آخر من المجموعة قائلًا: «ماذا نستطيع أن نفعل إذن؟»

هتفَ الرجل الجريح على عجَل ولكن بصوتٍ خافت: «استدعوا الطبيب جونز!»

«هل يُمكنك إخبارنا أين يعيش؟»

لم يردَّ على الفور؛ وحيث إن الرجل المسكين بدا غيرَ قادر على تحمُّل ثقل صدره ودماغه، وضَعوا رأسه على الوسادة.

ودخلَ الغرفة الآن رئيسُ المحطة، الذي أُوقظ من نومه الطبيعي؛ وبعد أن أُبلِغ بما حدث، سألَ عن كتيب دليل لندن، الذي كان، لحسن الحظ، جزءًا من أثاث الفندق. ومِن ثَمَّ اكتشف أنَّ في الشارع الذي علموا أن الرجل المسكين يسكن فيه، يوجد طبيب يُدعى «أنتوني جونز، عضو الكلية الملكية للجراحين»، ويسكن على بُعد نحو عشرين منزلًا من منزل مريضه.

وَفقًا لذلك، أُرسلت برقية إلى الدكتور جونز بخصوص مريضه؛ وأُبلغ بموعد انطلاق القطار التالي من لندن.

كان الدكتور جونز رجلًا يقظًا، وعند استلام الرسالة لم يُضِع وقتًا وتوجَّه على الفور إلى حيث أُودع جاره.

وعند وصوله كان المريض قد تحسَّنَ قليلًا، وعندما رأى وجهَ طبيبه تماسكَ بقدر كافٍ ليُشير إلى أن مصدر الألم عند ضلوعه.

أرادَ الجرَّاح مغادرة الرجال للحجرة، وطلب مساعدةَ امرأة حتى الصباح. ومرةً أخرى استخدم جهاز التلغراف المفيد. حيث أُرسلت برقيةٌ إلى لندن تطلب من السيدة براندیفيس، التي كانت تعيش في مكانٍ ما في بيمليكو، أن تأتيَ إلى فندق المحطة بي، وأُبلغت بموعد انطلاق القطار التالي من لندن في الصباح.

بعد إعطاء هذه التوجيهات، قُطعت ملابس المريض المسكين ومُزقت من حول جسده حتى لا يشعرَ بألم، ثم وُضع في الفراش، وحرَص الطبيب على جعله مرتاحًا قدرَ الإمكان؛ حيث أعطاه دواءً في كأسِ ماء من زجاجة يحملها في جيبه. ثم أخبر المرأة التي ساعدَته أن بإمكانها الاستراحةَ بعد تزويده ببعضٍ من الشراب المذكور سابقًا، لاستخدامه الخاصِّ أثناء الليل. وهكذا جلسَ الطبيبُ مع مريضه حتى وصلَت السيدة براندیفيس في الصباح، فسلَّمه إلى رعاية ممرضته واهتمامها.

في صباح اليوم التالي، وصلَ الدكتور أترابيليوس، كبير المسئولين الطبِّيين وأحد الجراحين المنتدبين لدى شركة السكك الحديدية، مستقلًّا القطارَ السريع ليرى ما يمكن أن يفعلَه في سبيل استعادة صحة المريض، وشفاءِ جروحه، والأهم من ذلك كلِّه عمل ترتيبٍ للتعويض من قِبَل الشركة، التي يعمل بها بصفته المزدوجةِ كطبيب ومفاوضِ تعويضات، عندما يتسبب إهمالُ موظَّفيهم في أي ضرر.

بالطبع أُدخل الدكتور أترابيليوس إلى حجرة المريض، مما أثار استياءً واضحًا من ممرضته المخلِصة. ومع ذلك، لم يكن لدى المريض ما يقوله له عندما أوضحَ أنه جاء نيابةً عن شركة السكك الحديدية. فأعلنَ المسكينُ أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يُعالجه سوى طبيبِه أو جرَّاحه المعتاد. وحاول الدكتور أترابيليوس تقديمَ خدماته، لكن جهوده ذهبَت سُدًى. إذ أظهر الراكب المصاب نفورًا من استقبال خدماته؛ وقالت الممرضة إنها ترى أنه ليس من الصواب فرضُ نفسِه على الرجل الذي لا حول له ولا قوة عندما لا يرغب في تلقِّي خدماته، كما أن الدكتور جونز معروفٌ لدى جميع أهل بيمليكو، إن لم يكن للعالَم كله، كرجل بارع جدًّا.

أدَّى هذا المشهد إلى تعكير صفوِ المريض. وقد أدى غضبُ الممرضة، أو ربما تحامُلُها، إلى استياء الدكتور أترابيليوس، الذي طُرِد من الغرفة وسط سيلٍ من الإساءات لمحاولته قتل المصاب بوقاحة. فغادر الدكتور أترابيليوس المكان مستاءً، مع شعورٍ بالمهانة نظرًا إلى ازدرائه إلى أقصى حد وتجاهُل منصبه.

أرسلَ الدكتور جونز برقيةً في منتصف النهار تقريبًا ليُصرح أن ارتباطاتٍ مُلحةً لن تسمح له بالوصول إلى القرية مرةً أخرى حتى المساء؛ لكنه في هذه الأثناء سيُرسل — وقد أرسل بالفعل في القطار التالي — طردًا صغيرًا من الأدوية.

وقد تلقَّى المريض كلَّ رعاية ممكنة من قِبَل السيدة براندیفیس والدكتور جونز لعدة أيام، حتى جرى توفيرُ قطار خاصٍّ بناءً على طلب الشركة، به عربةٌ مجهَّزة جيدًا بكل ما يُمكن أن يُسهِّل على المسافر المصاب كي يُنقَل إلى لندن ويستقر في منزله.

وبعد مرور بعض الوقت، ربما نحو شهر، استعادَ المريضُ صحته بالقدر الذي يسمح له بممارسة عمله المعتاد، أيًّا كان ذلك. فأرسل محاميه خطابًا إلى الشركة يُطالب فيه بدفع مبلغٍ جيد كتعويض عن ثلاث أضلُعٍ مكسورة، وكدمات متفرِّقة، وما لحق بجسده من ضررٍ على وجه العموم، إضافةً إلى عجزِه عن العمل في الفترة الماضية والقادمة. وقدَّمت الشركة عرضًا بقيمة ٢٥ جنيهًا لتسوية الأمر، لكنه رُفض. وصدَر أمر قضائي من محكمة كوينز بنش. فدافعت الشركةُ عن الإجراءات التي اتُّخِذت، وتقرَّر تحويل القضية في النهاية إلى ساحة القضاء.

وفي ساحة القضاء، ترافعَ السيد كابوليت أتيك من مجلس مستشاري الملكة، بصفته المحاميَ الرئيسي للمدَّعي، وفي سياقِ خطابه الافتتاحي ذكَر بوضوحٍ الحقائقَ التي سُرِدَت بالفعل. حيث ركَّز بشكل كبير على إهمال موظَّفي الشركة، ليس فقط في السَّماح بوقوع الحادث، الذي قال إنه وقعَ نتيجةَ إهمالٍ جليٍّ وكبير، ولكن أيضًا، نظرًا إلى الإهمال الكبير الذي لا يُغتفَر في ترك مُوكله المسكين على الأرض لساعاتٍ عديدة دون محاولة إنقاذه. وأشار إلى ما تصادفَ من تأخر السيد فريلينج على مائدة العشاء الخاصة بصديقه، ورحلته إلى منزله عبر شريطِ السكة الحديدية، وهو الحدثُ الذي وصفه المحامي البليغُ بأنه تدخلٌ خاص من العناية الإلهية، والذي من دونه كان موكله المسكين، المدعي، على الأرجح قد مات من البرد والرطوبة والجوع. لقد وجَّه اللوم الشديد إلى الشركة لتوظيفها الدكتور أترابيليوس، ليس فقط كطبيب، من أجل تقديم الرعاية الطبيَّة للمدعي الجريحِ أو المصاب، ولكن أيضًا كمفاوضِ تعويضات، من أجل التوصُّل إلى حلٍّ وسط بين المدعي والشركة. وأدان كذلك، بعباراتٍ مريرة، عرضَ التسوية الرديء والسيئ الذي قدَّمه مجلسُ الإدارة من خلال محاميهم منذ أن جرى التهديدُ برفع القضية. وأخيرًا، ناشد هيئة المحلَّفين وكله ثقة أن تمنح مُوكله المكلومَ تعويضاتٍ كبيرةً نظيرَ الضرر البالغ الذي لحق به؛ ثم جلسَ مبتسمًا بثقةٍ إلى أعضاء هيئة المحلَّفين، وكأنه يتوقع الحصولَ على كل ما طلب.

ولا داعي للحديث عن الأدلة باستفاضة. فباعتباره رجلًا نزيهًا وجديرًا بالاحترام تمامًا، وصَفَ الرجلُ الذي عثَر على المدَّعي المسكين الحالةَ التي كان عليها عندما وجده. وكان استجوابُ هذا الشاهِد مسألةً شكلية تقريبًا. فكيف يمكن توقُّع أيِّ شيء منه لا يُعزِّز دعوى المدعي؟ لقد كان رجلًا نزيهًا وحياديًّا تمامًا. ومِن ثَمَّ، كان بالفعل شاهدَ إثباتٍ موثوقًا فيه. كما أدلى الطبيبُ والممرضة اللذان عالجا المدَّعيَ بشهادتهما بوضوح شديد، على الرغم من بذل بعض المحاولات لزعزعة شهادتهما، وإثبات أنَّ الإصابات لم تكن شديدةً كما يدَّعيان. ولكن لم يتمكَّن الدفاعُ من النجاح في ذلك، ويمكن القولُ إن المدعيَ قد أثبتَ دعواه.

وقدَّم محامي المدعى عليهم، السيد بومبوس بلاور، من مجلس مستشاري الملكة، دفاعًا حماسيًّا إلى المحكمة وهيئة المحلَّفين؛ ولكن ما الذي يمكن أن يُثبته نيابةً عنهم في مثل هذه القضية؟ كان أقصى ما يمكن أن يفعله هو التخلُّص من تهكُّم صديقه المخضرم السيد كابوليت أتيك، والإشادة من آنٍ لآخَر، بالأعمال الخيريَّة للشركة التي يُمثِّلها. كما دافعَ عن الدكتور أترابيليوس، أو على الأقل شجبَ إدانة ذلك الرجل صاحب العلم في غيابه. وأنكرَ المحامي المخضرمُ أن يكون الدكتور أترابيليوس قد وُظِّفَ ليقومَ بالمهمَّة التي يدَّعونها، وأكدَّ أنه لم يكن لدى الشركةِ أيُّ غرضٍ آخر، عندما أرسلَته من جانبها إلى المسافر المصاب، إلا لتخفيف آلامِه والقيام بأفضلِ ما في وُسعه لمعالجته. ومع ذلك لم يستدعِ محاميَ المدعى عليهم الدكتور أترابيليوس كشاهدٍ للدفاع، والمدعي بالطبع لم يكن يريده؛ لذا فإن الادِّعاء بأن الطبيب قد لعبَ في مناسَبات سابقة دورَ المفاوض في تسوية الدعاوى ضدَّ أصحاب شركته، لم يلقَ التناقضَ الذي كان من الممكن أن يلقاه، ولربما كان من المرغوب لهم تقديمُه.

لخَّص القاضي الأمرَ وقال إنها تبدو له كأنها قضيةٌ لا يمكن دحضُها؛ لكنه حثَّ هيئة المحلَّفين على ألا يتأثر حكمُهم بفصاحة السيد كابوليت أتيك، الذي كان، مع ذلك، يتصرفُ في جميع جوانب القضية بشكلٍ مناسب للغاية لصالح المدعي، في محاولة التأثير على المحكمة. وبدا أنَّ المدعيَ يحقُّ له، حالَ إقرار الشركة، الحصولُ على تعويضٍ عادل ومعقول؛ لكن هذا كان كلَّ شيء. إذ إن الثروة المفترَضة لشركة كبيرة مثل شركة السكك الحديدية هي حقيقةٌ يجب ألا تُعرِّضها للابتزاز، وقد اعتزمَ أن يُخبِر هيئةَ المحلَّفين أنَّ المبالغة في المطالبة بتعويضاتٍ قد تنطوي على ظلمٍ بقصدٍ أو من غير قصد.

ومِن ثَمَّ نهضَ المحلَّفون في مكان جلوسهم داخل القاعة، واستداروا وجهًا لوجه، وكان لديهم القليلُ ليقولوه بعضهم إلى بعض خلال دقيقتين أو ثلاث دقائق من المداوَلة، ثم اتخَذوا قرارًا لصالح المدعي، بتعويضٍ عن الأضرار مقدارُه ٥٠٠ ألف جنيه.

وقد فُوجئَت الشركة إلى حدٍّ ما بضخامةِ هذا التعويض. والحقيقة هي أن قضيتهم لم تُدرَس بصبرٍ وعناية كما ينبغي. حيث إن إجراء تحقيقٍ مناسب في سوابق المدعي ونمط حياته، من قِبَل أيِّ محامٍ متوسِّط الذكاء، كان سيُمكِّنه من عرض مثل هذه الحقائق أمام هيئة المحلَّفين كما كان من شأنه أن يخفض مطالبة التأمين إلى أقلَّ من خُمس المبلغ الذي حصل عليه المدعي، إن لم يكن هذا البحثُ قد يكشف للمحقِّق عن مسارٍ يُقوِّض دعوى المدعي بالكامل من أساسها.

قرر المدعى عليهم، كتجرِبة عشوائية، الانتقالَ إلى محاكمة جديدة في هذه القضية. حيث مُنح حكم مطلق لمحاكمة جديدة، بشرط أن يقدِّموا إلى المحكمة ما يكفي من المال من أجل إجراءات هذه المحاكمة الجديدة، أي لتغطية الأضرار والتكاليف. فلقد حصلَت شركةُ السكك الحديدية في السابق على مزايا هائلةٍ عن طريق التأخير والمماطلة، وكانت تأمُل في أن يجلب الوقتُ بعضَ المزايا في هذه القضية، مثلما حدثَ.

وقد أدَّى النجاح الذي حَظِيَت به تحقيقاتي في مناسباتٍ سابقة في قضية أو اثنتين مماثلتَين لهذه القضية؛ إلى الاستعانة بي من قِبَل الشركة للتحقيق في هذه القضية في الوقت الحالي.

ولم أجد صعوبةً كبيرة في تحقيق هدفي. حيث كان لديَّ العديدُ من القرائن فيما يخصُّ أطرافَ القضية. وكنتُ أشك، من خلال طبيعة القضية، أن الأمر ما هو إلا مؤامرةٌ للاحتيال على الشركة، وكنت مُحقًّا في شكوكي.

إذ لم يتعرَّض المدعي لأيِّ إصابة على الإطلاق. وقد وقعَ الاصطدامُ قبل وصوله للموقع بوقتٍ قصير. واتضحَ أن الحارس الرئيسي للقطار الذي وقع فيه التصادمُ مشاركٌ في عملية النصب. حيث اعترفَ أنه قد أرسَل برقيةً نيابة عن أحد الركَّاب؛ الذي تعرَّض لرضوض إلى حدٍّ ما، إلى صديق في لندن، وكان نصُّ الرسالة (من أجل إبعاد الشك) على النحو التالي: «الاصطدام عند المحطة بي. لم أُصَب بأذًى. كل شيء على ما يُرام.» بناءً على هذا التلميح، تواصلَ المدعي على عجَل مع واحد أو اثنين من رفاقه في مثلِ هذه العمليات الاحتيالية، وهُرِعَ إلى مكان الحادث في عرَبة صغيرة مستأجَرة من أحد الإسطبلات. حيث نزلَ منها على بُعد نحوِ ميل من مكانِ وقوع الحادث، الذي حُدِّد بدقة، في هذه الأثناء. بعد ذلك، قاد

أحدُ زملائه العرَبةَ مبتعدًا، وتراجعَ المدعي إلى حافَة مسار السكة الحديدية، وانتظر فرصةً للتنهُّد والتأوُّه عندما يقترب أحدُ المارة.

وقد وفرَت عودة السيد فريلينج إلى منزله الفرصةَ التي أرادها، حيث رآه المحتالُ المترقِّب؛ وبِناءً عليه، أصدر المدعي الأصواتَ التي سبق وصفُها، والتي جذبَت انتباهَ ذلك الرجل. وبالطبع عَلم الوغدُ أن شركة السكك الحديدية ستُرسل طبيبها كالعادة. وقد استطاعَ أن يتغلَّب على هذه العقبة الصغيرة. حيث كان لديه حُلَفاء، وبمساعدتهم استطاعَ الاستفادة من التكتيكات العديمةِ الضمير للشركة في التعامُل مع الضحايا الحقيقيِّين لتصادم السكك الحديدية. ورأى أنه يُمكن أن يستفيد من زيارة الطبيب أترابيليوس وتحويلها إلى صالحه في القضية بإبلاغها للسيد كابوليت أتيك كنقطة يُمكن أن يستعرض بها في مرافعته. أما الدكتور جونز الذي أرسلَ في استدعائه، فهو شريكٌ في عملية الاحتيال. وينتمي إلى العصابة، وبالطبع كان سينال نصيبَه من الغنائم. والممرضة كانت أيضًا واحدةً منهم. وكان من المخطَّط له أن تحصل عند تقسيم الغنائم على مبلغٍ أكبرَ بكثير مما يُدفَع للممرضات مقابلَ خدماتهن. في الحقيقة كان الأمر برُمته مؤامرة.

ومِن ثَمَّ عرضتُ كلَّ هذه الملابسات أمام محامي الشركة في تقريري. ومع ذلك، فقد تقرَّر، حيث كان لدينا المجموعةُ الكاملة بوضوحٍ في متناول أيدينا، عدم إلقاء القبض عليهم على الفور، ولكن الانتظار ومراقبة سير الأحداث، ومعرفة ما إذا كان التجمُّع التالي للعصابة لغرضٍ مماثل سيكشف لنا عن المزيد من أعضائها. وهذا ما حدثَ بالفعل. فقد اكتشفتُ أنَّ الطبيب كان يُعالج أحد مُسافري السكة الحديدية المتضرِّرين في لانكشاير، بعد نحو شهرين من هذه الأحداث، وأنَّ المدعيَ في القضية الأولى، زار المدعيَ المقصود في القضية الثانية بصفته صديقًا له. وبمجرد أن أصبحت خُططنا جاهزةً للتنفيذ، سبقَتنا قواتُ الشرطة وألقت القبضَ على خمسةٍ من أعضاء هذه العصابة الخطيرة في قضيتَين كبيرتين؛ واحدة بتهمة التزوير، والأخرى تتعلق بسرقة كبرى في شركة السكك الحديدية، حيث أُبلِغَت الشرطة عنها فجأةً من قِبَل شخص حقير يتوق إلى الانتقام من زميلٍ في العصابة؛ لصراعهما على «سيدة» كان الواشي يعيش معها. وقد أُدينَ هؤلاء الرجال الذين أُلقي القبض عليهم، جميعًا بِناءً على أقوى شهادة من خلال الواشي الذي ساعدَ الضباطَ في وضع الفِخاخ عبر إرشاداته، والملابسات المحيطة التي ساعدهم فيها. بينما نجحَ أحدُ الأطراف على حدٍّ علمي — وهو الطبيب — في الهروب. وأعتقد أنه ذهبَ إلى أمريكا.

زلة حلَّاق وطني

قبل بضع سنوات، عُيِّنتُ لمراقبة «المعسكر الآخر» في صراع انتخابي حامي الوطيس. لقد كانت أول مهمة لي من هذا النوع، وقد شحذتُ تفكيري حتى أحصل على أتعابي بشكلٍ عادل، وقد يَسعد القارئُ عندما يعرف أنها كانت أتعابًا سخيَّة. وربما يسعد أيضًا إذا عرَفَ أنني رجلٌ محايد. صحيحٌ أنه في المرة التي أتحدَّث عنها الآن، كنت قد عُيِّنتُ من قِبَل وكيل المرشح الليبرالي؛ لكني، في مرات أخرى لاحقة، قدَّمتُ خدماتٍ، وأعتقد أنها كانت خدماتٍ جيدة، إلى مرشحين محافظين يحملون الآن لقبَ أعضاءٍ في البرلمان. وخلال هذه الانتخابات التي أتحدَّث عنها، وقع العديد من الأحداث الصغيرة المثيرة للاهتمام، على غرار ما يحدث دائمًا في الانتخابات، وأودُّ أن أحكيَ أحدَ تلك الأحداث. وبالمناسبة، لا شيء يُنشِّط البراعة البشرية مثل النضال الانتخابي القوي. فالذكاءُ، والفُكاهة، والمزاح العمَلي اليائس، والحِيَل البارعة، تجتمع كلها في مثلِ هذا الحدث المثير، بحيث تتوارى أحيانًا قواعدُ اللياقة الأخلاقية الصارمة أو يصعب على أعيُن الأطراف المعنيَّة تمييزُها. وأعتقدُ أحيانًا أنني لم أتصرف بشكلٍ لائق تجاه الحلَّاق الذي أُوشكُ على التحدث عنه. بينما في أحيانٍ أخرى أعتقد أنه قد نال ما يستحق. وعلى القارئ أن يقرر أي الاعتقادين يراه صحيحًا في هذا الشأن.

كان جون شافلبوثام يعيش في البلدة «دبليو» وهو حلَّاق يكسب قوتَ يومه؛ وهذا يعني أنه يكسب أو يحصل على المال لشراء طعامٍ شحيح، وملابسَ زهيدة، والكثير من الجعة، وكميات وفيرة من المشروبات الكحولية لاستهلاكها هو والسيدة شافلبوثام؛ وذلك من خلال ممارسة حِرفته، أو «مهنته» كما كان يصفُها، وكان هذا هو مصدرَ رزقِه الوحيد. اشتهر هذا الحلَّاق بأنه يحلق لزبائنه بقدرِ ما يرغبون في الحصول على شعرٍ قصير مقابلَ

بنس واحد — وكان يُؤدِّي المهمة بنصفِ السعر للزبائن المنتظمين — ولقص أيِّ شعر خشن وعنيد لكل منهم، وكانت التعريفة المعلَّقة على عمود بابه، مكتوب عليها ثلاثة بنسات كأجرٍ ثابت للحلاقة. ومع ذلك، لم تكن هذه الصفة الوحيدة التي تمتع بها جون شافلبوثام. فقد كان رجلًا محترمًا صاحبَ مبدأ؛ ويكره الفسادَ للغاية. ولم يُساور أحدًا أيُّ شك في أمانته السياسية على الرغم من الأجواء المضطرِبة التي كانت سائدةً في البلدة «دبليو» في أحلك الأوقات وأصعبها؛ ولنقُل بعد تسوية الحسابات بين «الناخبين الأحرار المستقلِّين» والمرشحين. وقد قيل لي إنَّ جون شافلبوثام لن يطلب رعاية من أحد. وهو لم يأخذ رِشوة قط، ومن يُحاول منحه رشوة فإنه يلقى منه توبيخًا مخزيًا. كان الحلَّاق رجلًا قويَّ البِنية، وعلى الرغم من أن الويسكي أو البيرة ربما قد أضعف قوة تفكيره بعضَ الشيء، وجعل عضلاته مترهِّلةً نوعًا ما، فإنه كانت لديه قوة في حجته تكفي لأن يسيطر على أعنت الرجال بقوة إقناع رهيبة.

وقد اكتسبَ هذا الحلَّاقُ درجةً من التأثير في العمَّال الممتازين الأُمناء بفضلِ ما اشتَهَر عنه من مناهضته للفساد، ولم يكن ليتمتَّع بهذا التأثير لولا تلك السمعةُ الطيبة؛ ولذا أصبح من المهمِّ الحصولُ على دعمه نيابةً عن مرشحنا.

في بداية الحملة الانتخابية كان يُعتقَد أنَّ جون شافلبوثام، بطبيعة الحال، سوف يُصوِّت لمرشحنا؛ لكن هذا كان سوءَ تقدير. إذ يبدو أن شيئًا ما قد قلب تيَّار ميله السياسي. لقد كان مكتوبًا في سجل الاقتراع السابق أنه صوَّت لصالح الليبراليِّين، ولذا كان من المتوقَّع أنه سيُصوِّت لهم مرةً أخرى، ويُحضر معه في اجتماعات الحملة الانتخابية نحوَ ٢٠ من الرفقاء الصادقين الذين يثقون فيه.

لكن على العكس من ذلك، سرعان ما ألمَحَ إلى أنه أصبح يعتقد أنَّ الليبراليين كانوا أسوأَ قليلًا من المحافظين. وهو لا يعتقد أنهم يهتمُّون، ولا واحد منهم، بالعمَّال الفقراء مثلِه أو أيٍّ من زبائنه، لكنهم (الليبراليون والمحافظون) كلَّهم لصوص. إذا توجَّب عليه أن يُصوِّت، فسوف يتأرجح رأيه في الإدلاء بصوته لأي منهما مرةً بعد أخرى. وربما ينبغي أن يميلَ إلى منح صوته هذه المرة لحزب المحافظين؛ لكنه لم يكن يعرف. لم يكن متأكدًا على الإطلاق من كلا الخيارين.

أثارَ عدول هذا الرجل عن قضيتنا بعضَ القلق. وقد وجدنا، بعد التقصي، أن الرأي الذي بدا أنه نصيرٌ له كان أيضًا أوسع نطاقًا عمَّا تصوَّرناه في البداية. لقد تعدَّى الأمرُ دائرةَ التأثير المفترَض للحلَّاق؛ وما زاد الطين بلة أن الحلَّاق، كما قال، اضطُرَّ إلى الجدَلِ في

تبريره الخاصِّ لموقفه، عندما هاجمه أحدُ الزبائن واتهَمه بتغيير انتمائه السياسي، وحثَّه على التمسُّك بانتمائه القديم، وقد جذبَ ذلك الجدلُ زبائنَ آخَرين إلى دكانه، الذي أصبحَ ساحةً للمناظرة. ومِن ثَمَّ اكتسبَ جون شافلبوثام شهرة في الخطابة، بالإضافة إلى صفاته الأخرى.

لم تكن استمالة المؤيدين أو الأنصار من صميم عملي. بل كانت مهمتي تنصب في الاهتمامِ بأمر الخصوم، بيد أنني عُهدَ إليَّ سرًّا الاهتمام بموضوع جون شافلبوثام. استشهدَ الوكيل الرئيسي للمرشح بملاحظةٍ لأحد رجالات الدولة المخضرمين الذين رحلوا عن عالمنا يقول فيها إنَّ لكل رجل ثمنًا يُشترى به، وقد اتفقتُ معه على معرفة ثمن تصويت جون شافلبوثام وتأثيره. حيث توصَّل وكيلنا إلى هذا الرأي قبل يومٍ واحد فقط من الاقتراع، ثم رُفِض من قِبَل شخص أو شخصَين من المطَّلعين على أسرار غرفة اللجنة الرئيسية للحملة الانتخابية، مِمَّن لهم سلطة التحكم في مجريات العملية الانتخابية ومراقبتها.

وفي اليوم التالي بدأ الاقتراع. لقد كان يومًا مليئًا بالإثارة البالغة. حيث وُزِّعت الجعة والمشروبات الروحية والأطعمة على كلِّ مَن يريد من السكان عبر طرَفَي المنافسة. كان السُّكْر هو السِّمةَ العامة الوحيدة للحضارة في تلك البلدة البرلمانية بحُلول الساعة الثانية عشرة ظهرًا في اليوم المحدد لانتخاب أحد خيرة العقول في البلاد لتمثيل تلك البلدة في الهيئة التشريعية لبريطانيا العظمى. كما أُنفِقَت الأموال بغزارةٍ على الرشاوى؛ جرى حشدُ عددٍ كبير من الناخبين، في حانات وفنادق حتى ثَمِلوا. لم يكن بمقدورنا إقناعُ مثل هؤلاء بالتصويت لصالح مرشحنا، أو الذين لم يَجرُءوا على التصويت لسببٍ أو آخَر، لكنهم أذعَنوا طواعيةً لهذه العملية باعتبارِها شِبهَ خدمةٍ لنا. وتعرَّض بعضُ الناخبين لما يُشبه التخدير، وأُعيقوا عن الانصياع لما يُمليه الشعورُ السياسي. ونُقِل بعضُ الرجال إلى خارج المدينة في عربات. حيث توارت كل أشكال الاحترام. وانتشرت كل أشكال الهمجية والرذيلة أيضًا.

لم يكن جون شافلبوثام قد أدلى بصوتِه بعد، وكذلك العديد من أصدقائه. وقد أشادَ به حزبُ المحافظين باعتباره «رجلًا رائعًا وأمينًا وجديرًا ومحترمًا»؛ كما «يتمتع بحكمةٍ سياسيَّة كبيرة، جعلته ينصت إلى صوت العقل»، علاوةً على «كونه شخصًا قد نأى بنفسه عن أخطاء الحياة السياسية، وقررَ أنْ يؤكِّد بنفسه الحقوق التي يمليها عليه ضميره الحي الناضج.»

لقد تزلَّفوا إليه، وتملَّقوه ونافقوه؛ إذ وضعوا نصبَ عينيه كلَّ نوع من الحوافز المستقبَلية والمزايا المؤجَّلة، لكن لم يستطيعوا إقناعَ جون شافلبوثام بأن يُعطيَ صوته، أو حتى يتعهَّد بالتصويت، للمحافظين. وهو لم يُبدِ أيَّ إشارة مميزة أو واضحةٍ على الخضوع لنا، ومع ذلك لوحِظَ أنه لم يكن مسرفًا في انتقاده مرشَّحَنا خلال اليوم السابق، أو خلال يوم الانتخابات، كما كان من قبل.

لقد كنا مستعدِّين لمواجهة عدائه، لكننا لم نكن نعرف ماذا نفعل تجاه حياده. كنا نتوقع أن نجده يتزعم مجموعةً من الناخبين إلى منابر الحملات الانتخابية للمحافظين. وبِناءً على ذلك، تلقَّى جيم سماش، رئيسُ أفضل عصابة من الملاكمين وهي تابعةٌ لنا، تعليماتٍ بأن يتعامل أتباعُه بكياسة مع الحلَّاق وأصدقائه.

كان بعضُ التُّجار الليبراليين في البلدة يشعرون بالبهجة برؤيتهم الحلَّاقَ «مشتَّت الرأي»، وبالمعاملة السيئة التي يَلْقاها عددٌ من مؤيِّديه. وقد كانوا حُرِموا هذه الفرصة للتشفي حتى تلك اللحظة؛ وبعد الكثيرِ من المداولات حول هذا الموضوع، وجَدوا أنه من غير الآمنِ شنُّ هجوم على المسكن المتواضع للمتمرد الموقَّر. وكان من الممكن لهذه الخطوة أن تجلب الخزيَ لبعضٍ من كبار المسئولين لدينا، مثلما قال المحامي الذي وُكِّل على الرغم من أتعابه الباهظة لتقديم المشورة لمرشَّحنا وأصدقائه من وقتٍ لآخرَ عن مقدار التجاوزات التي يمكنهم ارتكابها دون تعريض أنفسهم وأموالهم للخطر. مثلُ هذا الإجراء، الذي أُملي أو طُرِحَ في غرفة اللجنة، قد يتسبب في عواقب وخيمة لمقترحيه، ويورِّط الكثير من المحترمين وكذلك الأشرار المعنيين بالأمر في عقوبة مشتركة.

ونظرًا إلى أننا لم نتمكَّن من الانتقام من الحلَّاق شافلبوثام بسبب عناده أو تغيير قناعاته أو أيِّ شيء كان، فقد عقَدْنا العزمَ على معرفة إذا ما كان غيرَ قابل لأن يُغرى أو تُشترَى ذمتُه. اجتمعتُ أنا والمحامي والوكيل الرئيسي، الذي لم يكن محاميًا، في غرفةٍ صغيرة لمناقشة هذا الأمر، وقرَّرنا في النهاية أنني يجب أن أُقابل الحلَّاق أولًا. وقد فعلت ذلك؛ ولأنني لا أريد أن يتَّهِمني القارئ بالبذاءة، فإنني سأتغافل عن شرحَ ما حدثَ خلال زيارتي. دعنا نقُل ببساطةٍ إنني وجدتُ الحلَّاق يفتقر إلى الكثير من الخصال على نحو يجعله عرضة للانتقاد، وذلك من وجهة نظري كسياسي محنك. وتأكَّدتُ من أن له ثمنًا. ولم يكن الثمن، في نهاية الأمر، باهظًا جدًّا، بالمقارنة مع مدى التأثير الذي كان عليه أن يُحدِثه، وكذلك تصويته. كان الثمن هو ١٠٠ جنيه. ومِن ثَمَّ أُبرِمَت الصفقة معه، مع تحفُّظٍ آمُل أن يُغفَر، بالإضافة إلى الحيلة التي فكَّرت فيها ونفذتُها أيضًا.

واشترطَ الحلَّاقُ شرطًا واحدًا. إذ يجب الحفاظُ على مظهره العامِّ بطريقةٍ ما، واقترحَ عليَّ (ذلك الفتى الماكِر) السبيلَ إلى فعل ذلك. كانت هناك نقطتان في البرنامج السياسي للمرشح، أكد جون شافلبوثام وأصدقاؤه أن الرجل النبيل الجدير بأصواتهم يجب أن يكون مستعدًّا لدعمهما؛ إحدى هاتين النقطتين كانت حقَّ الاقتراع العام، وكانت الأخرى التصويت عن طريق الاقتراع. قال الحلَّاقُ إنه يجب إخبار رجاله بأن المرشح سيتَّفق معهم على حلٍّ وسط يُرضي جميعَ الأطراف. فإذا جرى الترتيبُ لذلك، ودُفِع له مبلغ ١٠٠ جنيه، فإنه سيُوصي أصدقاءَه بمنحِ أصواتهم معه لليبراليين. فوافقتُ، ليس على أن يُقرَّ المرشح بالنقطتين بنفسِه، ولكن يجب على شخصٍ ما نيابةً عنه تقديمُ هذا الشرح إلى شافلبوثام وأتباعه.

عدتُ إلى غرفة اللجنة، وشرحتُ للمحامي والوكيل كيف تصرَّفتُ مع الحلَّاق. فضَحِكوا جميعًا بقدرِ ما أسعفهم الوقتُ للضَّحِك، والذي لم يكن وقتًا طويلًا؛ إذ كانت الدقائقُ ثمينة؛ لأن المخطَّط الذي وضعتُه يتطلب ساعةً ونصف الساعة، أو ربما ساعتين، لتنفيذِه. وعُدتُ إلى الحلَّاق، وطلبتُ منه أن يستقلَّ عربةَ أجرة ويطوفَ المدينة، التي لم تكن كبيرة، ويجمع رفاقه معًا في بيج آند ويسل في شارع باك ستيرز، لمقابلة المرشح الليبرالي.

نظرتُ إلى ساعتي. كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف. وكان من المقرر أن يُغلق بابُ الاقتراع في تمام الرابعة. كان هناك قطارٌ من البلدة «دبليو» إلى البلدة «بي» يبدأ التحرُّكَ في الساعة ١٢:٤٥. ولن يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا لقطعِ تلك المسافة بالقطار. وهناك قطارٌ عائد من البلدة «بي» إلى البلدة «دبليو» في تمام الساعة الثانية بعد الظهر. وسيَفي هذا بالغرض. لقد رتَّبت أيضًا أن المتحدثَ الذي استعنَّا به لمخاطبة الفِكر السياسي للناخبين الأحرار والمستقلين في البلدة «دبليو»، سيحضر إلى حانة بيج آند ويسل نيابةً عن مرشحنا، ويلقي إحدى خُطبه السلسة المتدفِّقة الوجيزة البليغة.

يُمكن لهذا الرجل أن يتحدَّثَ لفترةٍ طويلة من الزمن. وكان عليه أن يتكلَّم حتى تأتيَه «إشارة» ليُنهي خُطبته السلسة الواضحة.

وقد أدَّى المتحدث مهمتَه على أكملِ وجه. ومن منطلق ما أتذكره من تلك الخطبة، أتعجبُ لأنه هجر عمله كمحامٍ، وتخلَّى عن طموح الحصول على لقب عضو البرلمان الذي يُمكن أن يُضاف إلى اسمه في تاريخٍ ما مستقبلًا، ليستقر به الحال — مثلما حدث — للعمل سكرتيرَ إحدى الجمعيات التي يقع مقرُّها شرقَ البورصة الملكية.

خاطبَ المحامي الذي استعنَّا به صحبةَ شافلبوثام بصفتهم رجالًا صادقين ونبلاء، يُمثل التزامهم بالمبدأ أحدَ أبرز نماذج الإصرار السياسي التي صادفها في حياته. وأشادَ بشافلبوثام باعتباره رجلًا اكتسبَ القدرة على التأثير في رفاقه، ذلك التأثير الذي لطالما حلمَ به طاغيةٌ لكن لم يستطع نيلَه، من خلال مسيرة صارمة وغير مرنة من بِناء دعائم الصدق والثقة عبر فترة طويلة. فاحمرَّ وجه شافلبوثام هنا قليلًا؛ ورأى البعضُ في ذلك تواضعًا منه، واعتبروا ذلك اللون القرمزيَّ دليلًا على الخجل. ولا شك أنه كان خَجِلًا، ولكن سواءٌ كان ذلك بدافع التواضع أو بدافع الخزي، فليس هناك ما يدعوني إلى التوضيح بتعليقي على الأمر.

بعد أنْ تحدَّثَ الخطيبُ لبعض الوقت، عادَ مساعدي، وتلقيتُ تنبيهًا بهذه الحقيقة. حصَل الخطيبُ أيضًا على إيماءةٍ وغمزة طفيفة جدًّا مني، عندما ذكر أنه طُلب منه تقديمُ توضيح لهم، لكنه شعر بالإرهاق إلى حد ما مما قدَّمه حتى الآن، ولذلك طلب الإذن منهم بتركِ مهمة التوضيح تلك لصديقه السيد يلولي الذي كان جالسًا إلى جانبه؛ ومِن ثَمَّ، بعد اختتام خطبته، التي تحدَّث فيها كثيرًا عن القمر، والنجوم، ورياح السماء الأربع، والأسد البريطاني، والعلم الذي تحدَّى لألفِ عام، وبناء الصدق والثقة، جلسَ وسط هذا التصفيق الذي لم أسمعه إلا في بيج آند ويسل وفي التجمُّعات الغفيرة.

نهضَ، المحامي، السيد يلولي؛ وقال إنه يؤسِفه أنه ليس لديه بلاغةُ صديقِه الخبير؛ وأيضًا، نظرًا إلى أنه رجلُ أعمالٍ عادي، فإنه سيطرح التوضيح الذي عليه أن يُقدمه بكلماتٍ مقتضبة للغاية. وكانت الحقيقة التي عُهِدَ إليه بالإعلان عنها، وكان يأمل ألَّا يتحدث عنها على الملأ أن مرشحنا على الرغم من أنه لم يستطع الوصول إلى حد الاقتراع العام، فإنَّ ذلك الرجل النبيل الموقَّر والمستنير سيقطع شوطًا طويلًا في هذا الصدد، يفوق بكثير حدود ما يعتزم أن يقطعه ويرى أن من الحكمة أن يصرِّح به على منابر الحملات الانتخابية؛ خشيةَ أن يُثير تحيزات الطبقات الوسطى، ويتسبَّب، بصراحته غير الحكيمة أو غير المدروسة، في عودة خَصمِهم من حزب المحافظين. وقال السيد يلولي ردًّا على أحد الاستفسارات إنه لا يستطيع تحديد المدى الذي سيذهبُ إليه المرشح في تمديد حق الاقتراع العام، ولكن لا شك أنه سيذهب إلى أبعدِ مدى يريده — ولنقُل في نطاقِ ما يتسق مع الدستور البريطاني، المادة ٢، الفقرة ١٠. أما بالنسبة إلى التصويت بالاقتراع — ذلك المبدأ السياسي الأكثر أهمية — فإن المرشح الليبرالي سيُصوت لصالح هذه الدِّرع التي تحمي الناخبَ الفقير النزيه.

ومِن ثَمَّ لعب شافلبوثام دورَه جيدًا؛ ذلك الوغد! حيث أعلن تشكُّكَه قليلًا ما لم يُقدم التوضيح علنًا. فناشدَ السيد يلولي، بشدة، الحسَّ السليم وحُسن التمييز لدى مستمِعيه بعدم تعريض الانتخابات للخطر في هذه اللحظة (حيث يتقدَّم المحافظون بأربعة أصوات على الليبراليين) من خلال طلبٍ غيرِ حصيف. واعتقدَ رجلٌ بسيط القلب أنَّ شافلبوثام كان متشددًا ومُريبًا بعضَ الشيء. وهو يعتقد أنَّ السيد المحترم، السيد يلولي، على حق. فقال شافلبوثام إنه لا يريد أن يُصبح ديكتاتورًا. وهو راضٍ إذا كان الآخرون كذلك. في تلك اللحظة، اقترحتُ أنه من الأفضل لهم ألَّا يستغرقوا وقتًا طويلًا كي يتخذوا قرارهم؛ لأن الساعة الثالثة والرُّبع الآن، وسيُغلَق الاقتراع عند الرابعة. ومِن ثَمَّ اتفَقوا بسرعة على أن شافلبوثام ورجاله، كمجموعة، يجب أن يذهبوا ويُصوتوا لصالح المرشح الليبرالي.

وطلبَ كبيرُ وكلائنا هنا خمسَ دقائق؛ قائلًا إنه يرى ضرورةَ إحضار فرقة موسيقيَّة. كما قرَّر سرًّا أن يُزين الانقلابَ النهائي بمظاهرة تعزف فيها ثلاثُ فِرق. وقرَّر بشكلٍ خاص إحضارَ جيم سماش، وجميع مُلاكميه، وجميع الأشرار المستأجرين الآخَرين، لحراسة فريقنا الجديد، في حالةِ إذا ما كان العدوُّ يشتبه في وجود خدعة، وقرَّر أن يضع قواتِه في معركةٍ ضد مواطنينا غير المحميِّين. فقد نخسر الانتخاباتِ إذا حدَث تأخيرٌ حتى ولو قصير بسبب هجومٍ علينا. كما يعتقد شافلبوثام أنه يُمكن أن تصحَبَهم أيضًا بعضُ الموسيقى.

لم أشعر بأيِّ أسًى على الإطلاق أنه قد جرى الترتيب لذلك. وأردتُ أن أتحدثَ بضع كلماتٍ مع شافلبوثام بمفرده، وأن أتركه يتذوَّق براعتي وذكائي، أو ربما ينبغي أن أقول، يُثير شهيَّته لهذا المذاق.

فخرَجتُ مع الحلَّاق إلى خارج ساحة حانة بيج آند ويسل، وخاطبَني مستفسِرًا: «أظن أن المال بحوزتك بالفعل؟»

أجبته: «أوه، أجل.»

«هل ستُعطينا إياه إذن؟»

فقلت: «كلا؛ لا يُمكنني فعلُ ذلك حتى تُصوت أنت ورجالك، كما تعلم.»

«كيف لي أن أتأكد أنك ستُعطيني إياه بعد ذلك؟ لا داعي لممارسة حِيَل ماكرة، وإلا أقسم بسيدك (يعني المرشح) سوف يُعاني جراءَ ذلك، وأنا متأكدٌ من ذلك مثلما أنا متأكدٌ أن اسمي هو جون شافلبوثام.»

لقد سارت الأمور على نحو أفضل مما كنتُ أتوقعه، أو مما توقعتُ أن تسيرَ عليه خططي. لقد تأكدتُ الآن أن الحلَّاق الوطني قد خُدِع بالفعل، إذا اخترتُ التراجعَ عن

تعهُّدي معه في هذه المرحلة. لقد كان مُلزمًا بالتصويت كما فعل رجاله، أو إذا انسلَّ مبتعدًا فقد جعلهم يُصوتون لنا وانتهى الأمر. وأصبح من المستحيل الآن اختلاقُ عذرٍ آخرَ لأولئك الرجال الشرفاء حقًّا كي يُغيروا قرارهم الجماعي. لكني ما زلت أعتقد أنه سيكون من الأفضل الاستمرارُ مع الحلَّاق حتى النهاية. فقد أردت أن أدعه هو وبعض الناس يرون كيف يمكنني تنفيذ حيلتي بخبث ودهاء.

قلت: «حسنًا، أعتقد أنه يحق لك الوثوقُ بي بقدر ما يجب أن أثق بك، لكني لا أمانع في الوصول معك إلى حلٍّ وسط. وإن كان لا يعنيني إذا ما كنت ستقبل ذلك أم لا. فأنا أثقُ أنَّ هؤلاء الرجال الشرفاءَ سيذهبون ويُصوتون لصالح مرشحنا. فأنت لا يُمكنك منعُ ذلك الآن، أليس كذلك يا سيد شافلبوثام؟ وإذا حاولت إفسادَ لُعبتنا (التي لا أعتقد أنه يُمكنك إفسادُها)، فستصبح صفقتنا مُلغاة، ولا أعتقد أنني مُلزَم بإعطائك أيَّ شيء، سواءٌ نجحت في إفسادها أم لا.»

قد انتهى أمره تقريبًا، على الأقل فيما يخص مسألة ضمان الحصول على المقابل النقدي المتفق عليه، وأن عليه أن يعيرني كامل ثقته؛ لذلك وافقَ على التوصُّل إلى حلٍّ وسط.

قال شافلبوثام: «ماذا تنوي أن تفعل إذن؟» وبينما هو يتكلم علا صوتُ آلات النفخ الموسيقية وسط نسيم الصيف.

كان من الواضح أن الموسيقيِّين قادمون في اتجاه حانة بيج آند ويسل.

كنت خائفًا من تشوُّه اللمسات الأخيرة لخدعتي قليلًا، لذلك قلت على عجَل:

«حسنًا، انظر هنا، هذه ورقة نقدية من فئة ١٠٠ جنيه. سأقسمها إلى نصفَين. وأُعطيك نصفًا الآن.» (توقَّفَ الموسيقيون عن العزف، واضطُرِرت إلى الاستمرار في الحديث لفترةٍ أطولَ قليلًا، حتى تمرَّ اللحظات، وشرَعتُ في القول ببطء): «صباح الغد، في أقرب وقتٍ تُريد، يمكنك القدومُ إلى غرفة اللجنة الرئيسية والسؤال عني، وسأعطيك النصفَ الآخر. ومن الممكن أن نتقابلَ الليلة. الأمر سيَّان، ربما؛ لكن بعض الأشخاص ذَوي العيون الحادة قد يلحَظون الأمر. الآن انتبه، يا شافلبوثام، عليك ألا تُخبر أحدًا عن هذا الاتفاق. فلو كنت مكانك ما أخبرتُ أحدًا على الإطلاق. فهذا سيضرُّك، كما تعلم. عليك أن تكتم الأمر، مثلما نفعل حيال أشد أسرار حياتنا خزيًا. وإياكَ أن تحتسي الخمر الليلة، وإلا فسوف تفشي السر.»

وصلَ الموسيقيون على بُعد أقدام قليلة من باب الحانة. كان الحلَّاق يترقب بقلقٍ بالغ أن أسلمه نصفَ الورقة التي تضمنُ الاتفاق، وأردتُ الآن أن أفعل ذلك دون تأخير.

فقسمنا ورقة من فئة ١٠٠ جنيه، إلى نصفين، وكانت جاهزةً لحيلتي. فسلَّمته النصف، الذي وضعه بسرعةٍ في جيب بنطاله، وتركَني كمن يفرُّ من جلاده، وهو يصيح: «هَلموا يا رجال، واستمعوا إلى الموسيقى.»

تقدَّم الموكبُ وسطَ صيحاتٍ صاخبة تُصِم الآذانَ، وصوتٍ ما يجب أن أُسميه، على سبيل المجاملة، بالموسيقى، وارتباكِ العديد من المشاهدين. وصاحَ شافلبوثام في ابتهاجٍ متكلَّف:

«حسنًا يا رجال؛ إنه رجل متميز. سنمنحه أصواتَنا جميعًا.» وصيحات متنوعة أخرى أكثر تكلفًا.

وهكذا منحَ جون شافلبوثام ورفاقه ٢٣ صوتًا لمرشحنا قبل ١٠ دقائق من غلق صناديقِ الاقتراع عند الساعة الرابعة، دون أيِّ تدخُّل من مُلاكمي المحافظين أو أشرارهم أو أيِّ رجالٍ آخَرين. وقد ثملَ شافلبوثام في تلك الليلة، ولم أرَه ولم أعلم عنه شيئًا إلا في صباح اليوم التالي.

في اليوم التالي، نحو الساعة العاشرة صباحًا، قابلَني جون شافلبوثام في غرفة اللجنة حسَب الترتيب. وفضلتُ حضور المحامي والوكيل معي في هذه المقابلة.

كنت أولَ من تحدَّث، وقلت: «حسنًا يا جون شافلبوثام، أظن أنك قد أتيتَ من أجل النصف الآخر من الورقة النقدية؟»

بدا الحلَّاق الوطني، الذي باع صوتَه ونفوذه، محرجًا ومترددًا بعضَ الشيء.

قلت: «كلُّ شيء على ما يُرام. إنَّ هؤلاء السادة هم المحامون؛ وهم يعرفون كلَّ شيء بخصوص الانتخابات، ويعلمون سِرنا.»

«إنهم يعرفون ما أريد، إذن؟»

فقلت: «أجل، هَا هي.» وسلَّمتُ إليه النصفَ الآخَر من الورقة النقدية الذي طلبه؛ لكن بينما أفعل، قلتُ له: «إنها لن تُفيدك بشيء. إنها ورقة بنك أوف إليجانس، ترويجية وغير حقيقية، كتلك التي يُوزعها رجلٌ آخرُ من مهنتك نفسها في البلدة «بي» في الشارع.»

لا أستطيعُ أن أجزمَ إذا ما كان شافلبوثام قد فحَص النصف الأول من ورقته؛ لكنني تعمدت تقسيمَ الورقة بطريقة معيَّنة (حتى لا أترك الأمر للمصادفة) بحيث يرى عبارة «بنك أوف إليجانس» وليس أكثر من ذلك من عُنوان المؤسسة التي يُزعَم أنها صدَرَت منها، وكان أميًّا جدًّا أو عديم الخبرة في أوراق النقد بحيث إنه لم يكتشف أن الورقة نفسَها لم تكن من النوع الذي صُنِع من أجل بنك أوف إنجلاند.

كان الحلَّاق الوطني مذهولًا. وظل عاجزًا عن الكلام للحظةٍ أو اثنتَين وسط شعور بخيبة الأمل والخزي. وعندما تمالكَ نفسَه جزئيًّا، ضرَبَ الأرض بقدمه، وأقسمَ في جملتين تقريبًا إننا نصابون، وإنه سيرفع دعوى ضدنا بتهمة تداوُلِ نقودٍ مزيَّفة. ووجد محامينا أن هذه مزحةٌ جيدة، ومن النوع الذي يمكن أن يُضحكه؛ ولذلك اعتمادًا على تصوره القانوني، وكردٍّ حاسم، أخبر السيدُ يلولي السيدَ شافلبوثام أنه قد نالَ الجزاء الذي يستحقه، وأنه «من الأفضل أن يُبقي لسانَه في فمه ويصمت»؛ لأنه، في جميع الأحوال، يجب أن يتصرف بأدب في تلك الغرفة، وإلا فسوف يُلقى به في الخارج على يد أحد عمَّالنا الأشداء الموجود بالقرب من هنا، وقد يُقبَض عليه أيضًا بتهمة الرِّشوة.

جزَّ الحلَّاقُ على أسنانه وانصرفَ حانقًا. وأعتقدُ أنه قد منحَ صوته مرتَين لصالح حزب المحافظين بعد ذلك اليوم، بدون أتعابٍ أو مكافأة؛ لكنه فعلَ ذلك بدافع الانتقام من الخوَنة الليبراليين.

رومانسية الحياة الاجتماعية

قبل حوالي أربع سنواتٍ، عاشَ في حي كنتيش تاون، زوجان هما السيد والسيدة جرين.

كان السيد جرين تاجرًا يقوم بأعمال تِجارية في المدينة بالشراكة مع رجلٍ ألماني؛ كما يتمتَّع بدخلٍ جيد من متجر كان يفخر بأن يُديره.

ولم تكن قد مضَت فترةٌ طويلة على ارتباطهما بأواصرِ الزواج المقدَّسة. وعندما تزوَّج، اعتبر نفسه محظوظًا في الحصول على امرأةٍ جميلة ذات شعر بنِّي داكن، يقترب عمرها من الثلاثين عامًا، ذات خصال جيدة. وباتخاذه هذه السيدةَ زوجةً له، عاشَ السيد جرين لمدة ثلاث سنوات في حالة يسيرة ومريحة، فضلًا عن السعادة أو الهناء. ولم يُرزَق الزوجان بأطفال؛ ولكن مع هذا الاستثناء كانت لديهما كلُّ المقومات التي ينبغي أن تُسهِم في السعادة المادية والاجتماعية للبشر.

ربما كان التفاوُت في العمر بين السيد والسيدة جرين ظرفًا أسهَم في الحدِّ من مصادر العاطفة؛ ولكن، كما قال الجميع، لقد مضَيا في حياتهما مبتهِجَين، وجعلهما صفاءُ وهدوءُ حياتهما موضعَ قدرٍ كبير من الحسد.

كانت السيدة جرين ابنةَ كاتِب خاصٍّ يعمل لدى زوجها. وقد تُوفِّيت والدتها في وقتٍ مبكِّر من حياتها، وتُوفِّي والدها عندما كانت في الثامنة عشرة فقط من عمرها. وكان راتبُه في متجر السادة جرين وشناكويذر، لمدَّة طويلة قبل وفاته، وفيرًا للغاية، وربما كان بمقدوره باقتصادٍ معقول أن يُوفِّر منه بِضعَ مئاتٍ من الجنيهات لو رغبَ في ذلك. وكان يجب عليه بالتأكيد أن يتركَ بعضَ المدَّخَرات وراءه في شكلِ تأمين على الحياة، لكنه لم يفعل. لقد عاش كليًّا في مستوًى يستنفد كلَّ إمكانياته المادية أو ما يفوقها إلى حدٍّ ما. ولذا اضطُرَّت ابنتُه، الآنسة طومسون قبل الزواج، أن تعمل لكسب قوتها بعدَ وفاته، حيث عملت مُربية يومية.

وكانت تَجرِبتُها في هذه المهنة، في رأيي، لا تختلف كثيرًا عن تجرِبة الفتيات الأخريات في هذا الموقف، يمكن أن يكون لدى القارئ فكرةٌ دقيقة عنها، ومِن ثَمَّ سأمتنع عن وصفها. قد يكون كافيًا أن نقول إنها كانت تجرِبةً كئيبة وصعبة ومحرجة. وقد اعترفت أن الزجر والإهانات المؤسفة، وأن التأثير المرهق للعمل المتعاقِب قد أخرَسَ وجفَّفَ ينابيعَ العاطفة الأنثوية لديها، وأضفى قدرًا معيَّنًا من الحدَّة على أفكارها، وجعلها، في الواقع، لا تثقُ في العالَم، ومُرتابةً، إن لم تكن أنانيةً وميَّالة إلى المؤامَرة.

وخلالَ طفولتِها، عندما كان والدُها على قيد الحياة، وبعد وفاته، ولكن قبل زواجها، تلقَّت السيدة جرين الكثيرَ من المعاملة اللطيفة من صاحبِ العمل الذي كان يعمل لديه والدُها الراحِل. فقد كان مرتبطًا بكاتِبه طومسون بذلك النوعِ من الارتباط، وإلى ذلك الحدِّ، الذي تُولِّده الخدمة الطويلة والمخلصة في ذهن صاحب العمل.

وعلى سبيل الإنصاف البسيط لوالدِ السيدة جرين، يجب التأكيدُ أنه لم يسرق قط، أو يختلِس، وأنه لم يكن غيرَ مخلصٍ بأدنى درجةٍ للمتجر الذي يعمل فيه، أو لأعضائه.

وقبل وفاته مباشرةً تلقَّى الكاتِبُ وعدًا من سيده، السيد جرين، بأن هيلين الصغيرة لن ينقصها شيءٌ ما دامت على قيدِ الحياة، وهو الوعدُ الذي تحقَّق الوفاءُ به خلالَ مدَّة ما قبلَ الزواج من خلال الاستفسار، كلَّ ثلاثة أشهر، بدقةٍ منهجية، عن أحوالها واحتياجاتها؛ وقد كانت تُجيب عن ذلك بصراحة في جميع المناسبات، وتطلب من التاجر بعضَ المستلزمات من جانبها كلَّ ثلاثة أشهر. إذ تطلب فستانًا أو غطاءَ رأس مرةً، وفي مرة أخرى تطلب سدادَ الإيجار الربع السنَوي لمنزلها، أو قد تطلب أيَّ شيء آخَر. ومِن ثَمَّ يستجيب الرجلُ لطلبها سواءٌ بشراء الغرض نفسه أو بمنحها شيكًا من أجل تلبيةِ ما تريد.

وبهذه الطريقة، ظلَّ الاتصالُ قائمًا منذ يومِ وفاة طومسون حتى يومِ زواج الآنسة طومسون من السيد جرين.

كانت مدَّة التودُّد من قِبَل التاجر قبل الزواج عاديةً للغاية وبعيدةً عن الرومانسية. فكم من الوقت استغرقَ اتخاذُه لقرار أن تكون هيلين الصغيرةُ زوجتَه، أو على الأقل أن تصبح لديها فرصةٌ لذلك، أظنه استغرقَ وقتًا طويلًا؛ لكن مِن المؤكَّد أنه في أحد أيام السداد الربع السنوي — أعني بالنسبة إليها — تلقَّت رسالة، دُعِيَت فيها إلى متجر التاجر. حيث قال في رسالة الدعوة إنه حريصٌ جدًّا على معرفة كيف تسير أمورها، وما هي آمالها المستقبلية؛ في الواقع، قال إنه حريصٌ على الوفاء بالوعد الذي أعطاه لأبيها المتوفَّى من خلالِ السؤال عن أحوالها، وعزمِه، إذا استطاع، على توفير حياةٍ كريمة من أجلها طَوال عمرها.

كانت الجملةُ الأخيرة هي الدليلَ الوحيدَ المقدَّم الذي يدلُّ على نية الرجل الذي يُحسن إليها. وكان هذا الدليل كافيًا. فقد أظهرَ لعقلها الفطِن والمتأمِّل ما قد تتوقَّعُه من التاجر، وهكذا كانت لديها الفرصةُ لتُفكر في وقت فراغها، قبل المقابلة المحددة، في الفرصة المتاحةِ أمامها. لقد وازنَت في عقلها بين جميعِ المزايا الواضحة وجميعِ عيوب أن تُصبح حرمَ السيد جرين.

لم يكن لديها احترامٌ كبير لشخصية السيد جرين، ومع ذلك لم يكن لديها نُفورٌ منه. لقد كان، في الواقع، واحدًا من هؤلاء الرجال المريحين، الهادئي الطِّباع، الذين لا يُثيرون العاطفةَ ولا يُثيرون النفور. لم يكن بأيِّ حال من الأحوال النموذجَ الذي رسمَته في خيالها للزوج. ومع ذلك كيف يُمكنها، وهي التي كانت مربيةً فقيرة طوالَ حياتها، أن تُطلِق لطموحها العِنانَ في هذا الصدَد؟ لقد كانت تأمُل، وفي رأيي أن معظم الشابَّات يأمُلْن هذا، أن تتزوج من رجل وسيم ومثقَّف ومهذَّب؛ ولديه ثَرْوة. كانت ستُصبح راضيةً برجلٍ يتمتع بمكانةٍ جيدة أو آفاقٍ في أيٍّ من المهن ذاتِ الدخل الوافر؛ الجيش أو البحريَّة أو القانون أو حتى الكنيسة. لكنَّ التقدير المجردَ من العاطفة لرسالة السيد جرين بدَّدَ كلَّ أوهامِ مثلِ هذا الطموح. لقد وصَلَت، من خلال تفكير عميق، إلى استنتاج أنها في المقام الأول إذا رفضَت عرض التاجر، فقد تُسيء إليه. ولم تكن هذه مسألةً خطيرة للغاية على أي حال؛ لأنها لم تكن تعتمدُ إلى حدٍّ كبير على معونته لها، ومع ذلك فهي لا تستطيع تحمُّلَ خَسارةِ صديق. قادَها هذا الاستنتاجُ إلى التفكير في الجانب المشرِق من اقتراح السيد جرين. من المؤكَّد أنها ستُصبح، بصفتها السيدة جرين، سيدةَ مؤسَّسةٍ ذات دَخلٍ وافر. ولم يكن سنُّه الكبير يشير إلى احتماليةٍ معقولة لإنجابها طفلًا. ومع ذلك، فقد رأت هذه الفتاةُ، التي أكسَبَتْها تجارِبُ الحياة قوةً، تعويضًا عن عدم وجود احتمال في الإنجاب، الذي هو أملُ المرأة الحقيقي، من خلال التحرُّر من هموم الأم ومشاكلها. وكانت فرصةً للتخلص من الكدح والعناء، والهروب من متاعب عملها الحاليِّ. قالت في نفسِها بعد تفكيرٍ مطوَّل، مقنِعةً نفسَها بالأمر: «قد أفعلُ ما هو أسوأ من أن أُصبح السيدةَ جرين.»

كانت هناك صعوبةٌ واحدة صغيرة؛ فهناك ارتباطٌ سابق. قالت لنفسها: «حسنًا، يجب أن أتخلَّص من إدوارد. وهذا ليس صعبًا جدًّا أيضًا. إذ لا أعتقد أن قلبه سينكسرُ حِيالَ ذلك. فأنا واثقةٌ من أن قلبي لن ينكسرَ إذا ما قطع ارتباطَه بي. كما أنني لا أُومن بالقلوب المنكسرة. وهو لا يُمكنه رفعُ دعوى ضدِّي بسبب الإخلال بوعد الزواج. ومن الجيِّد معرفةُ ذلك. فقد سمعتُ السيد جونز، وهو مُحامٍ، يقول لزوجته على طاولة الشاي في الليلة

الماضية فحَسْب، إن أيَّ رجلٍ لن يستفيد من ذلك أبدًا، وأعتقد أنه قال إنَّ الضرر الواقعَ على الرجل جراءَ ذلك غالبًا ما يُقيَّم بسعر لا يتعدَّى ربُع البِنس. حسنًا، يُمكنني دفعُ هذا السعر ببساطة؛ وإذا رُفِعَت دعوى ضدَّ زوجي بعد أن أتزوجَه. أفترضُ أنه سيُصبح مسئولًا عنها، من بين التِزاماتي الأخرى، لكنني سأدفع هذا المبلغَ من مصروف جيبي.»

وافقَت الآنسة طومسون في قرارة نفسِها على أن تُصبح السيدةَ جرين، واستقرَّت حتى الآن على هذه المضاربة في يانصيب الحياة، لدرجةِ أنها بدَأَت في تخيُّل منزلها المستقبلي، واتخاذِ الترتيبات اللازمة لعُرسِها، في غضون عشرِ دقائق بعد اتخاذِ قرارها.

وكانت توقعاتُ الآنسة طومسون صحيحة. حيث أخبرَها الرجلُ الذي يُحسِن إليها أنه لاحظَ أنها فتاة تعمل بجِدٍّ للغاية. وأنَّ الطريقة التي تكافح بها لتظل تعيش مثل سيدةٍ من خلال دَخلها الخاص، مع القليل من المساعدة التي شعرَ أنه مُلزَم بتقديمها لها، تضفي عليها أعلى تقديرٍ ممكن. وقد لاحظَ سلوكَها؛ ويُمكنه القول إنه قد حَظِيَ بإعجابه. كما أنه لم يسبق له أنْ رأى مِثلَ هذا المزيج من كلِّ الفضائل التي تُشكِّل المرأة الصالحة كما رآها فيها. والآن، هو يأمُل ألا يُخيفَها أو يصدمَها من خلال ما سيقوله لها. فهو يعيشُ وحيدًا في الحياة، مثلما تعلم هي. إذ إنه غيرُ متزوِّج. وهي تعلم أيضًا أنه ليس لديه أختٌ يُمكنها إدارة منزله، وتقديم العناية ووسائل الراحة التي يعتقد أنه قد ينغمس فيها بشكلٍ معقول بعد أن أصبح، كما يمكنه القول، رجلًا ناجحًا للغاية في التجارة.

خلال حديثه، تلعثمَ السيد جرين قليلًا، وأظهر ترددًا غيرَ عادي. وعند هذه النقطة أصبحَ لديه صعوبةٌ أكبرُ في النطق.

ومع ذلك، مضى يقول إن إعجابه بها وإيمانه بفضائلها والظروف الأخرى التي ذكَرها، دفَعَته إلى أن يُقدِّم لها يدَه وقلبه.

تصرَّفَت السيدة مثلما يُمكن لجميع السيدات أن يتصرَّفْن، وأعتقدُ أن يفعلن، في مثل هذه الظروف.

حيث تحدَّثَت حديثًا لطيفًا للغاية، تدرَّبَت عليه عدةَ مرات في حُجرة نومِها، وعلى الرصيف وهي تمرُّ مِن أمام متجر السيد جونز، والذي كانت، كمربية نهارية، معتادة على العبور أمامه، وكذلك في أوقاتٍ وأماكنَ أخرى. وقد استخدَمَت كلمةَ الامتنان كثيرًا خلال حديثها. ثم قالت إنها لا تعرف كيف تقبل عرض الزواج الذي قدَّمه لها، وبعد وقفةٍ ماهرة عن الكلام أو اثنتَين، ختمَت حديثها بأنه لا ضررَ من تأجيل بسيط في الرد (بيني وبين القارئ دعني أُضِفْ، أنها أصبحَت مقتنعةً بعدم وجود احتمال بأنه قد يسحب العرض)،

والتمسَت منه المزيدَ من الوقت للتفكير في عرضه النبيل؛ ليس من أجلها، لأنها لو كانت أنانيةً، لقالت نعَم على الفور؛ ولكن لأنها نادرًا ما شعرَت بأنها مكافئة لهذه المكانة، ولأنَّ هذه النقلة الكبيرة في حياتها تُذهل دماغها الصغيرَ وتُربكها.

كان هذا هو مُجملَ حديث الآنسة طومسون وجوهره.

لقد أخبرتُ القارئ بالفعل أنَّ السيد جرين والآنسة طومسون قد تزوَّجا، ولذا يُمكن لخياله الربطُ في السرد بين المقابلة الأخيرة وتحقيقُ هذا الحدث.

وخلال الحياة شبهِ الرَّتيبة التي عاشها السيد والسيدة جرين، كانت هناك بالطبع لحظاتُ انزعاجٍ صغيرةٌ من حينٍ لآخَر. لا لأنهما تشاجَرا. إذ لا شيءَ من هذا القبيل قد يُفسد سعادتَهما.

كانت المضايقات التي تحدَّثتُ عنها من أبسط الأنواع وأكثرِها اعتياديةً. فقد وعدَهما أحدُ الأصدقاء بالحضور وتناوُل الطعام معهما، ولم يَفِ بهذا الوعد. لم يكن التجار ملتزِمين بالمواعيد في تسليمِ بضائعهم. كان تاجرُ النبيذ يخدع السيدَ جرين من حينٍ لآخَر، مما تسبَّب له في الانزعاج. ولم يكن الخياطُ أو صانع القبعات دقيقًا تمامًا كما ينبغي في تنفيذِ أوامر السيدة جرين. كان هذا النوع من الأشياء هو ما قد يُزعج أحدَهما أو الآخَر.

ثم ظهرَ مصدرُ إزعاجٍ آخرُ في هذا المنزل — من خلال ما أطلَق عليه السيد هنري مايهيو أكبرَ وباءٍ في الحياة — وهو الخادمة السيِّئة. إذ كان لديهم واحدةٌ أو اثنَتان من الخادمات السيِّئات، وقد أبْدَت السيدة جرين هذه الملاحظة عدة مراتٍ، وعلى ما أعتقد، ليست هي وحدها؛ فهذا النوعُ من الملاحظة، من ناحية أخرى، قدَّمَته سيداتٌ أخريات، وأعتقدُ أنها ستُقدم مرةً أخرى؛ حيث إنه كان من المستحيلِ الحصولُ على خادمة جيِّدة.

ومع ذلك، حصَلا على خادمةٍ جيِّدة في نهاية الأمر. كانت فتاةً في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عُمرِها. وكانت جميلةً إلى حدٍّ ما. لقد سمعتُ مَن يصفُها بأنها جميلة. وعندما رأيتُها في النهاية، اعتقدتُ أنها جميلةٌ للغاية. علاوةً على ذلك، لم تكن فتاةً أُميَّة بأيِّ حالٍ من الأحوال. لقد تلقَّت قدرًا لا بأسَ به من التعليم؛ تعليم أفضل بكثيرٍ مما تتلقَّاه الفتيات في مثل مُستواها الاجتماعي عادةً.

ونظرًا إلى الأخلاق الكريمة لهذه الفتاة، حَظِيَت بنصيبٍ كبير من الثقة والاحترام من قِبَل سيدها وسيدتها، وسُمِحَ لها بقدرٍ من السلطة التقديرية في ترتيبات المنزل التي لا تُمنَح أو يُسمَح بها عادةً في مثل هذه الحالات. وفكرَت السيدة جرين، بموافقة زوجها، في توظيف خادمةٍ ثالثة، وترقيةِ هذه الفتاة إلى وظيفةِ وصيفةٍ خاصة لسيدة المنزل.

بعد مرور بعضِ الوقت على طَرْحِ هذه الفكرة، اكتُشِفَت سلسلةٌ جديدة من أسباب الإزعاج في منزل السيد جرين. حيث فُقِدَ عددٌ من المنقولات القيِّمة. وبرَز لغزُ اختفائها كأحدِ أعظم الألغاز البشريَّة الممكِنة. وبدا حلُّه مستحيلًا، وكان انزعاجُ الزوج مفرِطًا. عِلاوةً على ذلك، استخدمَت زوجته أقسى العبارات ضدَّ اللص الذي لم يُقبَض عليه حتى الآن.

وقد اتفق السيد والسيدة جرين على وضع كلِّ أنواع الفِخاخ. ونفَّذا ذلك بالفعل، لكنهما لم ينجَحا في القبض على أيِّ شخص متلبسًا بالجريمة.

سيتخيَّل القارئُ كيف سارت هذه القضية. لم تبدأ الشكوك فقط بأدنى الخادمات الثلاثِ في المنزل وتنتهِ بأعلاهِن، ولكنها طالت إلى كل واحدٍ من الأصدقاء القلائل الذين جاءوا لزيارة السيد أو السيدة جرين، وبعد الفشلِ في اكتشاف الجاني، أو الحصول على ما يشكِّل الأساس لشكٍّ عقلاني ومقبول، بدأَت الزوجةُ في التلميح إلى الوكالات التي تتعاملُ مع الحالات الخارقة للطبيعة. ومع ذلك، فقد كانت دائمًا تُقدِّم تلميحاتِها من هذا النوع إلى زوجها كما تُقدِّم النساءُ أفكارهن من هذا النوع، بإعلانِ أنها ليست مؤمِنةً بالخرافات، ولكن إذا كانت كذلك، فسوف تفعل كذا وكذا.

بعد مدَّة، أدى فقدانُ الساعة الذهبية، التي قدَّمها السيد جرين لزوجته عند زواجهما، مع سلسلةٍ ذهبية، إلى دفع هذا الرجل إلى حدِّ الجنون. إذ ثار للغاية عندما علم الأمرَ لأولِ مرة. وصاح وشتمَ متلفظًا بلغةٍ لم تسمعها زوجتُه من قبلُ تصدرُ عنه ضدَّ مجهول أو مجهولين، وتعهَّد بأشدِّ الانتقام من الجاني. وأعلن أنه إذا كان الجاني هو أخاه أو أختَه (وهو أمرٌ مستحيل، لأنه ليس لديه أخٌ أو أخت)، فسوف يسحقُه أو يشنقه. وقال أيضًا إن أسوأ ما يُميز القضية هو الاستحالةُ الكاملة لتعقُّب اللص. ولم يكن يحبُّ أن يُهزَم بهذه الطريقة. وكان أمرًا مزعجًا للغاية عدمُ معرفة ما حلَّ بهذه الأغراض، ومَن الذي سرقَها. كان مِن الصعب للغاية الشكُّ في جميع الخدم وفي أصدقائهما. هل كان عليه أن يطردَ كلَّ الخدَم؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف سيتأكَّد أنه قد تخلَّص من السارق؟ هل كان ليطردَ جميع أصدقائه من منزله؟ فكيف سيعرفُ أن صديقًا زائفًا هو مَن كان يسرقهما؟ انتهى مع بعض التَّمْتمات، التي، على الرغم من عدم إمكانية ذِكْرها بدقَّة، يُمكن تفسيرُها على أنها إهاناتٌ وتهديدات رهيبة.

وعلى هذا الحال كانت محادثتُه مع زوجته ذاتَ مساء مشتَّتة؛ وفي ختام الهتافِ غيرِ المترابط، نهضَ على قدَمَيه كما لو كان قد توصَّل إلى اكتشافٍ كبير. ثم قال: «يا إلهي، من المؤكَّد أن الجانيَ هو أحدُ الموجودين في المنزل. من المؤكَّد أنها إحدى الخادمات. من المؤكَّد

أنها تلك الفتاةُ التي دلَّلتِها وقرَّبتِها منكِ. تلك الحقيرة ناكرةُ الجميل! إذا اكتشفتُ أنها هي، ويجب أن أكتشفَ ذلك، فسوف يُقبَض عليها، وتُحاكَم، وتُسحَق.»

كانت زوجته مرعوبة. إنَّ فكرةَ مقاضاة هذه الفتاة المسكينة، التي تُشبه حياتَها في كثيرٍ من النواحي حياتها هي شخصيًّا — لكن كانت نقطةُ الاختلاف الرئيسيَّة بينَهما، في الواقع، أنها لم تكن قادرةً على اتخاذ تاجر زوجًا لها — جعلت السيدة جرين تتعاطفُ معها. ومع ذلك، كما قالت لزوجها إنه لو كان على حق، فمن الجحودِ المروِّع أن تسرقها تلك الفتاةُ؛ هذا إن كانت فعَلَت ذلك.

قالت الزوجة: «ولكن لِنَفترِضْ أننا مُخطئان، فيا لقسوة الشُّكوك التي وجَّهْناها إليها!»

صاحَ الزوج: «قسوة! أجَل، إذا كنا مخطئَيْن. ولكن كيف يُمكن أن نكون مخطئَيْن؟»

وراحَ يُعدِّد الملابسات التي فُقِدَ في ظلِّها العديدُ من الأغراض القيِّمة، ليُبينَ أنه لا يُمكن لأي صديقٍ أو أحد المعارف سرقتُها.

كان السطو مستحيلًا بسبب تَكْرار السرقة، وطولِ الفترة الزمنية والمناسبة، وصِغَر حجم الشيء المسروق.

من المؤكَّد، في جميع الأحوال، أنها واحدةٌ أو أكثرُ من الخادمات؛ وشعَر أن مهمته هي التحقيقُ في الأمر بدقَّة. وهو مُصرٌّ على القيام بذلك. كان من واجبهما تجاهَ نفسيهما والخادمات الأُخرَيات وجميع أصدقائهما وللعالَم أن يجري الكشفُ عن هذا اللص.

قالت السيدة جرين إنها لن تسعى لإبلاغ الشرطة. وأن أقصى ما ستفعله في جميع الأحوال هو طردُ الخادمة التي ستَثبتُ عليها الجريمة. كانت القضية بالتأكيد سيئة للغاية، وسيستحقُّ اللصُّ كلَّ ما يُعاقَب به.

تمسَّك الزوجُ بقرارِه. ربما، إذا اعترفَت الحقيرة، فقد يُقرِّر الاستماعَ إلى التماسِها الرحمةَ. وإذا تجرَّأَت تلك الفتاةُ (لأنه أصرَّ على أنها هي) على تكذيب الدليل الذي سيثبتُ ضدَّها، فلن يندم على شنقها.

بهذا النوع من التسرُّع أو الحماقة التي يرتكبُها الرجال في مثلِ هذه الظروف، التفتَ إلى زوجتِه، وقال لها على نحو غيرِ منطقي: «الآن يا عزيزتي هيلين، يجب أن تكتشفي اللصَّ من أجلي. أنا واثقٌ من أنها تلك الفتاة. والآن، اكتشفي أمرها.»

من بين الحُليِّ الصغيرة التي تمتلكُها السيدة جرين سِوارٌ ومدلاة، لم يُسرَق أيٌّ منهما حتى الآن.

وقد شاهدتُهما هي وزوجَها منذ يومين قبل المحادثة الحاليَّة. وقد سُرِقا، كما أوضحتُ بعد ذلك، في اليوم التالي لهذه المحادثة. كان مِن الغريب جدًّا أن يختفيا في ذلك الوقت. من جانبها، كانت ستتَستَّر، إذا استطاعت، على الجاني؛ لكنَّ إلزام زوجها لها لم يترك لها أيَّ سلطةٍ تقديرية. كان عليها أن تكتشف اللِّص. وهي لا تعلم ماذا يجب عليها أن تفعل. فكَّرَت في تفتيش خِزانة ملابس الفتاة؛ أو أن يتولى شرطيٌّ تفتيشها. كلا، هي لن تفعلَ ذلك. كما كانت تأمُل ألا يُبلغ زوجُها الشرطةَ والنيابة. ولذلك اكتفَتْ بإبلاغ السيد جرين بهذه الخَسارة الإضافية، وأوضحَت له أنها عازمةٌ على الاستمرار في مراقبة هذه الفتاة.

كان السيد جرين، عند عودته إلى المنزل، مضطربًا ومنفعلًا. يبدو أن شيئًا ما قد ضايقَه في المدينة. أعتقدُ بسبب الإخطار الذي تلقَّاه متجره في ذلك الصباح ليُبلغ الشركةَ بإفلاس أحد التجَّار المتعاملين معه في هامبورج. أدت هذه الحقيقةُ إلى تعكُّر مِزاج التاجر، وأثارت رغبتَه في الانتقام.

ولذا عندما أبلَغَته زوجتُه بشكوكها، أصرَّ على الفور على تفتيش الفتاة وخزانة ملابسها.

في هذه اللحظة، أو قبل تنفيذ القرار، حضرَ صديقٌ لزيارتهما. ولاحظَ تجهُّمَ وجهِ التاجر، وبدأ في المزاح معه لإخراجه مِن هذه الحالة. حيث أراد الزائرُ معرفةَ ما إذا كانت أخبارُ شركة جرين وشناكويذر ستُنشَر في صحيفة «جازيت» الثلاثاءَ المقبِل، وما الذي يُعكِّر صفوَه. لم يهتمَّ بالإعلان عن خَسارته في المدينة، ووجدَ تفسيرًا كافيًا لخسائره في المنزل.

اقترحَ هذا الصديقُ أن تفتيش خزانة ملابسِ الفتاة ربما هو أمرٌ حكيم؛ لكنه انضمَّ أيضًا إلى التماس الزوجة للرحمة، وقال إنه يعتقد أن الخُطَّة الأفضل ستكون طرْدَ الفتاة وإرسالَها إلى أصدقائها، إذا كان لديها أيٌّ منهم، وأنه لا ينصح بملاحقتها قضائيًّا نظرًا إلى المصاريف والمتاعب المرتبطة بذلك.

ومع ذلك، أوضحَ التاجرُ أسبابَ عدمِ قَبوله للاقتراح الأخير، وقرَّر التفتيش.

استُدعِيَت الخادماتُ الثلاث إلى الغرفة التي يُطلِق عليها السيد جرين اسم مكتبته، واستجوَبَهن في حضور صديقه وزوجته. فنَفَين كلُّهن الجريمةَ بشدة. وذرَفْن الدموع وبكَيْن وطالَبْن بإجراءِ تحقيق. وأبدَين استياءَهن من الاتهامِ باعتباره قاسيًا وغيرَ عادل. وأظهر صبيٌّ يعمل خادمًا ومساعد مطبخ تحدِّيًا، وألْمَح على نحو غامض إلى أن أباه وأمَّه لن يتحمَّلا ذلك، وأنَّ السيد جرين سيتلقَّى شكوى بخصوص الأمر، وأنه لن يمكثَ في المنزل ولو للحظةٍ بعد تفتيش خِزانة ملابسه.

بدأ البحثُ بخِزانة ملابس الصبي ولم يُعثَر فيها على شيء.

ثم بحثوا بعد ذلك في خِزانة ملابس الوصيفة المفضَّلة ذاتِ الجمال الفائق والعِلمِ والخلُق. فعثَروا على واحدةٍ من هذه الحليِّ ونسخة من الأخرى.

أصبحَ غضبُ السيد جرين بلا حدود. وعبثًا، اعترَضَت الفتاة وحاوَلَت تأكيدَ براءتها، وأعلنَت أنَّ هذه حيلةٌ شرِّيرة من بعض الحقراء لتدميرها، أو مؤامرة مروِّعة من قِبَل بعض الأعداء المروِّعين لتشويه سُمعتها وإهانة والديها المسكينَين، حيث دسُّوا الأدلة ضدها.

فأخبرها التاجر أنها إذا اعترفَت بجريمتها فقد يغفر لها. لكنها قالت إنها لن تعترف بجريمة لم ترتكبها.

اعترَضَت السيدة جرين على عِناد الفتاة، ونصَحَتها بأنها من الأفضل أن تعترف بجريمتها الواضحة، مع وجود الأدلة التي كان من المستحيل دَحْضُها ولو للحظةٍ واحدة. فناشدت الفتاةُ تعاطُفَ سيدتها، على أملِ ألَّا تعتقد — على الأقل — أنها مذنبةٌ في الجريمة المنسوبة إليها، على الرغم من أنَّ الأدلة الظاهرة كانت ضدَّها بشدة.

وفي النهاية، تحت ضغط سيلِ الاتهام من جانب هؤلاء المتهمين، جلست الفتاة، التي ما زالت ترفض الاعتراف، على كرسيٍّ، وبنبرةٍ من الألم، ناشَدَت الله أن يشهد أنها لم تأخذ شيئًا لا يخصُّها من أيِّ إنسان.

قال السيد جرين إنَّ هذا كان أكثرَ مما يستطيعُ احتمالَه. مثلُ هذا النفاق المروِّع، مثلُ هذا الرياء الفظيع، مثل هذا التَّجْديف، كان أعنفَ إهانةٍ للسماءِ رآها على الإطلاق. ومِن ثَمَّ أمر الصبيَّ أن يُحضِر شرطيًّا، فذهب الصبيُّ بسرور. ووُضِعت اللِّصة المدانة مسبقًا في عهدة الضابط، ونُقِلت إلى قسم الشرطة، وحُبسَت.

وفي اليوم التالي، عُرِضت أدلة هذه الوقائع أمام قاضي التحقيق في المحكمة الابتدائية. ولم يستطع سمسارُ الرهن الذي رُهن الشيءُ المسروق لديه أن يقول إنَّ السجينة هي تلك السيدةُ التي رهَنَت الشيءَ المسروق لديه؛ لكنه قال إنها كانت في حدود طولِ السجينة وعمرها ومظهرها، لكنه لن يُقسِمَ على ذلك. وقال إنَّ ذاك الشيء رُهن في حوالي الساعة الثانية عشرة صباحًا؛ واستُدعِيَت السيدة جرين للإدلاء بأدلة عن تحرُّكات خادمتها، بهدف إثباتِ أو شكوك سمسار الرهن أو نفيها — حسَب الحالة — فاضطُرَّت إلى القول إنها قد أرسلت إليزا في مهمة بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة من اليوم المشار إليه.

كان المشهد في المحكمة الابتدائية تلك مِن أكثر الأمور المؤلمة التي شهدناها على الإطلاق. فالسجينة لم تحصل على مساعدة محامٍ محترف. فلم يكن هناك محامٍ خبيرٌ للوقوف

بجانبها. كلُّ ما فعلته، وكل ما قالَتْه، هو تَكْرار ما قالته لسيدتها وسيِّدها وصديقِهما في تلك الليلة. وأصرَّت على أنها بريئةٌ براءةَ الذئب من دمِ ابن يعقوب؛ وأنها رُبِّيَت من قِبَل والديها (اللذَين تُبجِّل ذِكْراهما، واللذين أحبَّاها بحنان) على الأمانة؛ وأنها لم ترتكب هذه السرقاتِ مطلقًا. وناشدَت سيدتَها أن تمنح المحكمةَ الدليلَ من خلال معرفتها بشخصيتها العامة. (لم يكن السيد جرين في المحكمة.) فأقرَّت سيدتُها بأنها شخصية جيدة بشكلٍ عام، وأعرَبَت عن حزنها وحزن زوجها لاكتشاف المسروقات في خِزانة ملابسها.

فطرحَ القاضي سؤالًا أو سؤالين على السيدة، التي بدَت وكأنها تكشف فكرة أنَّ أحدَ الخدم الآخرين، أو أحدَ الأصدقاء، كان هو اللِّص؛ أو على الأقل أنَّ المتهَمة ليست السارقةَ، على الرغم من أنها لم تقل الكثيرَ بعبارات واضحة.

من الواضح أن نبرةَ الفتاة وأسلوبَها قد أثَّرا في القاضي باعتقاد أنها ليست في مكانها المناسِب داخل قفص الاتهام أمامه كمُجرمة. ومع ذلك، أشار إلى أن القضية في موضع شكٍّ جدِّيٍّ للغاية، وأنه يجب عليه تأجيلُ البتِّ فيها لمدة أسبوع حتى يُمكِنَ إجراءُ تحقيقاتٍ بهدف الحصول على مزيد من الأدلة بشأنها.

وقد كانت المتهمة تتطلَّع إلى مُثولها أمام المحكمة باعتباره الاختبارَ الذي سيُثبت براءتها. ولم تكن أبدًا تشكُّ للحظةٍ في أن قاضيَ المحكمة سيكشف الغموض، ويُحول تيارَ الشكِّ الزائف بعيدًا عنها. لكنها عندما سمعت الكلماتِ الأخيرةَ تنطلق مِن شِفاه ممثِّل العدالة، وتأكَّدَت من أنها ستُعاد إلى ما يُشبه الزنزانة البغيضة التي حُبِست فيها الليلةَ الماضية، تراجعت معنوياتها. ومِن ثَمَّ أطلقَت صرخةً تُمزق القلب، وأُغمِيَ عليها، ونُقلت من قفص الاتهام فاقدةَ الوعي.

سرَدَت السيدة جرين بعنايةٍ للسيد جرين ما حدث في المحكمة بعد ظهر ذلك اليوم، وبدقةٍ كبيرة، وهو يرتشف نبيذه بعدَ العَشاء. وأثناء قيامها بذلك، أعتقدُ أنه كان شبهَ نادمٍ على تقديم هذه الفتاة المسكينة للمحاكمة، على الرغم من عدم وجود ذرةِ شكٍّ واحدة في ذهنه حول جريمتها. وقال إنه يعتقد أنه من المؤسف أنها لم تعترف. ومع مرور الوقت، واقترابِ موعد النوم، وكان على وشك الدخول في هَدْأةِ الليل — عندما؛ وهذا ما أميلُ إلى الاعتقاد فيه، ترتقي الأفكار الجيدة عند الرجال إلى صدارة تفكيرِهم (أي، ما لم يكن المفكِّر ينتوي ارتكابَ جريمة) — اعترَف الرجلُ بأنه لا يعرف ماذا يفعل؛ إنه يعتقد أن الفتاةَ المسكينة يجب أن يُوكَّل لها محامٍ؛ وأنه سيُقابل محاميَه في الصباح ليُحدثه في الأمر.

وفي صباح اليوم التالي بعد الاطلاع على رسائله، ذهبَ السيد جرين لاستشارة السيد سكراول، محاميه الخاص، بشأن توكيل محامٍ آخرَ في الدفاع عن الفتاة. ولكن، السيد سكراول نظر إلى القضية بمنظورٍ مُغاير. فعندما سمعَ عن حُسن الخلق السابق للمتهَمة؛ وعندما أُبلغَ بإصرارها الجديِّ على براءتها في المنزل؛ وعندما اتضح أن الصبيَّ قد ركض لإحضار الشرطي بمثل هذا الابتهاج، غيرِ المبرَّر، والسرعة؛ وعندما قيل له إن القاضيَ قد تأثَّر بإعلان الفتاة عن براءتها، اقترحَ السيد سكراول على موكله، السيد جرين، أن خادمته ربما تكون ضحيةً لما يُسميه اللصوص «دليلًا مدسوسًا»؛ أي إنَّ أحدَ الخدم (ربما هذا الصبي) قد يكون هو اللصَّ، وربما وضعَ الأشياء في خزانة ملابس الفتاة بغرض توجيه الشكِّ إليها. لم يعتقد السيد جرين أنَّ محاميه ربما يكون على صواب، بسبب الصعوبة التي سيُواجهها الصبيُّ في الوصول إلى الغرفة التي أُخِذَ منها الحُليَّ، لكنَّ محاميَه ردَّ على ذلك وقال إنه لم يُفكِّر كثيرًا في مثلِ هذه الحُجة؛ لأن اللصوص يستطيعون تحين الفرص للحصول على ما يُريدون حتى في ظلِّ أكثرِ الظروف معاكسةً أو صعوبة. ثم أوضحَ المحامي أنَّ السيد جرين نفسه قد يقع في مشاكلَ بشأن هذه المسألة.

دفَعَ العديدُ من الأسباب، ولا سيَّما السبب الأخير، السيدَ سكراول إلى تأييدِ اقتراح موكله، بضرورة تزويدِ الفتاة بالمساعَدة القانونية، على نفقة المدَّعي؛ وعندما جرَت تسويةُ هذه النقطة، أخبرَ السيد جرين محاميَه أنه يعتقد، في نهاية الأمر، أن الفتاة قد عُوقِبَت بما فيه الكفاية، وأنه ليس لديه أيُّ اعتراض على إطلاق سراحها، إذا كان من الممكن ترتيبُ ذلك، على الرغم من أنها فتاة جاحدة وعنيدة؛ لعدم اعترافها بالجريمة.

وافقَ السيد جرين، الذي كان حريصًا إلى حدٍّ ما، دَعْنا لا نقُلْ بخيلًا، مع تردُّدٍ كبير، على إعطاء محاميه سلطةَ اتخاذ الإجراءات التي قد يراها ضرورية، إما لمتابعةِ الدعوى أو الانسحاب منها، للدفاع عن الفتاة، ولكشف غموض القضية، وترتيبها إن أمكَن، أو إن وجَد أن هذه الخطوة مناسبة.

ومِن ثَمَّ أرسلَ محامي السيد جرين، في هذه المرحلة من القضية، كي يستعينَ بي. فحصلتُ على إذن لمرافقةِ المحامي الذي وُكِّل للدفاع عن الفتاة (بصفتي كاتِبَه) إلى مقر الاحتجاز، حيث أجرينا مقابلةً مع الفتاة المسكينة. وقد كان من أكثر المشاهد التي مررتُ بها إيلامًا. حيث أثَّرت الفتاةُ في مسئولة السجن والسجَّانات، اللواتي اعتَدْنَ على التعامُل بانتظام مع الجريمة، ومِن ثَمَّ لم يكنَّ يؤمِنَّ بسرعة بأيِّ نظرية عن براءة السجين؛ وبرغم

ذلك كنَّ يعتقدن أن هذه الفتاة بريئةٌ تمامًا، ومن واقع خبرتي بالطبيعة البشرية، تيقَّنتُ على الفور أنها بريئة.

كان واضحًا لي، مثلما أخبرتُ محاميَها، أنَّ هناك مَن دسَّ الأدلة ضدها.

لكنه عندما خرجَ من مكان الاحتجاز، مثل وغدٍ حقير، قال لي: «يجب ألا تدَعَ القضية تنتهي بسرعة؛ لأنه يجب أن نحصل أنا وأنت على المزيد من الرِّبح منها.» وبصعوبة منعتُ نفسي من الإمساك بالرجل من رقبته وخنقِه. ومع ذلك، كبحتُ اشمئزازي وسخطي، ولعبتُ معه دور المنافق بما يكفي للإيحاء بأنه سيكون أمرًا جيدًا إذا تمكَّنَّا من إخراجها في الحال. وجادلتُ بأننا سنحوز قدرًا أوفر من الفضل والتقدير مما لو حكَم القاضي على الفتاة بعد عدة جلسات للمحاكمة، وأخرجها محامي جناياتٍ من محكمة الجنايات المركزية، ونُسِب إليه الفضلُ كلُّه. أما بالنسبة إلى التكاليف، فقد اقترحتُ أنه على الأرجح يمكن إجراء بعض الترتيبات للحصول على مبلغ ثابت، حتى يتمكنَ من كسب المبلغ نفسِه الذي كان سيحصل عليه من خلال عدة جلساتِ محاكَمة في جلسة محاكمة واحدة. أقنعَت هذه الحججُ المحاميَ، وسرعان ما اتفقَ معي في الاعتقاد بأنه من الأفضل أن نُنهي القضية بأسرعِ ما يمكن.

بِناءً على اقتراح المحامي الخاص للسيد جرين، ذهبتُ لمقابلته في منزله، بهدف التشاور معه مباشرةً بشأن وقائع هذه القضية.

قادتني إحدى الخادماتِ على الفور إلى المكتبة، حيث وجدتُ التاجر وزوجته يتحدَّثان؛ وقادني السيد جرين إلى غرفة الاستقبال الرسمية، من أجل توضيحِ الأمر لي أو للتأثير عليَّ، حسَبما أظن.

ترَكْنا السيدة جرين في المكتبة. وبينما بدأ السيد جرين، في غرفة الاستقبال الرسمية، يَرْوي لي اقتناعَه بأنَّ الفتاة مُدانة، استقرَّت عيني على بيانو رائع، كان غِطاؤه مغلقًا، واكتشفتُ بعد ذلك أنه مغلقٌ بمِفتاح، ولكن كان محشورًا فيه ما اعتقدتُ أنه طرَفُ رسالة.

قلتُ لنفسي: هذا دليلٌ ما. هناك شيءٌ مخبَّأ في ذلك البيانو، وحسبما أظن فإنَّ هذا بغرض تقديمه لسمسار الرهن، أو لتاجر الحُليِّ، فيما بعد. في مخيلتي، ميَّزتُ على نحو طفيف، من خلال الغطاء الخشبي للبيانو، شيئًا ملفوفًا في ذلك الظرف الذي كان طرَفٌ منه مرئيًّا على نحو واضح.

لم أغامر بالكشف عن أفكاري دفعةً واحدة للسيد جرين. إذ لم أكن أعرف تأثيرَ أيِّ مفاجأة عليه. ولم أكن واثقًا أنه قد لا يُفسد خطتي ببعض الحماقة من جانبه، إذا قدَّم تفسيرًا فجأة، أو ما إلى ذلك. تركتُه يتكلم، وتكلمت؛ لكنني مع ذلك كنتُ أفكر.

وهكذا استغرقتُ في التفكير بينما كنَّا نتجاذب أطراف الحديث. هل يمكن أن يكون هذا طرَفَ مظروف، أم أنه قطعة عادية من الورق؟ قد يكون دليلًا أو لا يكون. قد لا يكون شيئًا، في نهاية الأمر، سِوى قطعةِ ورقٍ وقَعَت داخِلَه بمحض المصادفة؛ أو ربما أوراق تخصُّ السيدة جرين، وضَعَتها هناك من غير قصد.

كلا، لقد كان دليلًا. لا يمكن أن تكون حِلْية. قد تكون رسالة. كنت مرتبكًا ومتشوقًا، بل، اسمحوا لي أن أعترف بذلك، كنت لا أطيق صبرًا على فتحِ غطاء ذلك البيانو.

لكن السيد جرين قد يسعى إلى تدمير الدليل، من أجل إثبات ظنِّه، إذا أدى الدليل، مثلما لم يكن لديَّ أدنى شكٍّ، إلى اتجاهٍ معاكس لما اتخذَتْه شكوكُه؟

في نهاية المقابلة، دارت بيننا هذه المحادثة؛ حيث سألتُه: «هل يُمكنك يا سيدي أن تتحمَّل أيَّ كشفٍ مفاجئ بخصوص هذا الأمر، الذي ربما يُظهر أنك مخطئٌ في شكوكك؟»

قال السيد جرين: «يا سيدي، أنا رجل أمينٌ ومستقيم. لا أعتقدُ أنني مخطئ؛ ولكن إذا كنتَ تستطيع أن تُثبت أنني مخطئ، فسأقرُّ بذلك، وسأُقدِّم كلَّ تعويض في استطاعتي.»

«لا شكَّ يا سيدي؛ لكن يجب أن تعذرني على حذَري. عندما يُواجه السادةُ أمرًا مفاجئًا فإنهم لا يكونون دائمًا حكيمين كما هم في المناسبات العادية، ومن المؤكَّد أنه أمر غير سارٍّ أن تشعر بأنك أصبحتَ طرَفًا في معاقبةِ شخص بريء على جريمة ارتكبها سارقٌ آخر.»

وقبل ذلك كان السيد جرين قد فكَّر بجدِّية في احتمالية أن يكون قد ظلَم خادمته وجرَحها. كان قد عزَّى نفسه بفكرةِ أنه، كما قد تصرف بحُسن نية، لا يمكن أن يلحَق به أيُّ لوم كبير؛ وإذا حدثَ هذا الاكتشاف، فقد عقَدَ العزم على متابعة المسار المشرِّف لإعادة الفتاة المجروحة، بقدر استطاعته، إلى مكانتها في المجتمَع. وقد أكد لي مرةً أخرى هذه الحقيقة.

تابعتُ قائلًا: «إذن ستمنحني ثقتَك بالكامل خلال هذا التحقيق. وسأطلب منك السماحَ لي بالبحث في هذا المنزل من أعلى إلى أسفل، وفي كل زاوية وركن.»

لم يُوافق السيد جرين على ذلك. فقد فاجأتُه إلى حدٍّ ما، وعرَّضتُه للحرج.

فقال: «لا أعتقد أن ذلك أمرٌ ضروري.»

قلت: «أعتقدُ أنه ضروري، وأنت تعلم أنَّ لديَّ الكثيرَ من الخبرة. أخشى أنه قد مُنِحَ الوقتُ الكافي بالفعل لتدمير بعضِ آثار الجريمة؛ لكنني متأكد من أن كل ساعةٍ تمر، تُسهِّل تدميرَ ما تبقى من آثارها.»

قال التاجر: «إذن، كما تشاء يا سيدي.»

«إذن سأطلب منك مرةً أخرى أن تُحصِّن نفسك ضدَّ اكتشاف أي شيء يُثير الدهشة، وأن تتصرف بحرص، كما أُناشدك ألَّا تُصعِّد الأحداث في وجودي. إذا كان لا بد من مطاردة الصبي أو خادمتك الأخرى، نتيجةَ تحقيقاتي، هذا المساء، فسوف أطلب منك عدمَ اتخاذ أيِّ خطوات لعقوبته أو عقوبتها، إلا بعد أن يصبح لديك وقتٌ للتفكير. وفي غضون ذلك، سأعتني بالبراهين.»

«اتفقنا إذن، يا سيدي.»

«أقترح أن نبدأ البحث في هذه الغرفة، بما أننا موجودون فيها.»

«ليكن يا سيدي.»

توجَّهتُ نحو البيانو، وكنت على وشك رفع الغطاء، الذي بالطبع لم يستجِبْ لمحاولتي.

«هل لديك مِفتاحُ هذا البيانو؟»

«كلا؛ إنه مع زوجتي. من الأفضل أن تطلبه من السيدة جرين يا سيدي.»

ومِن ثَمَّ استدعى زوجته.

وقال: «عزيزتي، إنَّ هذا الرجل هو محققٌ خاص. وقد أخبرتُه أننا حريصون على إجراء تحقيقٍ كامل، وسيكون من دواعي سرورنا حقًّا إذا ثبَت أن خادمتك المحتجزةَ بريئة، رغم أنني أشعر أن ذلك مستحيلٌ تمامًا. ومع ذلك هو يعتقد أنه سيتمكَّن من الحصول على بعض الأدلة التي من شأنها تحويلُ الشك عن إليزا إلى أحد الخدم الآخرين.»

قالت السيدة جرين: «حسنًا، إنه لأمرٌ مزعج أن تُقتحَم خصوصية منزل المرء بهذه الطريقة؛ لكنني أظن أن ذلك أمرٌ لا يمكن تجنبُه.»

أومأتُ برأسي موافقًا على كلام السيدة.

ثم سألتُها: «هل تسمحين بإعطائي مِفتاحَ هذا البيانو؟»

قالت في تردُّد: «البيانو يا سيدي! إنه البيانو خاصتي. لماذا تريد مِفتاحه؟» بينما امتقعَ وجهُها بطريقةٍ أخبرَتني أنني قد اكتشفتُ اللص الحقيقي ليتضحَ أنه زوجةُ التاجر.

تواردَت الأفكارُ في ذهني بالسرعة التي تُنقَل بها الرسائل عبر أسلاك التليغراف المعلَّقة فوقَ أسطح المنازل، أو داخل الأرض الصُّلبة، أو تحت سطح البحر. كان هذا مثالًا صغيرًا غريبًا على هوس السرقة. كان التكتُّم المَرَضيُّ لدى الزوجةِ المسكينة، أو الولَعُ بالاستحواذ، أو أي جزء من الدماغ قد يعتقد مختص علم فراسة الدِّماغ أن له تأثيرًا في سلوك المرء، مُفْرطًا على نحو كبير. أشفقتُ عليها. هل يمكنني التخلي عن البحث عند هذه النقطة، وتركُ جريمة

السيدة المسكينة لغزًا أو حقيقةً غيرَ مكتشَفة؟ كلا؛ هذا لن يكون منصفًا. إنها قد سمحَت، على الأقل، بتوجيه اتهامٍ إلى الخادمة، موكلتي. كنت أعرف عُمق دهاءِ المرأة. وأعرف إلى أي مدًى يتشبَّث المرءُ بعنادٍ بالمظاهر الخارجية للاحترام والفضيلة. كما أعرف كيف يُصبح المجرم منعدمَ الضمير بشكلٍ فظيع عند محاصرته، مع وجود فرصة لديه لتضليل العدالة. إنَّ أثر التهاون وعدم اليقظة من جانبي سيكون وخيمًا بالنسبة إلى موكلتي البريئة، إذ قد تُزوِّر سيدتُها السابقة، التي هي اللصُّ الحقيقي، أدلةً أخرى تؤدي لإدانة الفتاة البريئة.

لماذا أُجادل مع نفسي هكذا؟ ألا ترتجف البراءة وتفقد تماسُكَها تحت وطأة أبعد اشتباهٍ في ارتكاب جريمة؟ ألا تُحافظ الإدانة، كقاعدة عامة، على تماسكها، وتنظر بوقاحةٍ إلى مخاطرِ موقفها؟ أجل. عادةً ما أرى في الارتباك مؤشرًا، ليس على الإدانة، بل على البراءة. لكن في حالة السيدة جرين كان هناك ثباتٌ مع الارتباك. كان هناك تعبيرٌ لا أستطيع وصفه بالكلمات. كان هناك خوفٌ واضح مني في محاولةِ إخفاء هذا الخوف. كان هناك حَدْس لا يُمكن وصفه، اعتملَ في ذهني كدليلٍ أخلاقي.

«لن أضغط من أجل الحصول على المفتاح يا سيدتي، إذا كنتِ لا ترغبين في السماح لي بالحصول عليه.»

«أنا معترضةٌ فقط يا سيدي؛ لأنني أعتقد أنه طلبٌ وقح.»

فأجبتُ: «سيدتي، لا يمكن أن يكون أيُّ طلب وقحًا ما دام تُبرِّره حقيقةُ أنني أجمع الأدلة لإنقاذ إنسان بريء من الأذى والعار.»

«لن أُعطيَك مفتاح البيانو خاصتي.»

«مرةً أخرى يا سيدتي، أقول إنني لن أضغطَ عليكِ من أجل ذلك؛ لكنني سأُصرح، في حضور زوجك، أنني أعتقد أنَّ من الضروري معرفةُ ما تحتويه قطعةُ الأثاث هذه.»

كان السيد جرين مصعوقًا ومذهولًا إلى حافة الجنون. وبرقَت فكرةٌ في ذهنه، لم أَعِها آنَذاك. فقد تذكَّر، كما أخبرني بعد ذلك، أنه قبل أقلَّ مِن أسبوع، وعند دخوله غرفة الاستقبال الرسمية، من أجل مقابلة زوجته، عند عودته من المدينة قبل نصف ساعةٍ من الوقت الذي اعتاد العودة فيه، وجَدها جالسةً بجانب البيانو. لكنها أغلقت غطاءه فجأةً عندما فُتِح الباب.

لقد مرت دقيقةٌ أو دقيقتان بعد أن تذكَّر تلك الواقعة قبل أن يستعيدَ تركيزه بما يكفي ليتكلم.

كان أولُ سؤال صامت دار في خَلَدِه هو كيف يُنقذ نفسه من الخزي من خلال التغطية على فضيحة زوجته؛ لكن هذه الرغبة امتزجَت بالسخط والاشمئزاز من أنها، على الرغم من توفير كل متطلباتها — حتى فيما يتعلق بمصروف جيبها — تجرؤ على سرقة منزلها. وقال لنفسه إنَّ هذا جنونٌ إجرامي. ومع ذلك قرَّر أن يُخفِيَ هذه الأفكارَ، ويُربكني إذا استطاع ذلك.

«أنا لا أفهم لماذا تريد أن تفتح بيانو زوجتي، أو لماذا ترغب في فحص قطعة الورق، إذا كانت قطعةً من الورق، كما ترى، وهو الأمر الذي لستُ متأكدًا منه.»

فقلتُ بحزم: «يا سيد جرين، أنا أُصِر على فتح هذا البيانو. وسأكسر غِطاءَه إذا لم أحصل على المفتاح. لقد وُضِعَت فيَّ ثقةٌ لا تَعدِلُها ثقة، وحُمِّلت أمانةً لا تَعدِلُها أمانة. من عادتي يا سيدي أن أقوم بواجبي؛ وفي هذه القضية الحاليَّة، لن يدفَعَني أيُّ اعتبار على وجه الأرض للربح أو المكافأة إلى التخلِّي عن أدنى دليلٍ لتبرئة المرأة التي يمكن القولُ إن مصيرها بين يدَي.»

كان الوضعُ محرجًا للغاية لجميع الأطراف.

واعتقدتُ أن الخُطة الأفضل هي أن أتصرَّف بنفسي، ومِن ثَمَّ أُعفي السيدة جرين من المزيد من الرفض لمنحي المفتاحَ، ومِن ثَمَّ أخذتُ أداة صغيرة من جيبي، قويةً بما يكفي لكسر القفل. وقد فعلت هذا، بينما لم يجرؤ الزوجُ ولا الزوجة على مقاومتي.

عندما رفعتُ الغِطاء، كانت هناك رسالةٌ بالداخل. فنظرَت إليها السيدة جرين، في محاولةٍ منها لالتقاطها من فوق لوحةِ مفاتيح البيانو.

كنتُ قد توقعت مثلَ هذا الفِعل من جانبها، ولمَّا شعرتُ بمقاومة ذراعي اليمنى، أخذتُها بيدي اليسرى.

«هذه رسالةٌ تخصني يا سيدي.»

«ربما يا سيدتي؛ لكن يجب أن أعرف ما تضمَّنَته.»

فسألَت زوجها: «هل ستسمح له بذلك؟»

قال: «إنَّ رسائل زوجتي تخصُّني أنا. ولا تخصك بالتأكيد، لكنها تخصني.»

«لا أُنازع مطلقًا يا سيدي، حول مَن تخصُّه الرسالة؛ لكن محتواها، حسَبما أظن، يخصُّ شابةً تعيسة تقبع الآن في السجن بتهمةٍ أنا واثق من أنها بريئةٌ منها مثلما أنت بريء تمامًا.»

قالت الزوجة: «لا أعرف كيف ستُفيدك هذه الرسالة في معرفة الحقيقة.»

قلت: «ولا أنا كذلك، بكلِّ صراحة، لكنني أعتقد أن هذه الرسالةَ ستُساعدني في حل لغز القضية برُمَّته.»

وبدا لي مرةً أخرى أنني يجب أن أُخرِج التاجر وزوجته من الحَرج اللحظي من خلال بعضِ التصرفات من جانبي.

فقلتُ: «سأحتفظ بهذه الرسالة حتى يوم الإثنين المقبل، حيث سأسلِّمها، إذا كنتما تصران، إلى القاضي؛ ولكني أعتقد، بكل صرامة، أنني يجب أن أقرَأها في الحال، وإذا كانت ذاتَ صلة بالقضية، فسأسلِّمها إلى محامي السجينة.»

قال السيد جرين: «لا أسمح لك بذلك، عليك أن تُسلمها لي.»

كما طلبت زوجته ذلك بشدة.

«مع كل الاحترام لك يا سيدي، ولكِ يا سيدتي، سأتحمل مسئولية احتجازها.»

عندئذٍ طلبَ الزوجُ، الذي كان طَوال هذا الوقت فريسةً لمشاعرَ مؤلمةٍ للغاية، من زوجته أن تتركَنا وتُغادر الغرفة، قائلًا إنه سيتفاهم معي؛ وبعد تردُّد كبير، فعلت ذلك. وبينما كانت تُغادر الغرفة، اعتقدتُ أنه يُمكنني أن أتتبَّع بوضوح، في ملامحِ ذلك الوجه الجميل، الإشاراتِ الخارجيةَ لعقلٍ يعتصره ألم الجريمة.

عندما غادرَت، جلستُ على كرسي، وفعل السيد جرين الشيء نفسَه.

ومِن ثَمَّ قلتُ: «إنَّ هذه الرسالة يا سيدي، قد تكون رسالةً عادية، ولا تحتوي على أيِّ شيء يمكن أن يُؤثر على وضع السجينة التعيسة؛ وإذا كان الأمرُ كذلك، فسأكون مستعدًّا تمامًا لتسليمها إليك في الحال، لكني سأطلب الآن، إذا سمحت، من قبيل الكِياسة، أن تسمح لي بقراءتها.»

«إنها رسالة تخصُّ زوجتي يا سيدي!»

«أجل، إنها رسالة تخصُّ زوجتك، ولا يُمكنني أن أَعِدَك بالتكتُّم على محتواها إلا بعد أن أعرفَ ما تحويه. وإذا لم يكن محتواها ضروريًّا لمصلحة السجينة، ولا يتطلب الأمرُ استخدامَه، فإنه مهما كان السرُّ الذي تحويه هذه الرسالة، فلن تحصل أيُّ نفسٍ حية على أدنى فكرةٍ عن هذا السرِّ مني. ولكن، من ناحية أخرى، إذا كان المحتوى سيُقدم صلة مادية في أدلة براءة تلك الفتاة التعيسة، فلن تدفعَني أيُّ اعتبارات، أو مراعاةٍ لموقفك أو ظروفك أو سعادتك، إلى الامتناع عن استخدامها من أجل إطلاق سراح الفتاة.»

قال الزوج في رعب: «أعتقد أنه يجب أن تدَعَني أقرَؤها أولًا.»

«يجب أن تسمحَ لي بعكس ترتيب الاطلاع. إذ يجب أن أقرأَها أنا أولًا.»

نهضَ السيد جرين وراحَ يجوب الغرفة جيئة وذهابًا. فجلست أفكر وأراقبه. وفي النهاية استدار وقال:

«أعلم أنه يمكنني الاعتمادُ على حكمك يا سيدي.» ثم جلسَ بجانبي. فقرأتُ الرسالة بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليسمَعها، لكن لم أترك أيَّ جملة أو كلمة تمر عبر ثقب المفتاح في باب غرفة الاستقبال الرسمية.

قرَّبنا كرسيَّينا بينما كنتُ أقرأ الرسالة. كانت الرسالة موجَّهةً إلى زوجة التاجر بخط يدِ الطرف الذي كان قلبُها معلَّقًا به، والذي لم ينفصل عنه قلبُها قط. لقد سعَت عبَثًا إلى فِطام عواطفها عنه بمجرد أن تلقَّت عرض الزواج من زوجها الحالي؛ لكنها لم تنجح في ذلك. لقد جعلتها التجرِبةُ الصارمة، فاترةً، متشكِّكة، حذِرة، لكنْ ظلَّ هناك في صدرها ما يكفي من عنصر الحبِّ البشري الذي يدفعها إلى الحنين إلى ارتباط أيامها الأكثرِ نقاءً. وهي لم تستطع لفترة طويلة أن تستجمع شجاعتها كي تخبر الحبيب بأنها ستتزوَّج. وعندما فعلَت ذلك، استقبلها بما أسماه «الاستغناء الفلسفي». فقد أعلن أنه سيستغني عنها، ولا شك أنه قد فعل، وتركها لما أسماه وتصوَّر أنه سيُصبح «زواجًا أكثرَ إرضاءً». ومع ذلك، حدث اتفاقٌ بين العاشقَيْن على أن العلاقة بينهما يجب أن تستمرَّ على أساس الصداقة؛ لكن بسبب المشاعر الكبيرة الخالصة، ونظرًا إلى كونهما في الواقع صاحِبَي طبيعة متدنِّية إلى حدٍّ ما، لم يستطيعا الإبقاءَ على تلك العلاقة الفاترة التي ربما تجد حتى العقولُ الواعية أنه ليس من السهل الحفاظُ على عَفافها الفاتر. حيث تحوَّل ارتباطُ الصداقة إلى حبٍّ محرَّم قبل أن يأخذ التاجرُ السيدةَ إلى الكنيسة ليعقد القِران. ومِن ثَمَّ استمرَّت تلك العلاقة المحرَّمة بعد الزواج. وأصابَ الحظُّ السيئ الحبيبَ بمجرد أن نَعِمَت المرأة التي كان سيتزوجها بالحظِّ الجيد، والتي أصبحَت زوجةً لشخص آخر. فطلبَ منها مساعدتَه من نقودها. وقد فعلت ذلك بكل النقود التي أمكَنها الحصولُ عليها من زوجها؛ والتي ادَّخرَتها من النفقات المنزلية. إلا أن المطالب من الزوجة من هذا المصدر زادت كما زادت حُريتها أو رغبتها في إشباعها. وقد أنفقَ العشيقُ المالَ، الذي حصل عليه بسهولة ودون وجهِ حق من عشيقته، بمنتهى السرعة. وما كان يُطلَب في البداية مع نبرات التوسُّل المتواضع، أصبحَ يُطلَب تحت التهديد بالفضيحة.

وقد حملَت الرسالةُ المأخوذة من البيانو طلبًا من العشيق بالحصول على مبلغ ١٠ جنيهات، حتى يتمكنَ من سداد ما أطلق عليه «دَيْن شرف» في غضون ثلاثة أيام. وقال إنه يجب أن يحصل على المال، وسيحصل عليه بأيِّ شكل. كان لدى ذلك الحقير

وقاحةٌ وحشية ليقول لهذه المرأة التعيسة التي يسيطر عليها: «إنَّ لديكِ الكثيرَ لتخسريه بسبب الفضيحة أكثر مما لديَّ لأخسرَه؛ واحذري، إذا لم تُعطيني المال.» وهو المبلغ الذي لم تستطع المرأةُ البائسة الحصولَ عليه. حيث كانت قد أعطته مبلغًا مماثلًا قبل نحوِ أسبوع، وكانت مَطالبه منها مؤخرًا قد أصبحَت ثقيلة للغاية لدرجة أنها كانت في حالةِ تخوُّف يومي من اكتشاف زوجها لسوء تصرفها في الأموال التي يُعطيها لها لتسيير شئون منزله. فالفواتير التي زعمَت أنها سددتها ظلت غيرَ مسدَّدةٍ بالفعل. كما اختلست عدةَ مئات من الجنيهات بدلًا من إنفاقها على النحو المشروع الذي اتفقَت مع زوجها عليه. ومِن ثَمَّ، فقد أعطته في هذه المرة، كما فعلت في بعض المرات الأخرى عندما كانت في وضعٍ مشابه، بعضَ مقتنياتها التي يمكن بواسطتها، من خلال سمسار الرهن، أو بطريقةٍ ما من هذا القبيل، جمعُ الأموال التي يحتاجها لأغراضه غير الشريفة؛ ويستخلص مرةً أخرى، من خلال قبضته الإجرامية على عقل الزوجة وضميرها وجسدها، الأموالَ التي يُنفقها في الفجور. فقد أعطت الزوجةُ الساعةَ والسلسلة وبعض الحُليِّ الأخرى إلى عشيقها، الذي تصرَّفَ فيها وحصلَ على نقودٍ مقابلها.

قد يكون من السهل تصورُ التأثيرِ الذي أحدثَته هذه الرسالةُ على التاجر أكثرَ من وصفه. يكفي أن أقول إنَّ هذا الرجل ذا التفكيرِ الحصيف، الذي تمالكَ نفسه جيدًا طوال المقابلة التي وصفتُها منذ قليل، قد انهار عند هذه النقطة، وفقدَ أعصابه تمامًا. ومِن ثَمَّ وضعَ نفسه تحت إرشادي، وخرجَ من المنزل معي في ذلك المساء، تاركًا السيدةَ جرين هناك وحدها.

وفي اليوم التالي تقابلتُ مع السيد جرين في مكتب محاميه، الذي سلَّمتُه نسخةً من الرسالة؛ كما قدَّمتُ نسخةً إلى محامي السجينة. وحدث اتفاقٌ بين محامي السيد جرين وموكله من أجل إرسال شخصٍ للاستحواذ الفوري على المنزل في كنتيش تاون، الذي كان قد أخلاه في الليلة السابقة.

واكتشفَ الرجل المكلَّفُ بالمهمة، عند وصوله، أن السيدة جرين قد هربت. حيث غادرت المنزلَ في وقتٍ مبكر من ذلك الصباح. وأخذَت معها ما خف وزنُه وغلا ثمنُه. وقد عبأت خِزانة الملابس الضخمة في صناديق. أخذت جميع المجوهرات، التي يمكن تحويلها بسهولة إلى نقود. وكان السيد جرين قد تركَ لها، بِناءً على اقتراحي، عشرة شيكات مسحوبة على بنكه الخاص، بقيمة خمسة جنيهات لكلٍّ منها، وكلٌّ منها مؤرَّخ بتاريخ لاحقٍ ويفصله سبعة أيام عن سابقه. وقد أخذَتْها بالطبع معها. ولم تترك أيَّ عنوان خلفها. كما لم تأخذ أيًّا من الخدم برفقتها. لا أحدَ يعرف أين ذهبت، ولم أهتمَّ أنا شخصيًّا.

وأُجرِي لقاءٌ بين محامي المدعي ومحامي السجينة؛ في سرية ودون تحيز.

وحدثَ التواصل بحرية في ظل تلك الأجواء. ومِن ثَمَّ قيل للفتاة المسكينة إنه سيُقدَّم طلبٌ للإفراج عنها، عند عرضها على القاضي في الجلسة القادمة، في ظل الظروف التي ستُوضَّح لها بعد ذلك. كما أُبلغت أنَّ سيدها واثقٌ من براءتها؛ وأنَّ الجانيَ قد حُدِّدت هويته، لكنه لن يُقدَّم للمحاكمة. وبالنسبة إلى الضرر الذي تعرضَت له على يديه، الذي يعترف آسفًا بأنه كان نتيجةً لدوافعه المتهورة، فقد طلبَ منها العفو، الذي منحَته إياه على الفور.

وفي الجلسة التالية أمام القاضي، قال محامي المدعي، الذي ظهر للمرة الأولى، إنه قد حدث تحقيقٌ في القضية منذ الجلسة السابقة، وإنه يطلب إذنَ القاضي الموقَّر للسماح له بالانسحاب من القضية. استدار القاضي على الفور إلى محامي السجينة، وسأله عما إذا كان لديه أيُّ اعتراض على هذا المسار، وتلقى ردًّا بأنَّ موكلته ليس لديها اعتراضٌ على إطلاق سراحها دون شروط.

وهكذا أُطلِقَ سراح الفتاة المسكينة، ونُقِلت لتعيش تحت رعاية إحدى قريباتها، وقد جرى تزويد قريبتها بكل الموارد وتلبية كلِّ متطلباتها من أجل توفير كل سبل الراحة الفورية للفتاة. وكان السيد جرين هو مَن قدَّم تلك الموارد.

سمعتُ عن السيدة جرين بعد ذلك. حيث أُسنِدَت إليَّ مهمة تتبُّعِها، وكان دليلي في المهمة هو دليلًا قدَّمَته هي بنفسها. حيث وكَّلت محاميًا بعد نحوِ شهرين من هروبها من كنتيش تاون، تواصلَ مع المحامي الخاصِّ بزوجها، وناشده، لأسبابٍ إنسانية، منحها المال. توسَّل إليه المحامي أن يُفكر في الخزي الذي قد يلحق بالسيد جرين إذا تعرضَت المرأة التي تحمل اسمه إلى ضائقةٍ وحرمان مطلَق وربما تدخل إلى ملجأ الفقراء. وبعد عدة مشاوراتٍ مع محاميه، رفضَ السيد جرين منحها أيَّ شيء. وأعلن عدم اهتمامه التامِّ بما حدث للمرأة التي لا قيمة لها عنده؛ وردًّا على تهديدٍ، طرَحه بلطفٍ أو ألمح إليه محاميها بعد ذلك، بأنها ستصبح مصدرَ إزعاج لزوجها، أبلغَ محامي السيد جرين زميلَ مهنته أنَّ موكله لن يتردَّد في تسليمها إلى الشرطة إذا فعلَت ذلك. وهكذا انتهت المفاوضات.

مضى بعضُ الوقت منذ إطلاق سراح السجينة. واستمر السيد جرين في الاهتمام بشكلٍ كبير برفاهيتها. وكثيرًا ما كان يزور منزل خالتها في كامبرويل، وكشفَ عن اهتمامٍ وعطف تجاه الفتاة. وفي الواقع، فإن العطف هي الكلمة الصحيحة لاستخدامها للتعبير عن الرعاية في هذه الحالة.

وذات يوم استدعى التاجرُ محاميَه، واجتمعَ معه طويلًا. ومن دون إقحام القارئ فيما جرى في هذا الاجتماع من بدايته إلى نهايته، يُمكنني أن أُبلغه أنَّ السيد جرين كان مُصرًّا على أن يتخذ السير كريسويل إجراءاتِ تفكيك روابط زواجه الكنَسيَّة، إذا أمكن تقديم دليلٍ قانوني على خيانة زوجته، وتخيَّل أنه لن تكون هناك مشكلةٌ كبيرة في الحصول عليه. إذ ستصبح الرسالة التي اكتُشِفت في البيانو مهمةً للغاية بالطبع، لكنها لم تكن كافية في حدِّ ذاتها.

وبِناءً على ذلك استعانَ السيد جرين بخدماتي، ووجدتُ أن تتبُّع تلك الخيوط سيقودني للعثور عليها. ولم يمر وقتٌ طويل قبل أن أكتشف أن السيدة جرين أصبحت «عاهرة» تتجول في واترلو بليس كلَّ ليلة، مرتديةً الملابسَ التي اشتراها لها السيد جرين، زوجها؛ وعلمتُ أيضًا أنها، من نقود خطيئتها، كانت تُحافظ على «الارتباط السابق».

عندما جمعتُ كلَّ هذه الأدلة وعرَضتُها على دكتور جينكس، وهو محامٍ بارعٌ للغاية — وهذا هو السبب الذي دعاني إلى معرفته — يُمارس المحاماةَ في المحكمة، حتى صار مؤخرًا تحت رئاسة السير كريسويل، وعندما طُلِب منه أن يُدلِيَ بدلوِه بشأن «القضية»، التي لم يكن هناك مجالٌ للشكِّ في أن المحكمة ستمنح السيد جرين الطلاقَ من زوجته الزانية، زار هذا الرجل خالة إليزا، وشرحَ لها شعوره بأنه ملزمٌ بالتعبير على الفور عن إحساسه بجدارة ابنة أختها وفضائلها، ورغبته في تقديم أكبر تعويض في استطاعته عن الأضرار التي لَحِقَت بها، من خلال عرضه أن تحلَّ محل سيدتها السابقة في أقربِ وقتٍ بمجرد الحصول على قرار المحكمة بوقوع الطلاق.

وبعد ذلك قضت المحكمة بوقوع الطلاق على الفور. وكانت معارضة الزوجة ما هي إلا مقاومة زائفة. كان دفاعًا من محامٍ، لم يكن ليُقدم أبدًا لو أن القانون، في احترامه للمرأة تحت جميع الظروف، لم يسمح لها، رغم أنها مفلسة، بوضع يدَيها في جيب الزوج المتضرِّر كي تنالَ منه أيَّ تكاليف تكبَّدَتها، وكذلك نفقتَها خلال الدعوى. إذ بمجرَّد أن رفعَ السيد جرين دعواه، كان عليه أن يمنح زوجته ٦٠٠ جنيه سنويًّا إلى أن يحصل على مرسومه بفسخ الزواج، وكان عليه أيضًا أن يدفع لمحاميها ١٥٠ جنيهًا و٤ شلنات و٦ قروش.

وبعد أن دُفِعت هذه الأموال، واتُّخِذت هذه الإجراءات، وبعد مزيدٍ من الانتظار لانقضاء الوقت المنصوص عليه بموجب القانون للطرَف الآخَر — أي للسيدة جرين — ضدَّ قرار المحكمة، لم يُرفَع هذا الاستئناف، ومِن ثَمَّ لم يَعُد يحقُّ للمرأة الزانية استخدامُ اسم التاجر؛ إذ لم تعد، في نظر القانون، زوجتَه بأي شكل من الأشكال؛ وأصبحت إليزا هي السيدة جرين، بموجب القانون وكنيسة إنجلترا.

قوة جواز السفر الأمريكي

أُسنِدت إليَّ ذات مرةٍ مهمةُ تعقُّب مفلسٍ هارب، وتسليمه إلى يد العدالة الرحيمة لدى إحدى محاكم الجنايات. لم يكن هناك شيءٌ في القضية، وَفْق ما ظهر في التعليمات التي مُنِحت لي، يُميزها عن القضايا الأخرى. ولم تكن تتميز بالصعوبة حتى تحظى بالمزيد من الاهتمام. ولقد حرَصتُ على الإيقاع بالرجل المطلوب مع القليل من المتاعب، مثلما فعلت، وكما سأوضح. ومع ذلك، فقد اتخذَت القضية منعطفًا غريبًا إلى حدٍّ ما في الجزء الأخير منها، كما سيرى القارئ.

كان المفلسُ تاجرًا في ليفربول. ولم يكن قد مرَّ على بدء ممارسة أعماله هناك أكثرُ من عشرة أشهر، لكنَّ ديونه، خلال تلك الفترة القصيرة، قد وصلَت إلى ٨٤ ألفَ جنيه. لا أعرف ما هي السِّلعة التي كان يُتاجر فيها. أظنه كان يُتاجر في الكثير أو في جميع السلع. وقال إنه مؤمنٌ بالأقوال المأثورة البسيطة والفلسفة التي تُجسِّدها تلك الأقوال. كما ذكر أنه لن يعترض في أي وقت على كسب المال الحلال بأي شكل من الأشكال. ولذلك اشترى كلَّ ما يسمح به رصيدُه الائتماني، من الخِرَق وفُتات القِنَّبِ إلى المجوهرات، ومن الشَّحم إلى الألماس. ولا أعرف في أيِّ الأسواق كان يُتاجر على وجه الخصوص. أعتقدُ أنه كان يبيع في السوق المحلية أكثرَ من الأسواق الخارجية، على الرغم من أنه تحدث كثيرًا عن الشحنات وفواتير الشحن وما إلى ذلك. وإذا كانت لديه مهارة في الحصول على الائتمان، فإن لديه عبقريةً في التصرُّف في البضائع. كما كان أيضًا خبيرًا فيما يُسمَّى بالتعهُّد، وهي عملية، لَمن لا يعرفون، يمكن تفسيرها بأنها مثل الرهن. وكانت الصفة الغريبة لتجارته أنه يشتري دائمًا بالآجِل وعبرَ الائتمان؛ ويبيع دائمًا نقدًا عند التسليم. ومِن ثَمَّ فهو يُتاجر في كثير من

الأحيان، إنْ لم يكن دائمًا، بخَسارة. وكان أحيانًا سيئَ الحظ لدرجة أنه لم يكن قادرًا على بيع الأشياء نقدًا إلا مقابل نصف السعر الذي اشتراها به بالآجل من خلال الفواتير.

قد يعتقد القارئُ أنَّ مثل هذه التِّجارة سرعان ما ستنتهي. إذ من الواضح تمامًا أن مثل هذه التجارة لا بد أن تنتهيَ بالإفلاس والخراب لشخصٍ ما أو لأكثرَ من شخص. ومع ذلك، فليس من المؤكَّد أن هذا النمط من ممارسة الأعمال سيُلحِق به الخرابَ بسرعة. لقد استغرق هذا المفلس الأمريكي عشرة أشهر؛ ويرى العديدُ من الأشخاص الخبراء بالمجال أنه كان من الممكن أن يستمرَّ لمدة ثلاث سنوات أو أربع إذا كان قد أجرى حساباته جيدًا وتمسَّك بموقفه بجُرأة. كيف كان يمكن القيام بذلك؟ بسهولة. هناك عملية سمعتُ عنها توصَف عِلميًّا بأنها «توسيع النسبة». كانت ستفي بالغرض.

لنفترض أن رجلًا يعمل في التجارة يخسر ٥٠٠ جنيه من قيمة تجارته التي تبلغ ١٠٠٠ جنيه، وهو ما يُماثل تقريبًا النسبة نفسَها في تجارة هذا الرجل الأمريكي المفلس أو نتائجها. ولنفترض أنه يريد أن ينفق، ومِن ثَمَّ أنفق ٥٠٠ جنيه على نفسه. هل هو ملزَم بالتوقُّف عن السداد في نهاية هذه التجرِبة الجزئية، وأن يتعامل مع المشكلة على أنها قد حُلَّت؟ كلا. يمكنه أن يُضاعف تجارته وخسائرَه، ويظل في الوضع الملائم. إذا كان سيُتاجر إلى حد مبلغ ٢٠٠٠ جنيه، ويخسر ١٠٠٠ جنيه منها، فسيُصبح قادرًا على سداد الائتمانات الأولى من صافي عائدات سلسلة معاملاته الثانية، وجميع الأشخاص الذين يحصلون على أموالهم سيُلاحظون أيضًا نشاطَ شركته وسيُظهرون مدحهم له «كتاجرٍ صاعد»، و«رجل مستقيم»، و«تاجر ملتزم». ومع ذلك، للعيش أثناء سلسلة المعاملات الثانية من دخلها، يجب توسيعُها إلى ٣٠٠٠ جنيه أو ٤٠٠٠ جنيه، بدلًا من ٢٠٠٠ جنيه؛ ولا شيء أسهل من ذلك. وإن استمر في سداد كل فاتورة عند استحقاقها (بغضِّ النظر عن التضحية، عن طريق البيع الإجباري للبضائع، أو عن طريق الخصومات بأي معدَّلِ فائدة)، فلن تُصبح هناك صعوبةٌ في «توسيع نسبة تِجارته»، إلى أن يحِقَّ له أن يكون في مصاف تلك الفئة من الأشخاص البارزين التي أعدَّها السيد ديفيد موريه إيفانز وجمعها معًا في كتاب بعنوان «الحقائق والاحتيالات والمغالطات». أعلمُ أن الفقاعة ستنفجر يومًا ما، لكن الكُرة قد تستمرُّ في التدحرج لعدة سنواتٍ عبر هذه الخطة.

من الممكن قطعًا أن يؤدِّيَ وجودُ عطل إلى توقف الماكينة. فهناك حوادثُ لا يمكن لتبصُّر الإنسان أن يتفاداها، وإذا أُغلِق الطريق المبهج المشرق الموصل إلى الخراب، فقد

تُصادف في الممرات الجانبية شرطيًّا يقتادك إلى قاضٍ أو سجن. وهو ما أعتبره إحدى الحالات الطارئة التي لا مفرَّ منها والتي سيُواجهها أيُّ محتال بشكل عادل؛ قد يتفاداها، إذا استطاع، وإذا لم يستطع، إذن فليُقابِلْها بهدوء واستسلام.

ومع ذلك، لم يفهم ذلك الرجلُ الأمريكي، كما قيل لي، هذه الطريقةَ العملية للخداع التجاري، وكان سيُصاب حتمًا بالحزن إذا كان إنجليزيًّا. قد يضع القارئُ أيضًا هذه الحقيقةَ الصغيرة في الاعتبار. فقد أشار رجلٌ عظيم ذاتَ مرة، إلى أنه على الرغم من أن العديد من الأشخاص مصرُّون على العيش وفقًا لذكائهم، فإن الغالبية العظمى من أولئك الذين خاضوا التجرِبة أصيبوا بشبهِ مجاعة بسبب نُدْرة الموارد التي يتطلَّبها هذا النوعُ من الحياة.

يجب أيضًا مراعاةُ البنود الجزائية لقانون الإفلاس الجديد كأشياء يجب تجنُّبها؛ لأنني أرى من خلال استخبارات محكمة الجنايات المركزية أنها تُطبَّق بصرامةٍ رهيبة. فإذا ضُبِطت واكتُشِفت مخالفةٌ لأيٍّ من المبادئ الأولية للفقه التِّجاري، فإن مقدار العقوبة يصبح مغلَّظًا. يجب على القارئ أيضًا ألَّا ينسى، أنه على الرغم من كونه لا يُعطي القانون الجنائي وضباطه أيَّ سيطرة عليه، فإنه قد يُواجه دائنين عدوانيِّين أو متوحشين، والذين هم غير راضين عن الخسارة التي تكبَّدوها بسببه، ومستعدُّون لإنفاق الكثير من المال، ليس لاسترداد ديونٍ معدومة، ولكن من أجل معاقَبة مَن يتصوَّرون أنه رجلٌ سيئ. قد يلاحقونه إلى أن يُلحِقوا به الخزيَ ويضطروه إلى التسوُّل، ويضَعوه في مواجهة الازدراء والعار — في انتهاكٍ للنظرية المسيحية البحتة التي تقول «عِش ودَعْ غيرك يعيش» — لن يتوقفوا أبدًا إلى أن تنقطع به سُبل العيش ويُضطَر إلى التسول، أو العمل سائسًا للخيل في غرب العاصمة، أو يُصبح بائعًا متجولًا، أو يبيع الصحف الصغيرة، أو يبيع الخضار أو الفاكهة أو أوراق الخطابات بالتجزئة، أو يحيا حياة الخمول في ملجأ للفقراء.

لكن يبدو أنني أنصح، أو أعِظ، أو أخطب، بدلًا من أن أرويَ قصتي.

حسنًا. كان السيد أبراهام درايفر قد أدار تِجارته خلال عشرة أشهر. وأثناء هذه الفترة، استطاع أن يؤسِّس تجارته ويُحقق مكاسبَ ماليةً كبيرة تكدست لديه. وقد حقَّق هذه المكاسبَ عن طريق الرهن وبيع البضائع، والحصول على سلفٍ على فواتير الشحن، وما إلى ذلك. إلى أين ذهبت الأموال، هذا ما كان دائنوه حريصين على معرفته. إذ كانوا يعتقدون أنه يستطيع سدادَ ٢٠ قرشًا مقابل كلِّ جنيه. وفي واقع الأمر، لم يُسدد قرشًا واحدًا مقابل الجنيه.

وقد حُكم على أبراهام درايفر، التاجر، والموزع، والبائع المتجول، كما وُصف في الإجراءات القانونية، بالإفلاس. لكنه لم يستسلم. ربما، إذا كانت لدى دائنيه فكرةٌ كافية عن كرامة المواطَنة الأمريكية، أو قُدسية العلَم الأمريكي ذي النجوم والشرائط، أو فاعلية أعتَى دبلوماسيٍّ أمريكي مشهور، لما أقدَموا على مثلِ هذه الإهانة مثلَما فعَلوا من خلال السيد درايفر تجاه أمَّتِه الفخور.

لم يستسلم التاجر والمواطن الأمريكي، كما قلت، للحُكم الصادر ضده بالامتثال لأمرِ الاستدعاء المطبوع والمكتوب الذي تسلَّمه. لقد تعامَل مع تلك «القُصاصة الكبيرة من الورق» بازدراءٍ لفظي فظ. ومع ذلك، وجد أنه من غير المناسب البقاءُ في ليفربول. كانت تلك المدينة الجميلة حارةً جدًّا بالنسبة إليه. ولذلك نقل مقر إقامته إلى لندن قبل اليوم المحدَّد لمثوله أمام محكمة مقاطعة ليفربول للإفلاس. وعندما استقرَّ في لندن، قرر أن يحصل على بعض الاستمتاع؛ وقد نقلَته هذه الفكرة بعيدًا عن المشهد السابق لمشروعه لما هو أبعدُ من العاصمة البريطانية. فأدار ظهرَه بازدراء للأرض التي يتأرجح عليها صولجانُ الملكة فيكتوريا المجازي. وسافر عبر السكة الحديدية والقارب البخاري إلى قارة أوروبا.

بمجرد أن غادر السيد درايفر شواطئ نهر المِرزي، أُسندَت إليَّ مهمة مراقبته. فوضَعتُ حارسًا خفيًّا لتلك المهمة. وقد راقبَ تحرُّكاته حتى وصل إلى الميناء ... وهنا، نظرًا إلى عدم تلقِّي أي تعليمات باعتقاله في القارة، فقد تُرك.

قرَّر دائنو المفلس الأساسيُّون ملاحقتَه. حيث أصبح الآن خارجًا على القانون. وقد انتهى وقتُ استسلامه. ويمكن الحصول على مذكرة توقيف في فرنسا لإلقاء القبضِ عليه وإبعاده إلى هذا البلد. وتمكَّنوا من الحصول على الإجراءات المطلوبة — أو تلك التي اعتقد المحامون الأكْفاءُ أنها كافية — ووُضِعت بين يدَي.

فذهبتُ بنفسي، وكان أحد السادة من ليفربول رفيقي الجيد.

امتثالًا لرغبات موكلي ورفيقي، وافقتُ على الذَّهاب معه إلى مكتب القنصل البريطاني.

كان القنصل البريطاني رجلًا شديدَ الاحترام، وقد أطفأ حماسي بأروعِ أسلوب. ولم يسَعْني إلا الإعجابُ بالأسلوب الذي حجَّمني به خادمُ التاج البريطاني، من ذروة احترامي الشرعي لذاتي، إلى العَدم الذي اعتقدَ هو أنه وضعي الحقيقي.

«إنهم يُديرون الأمور في فرنسا بشكلٍ مختلف عمَّا تفعلونه في إنجلترا يا سيدي، أؤكد لك ذلك. والآن، اترُك الأمرَ لي يا سيدي، حتى يُلقى القبض على الرجل، ويُعادَ مرةً أخرى إلى إنجلترا.»

خرجتُ أنا وصديقي إلى ممرِّ مكتب القنصل (الذي كان غرفةً صغيرة واحدة) للتشاور حول هذا الموضوع. ثم عقَد القنصلُ أيضًا اجتماعًا في مكتبه مع أحد مساعديه، الذي تأكدتُ بعد ذلك من أن اسمه هو بوجي. في هذا الاجتماع، وافقتُ على السَّماح للقنصل بمعالجة القضية بأسلوبه الخاصِّ في فرنسا، وكان عليَّ أن أُساعد فقط عندما يُطلَب مني تقديم المساعدة.

«حسنًا، سيذهب مساعدي بوجي ليرَ ما إذا كان الرجل في هذه اللحظة في الميناء. سوف يتأكَّد بوجي من ذلك قريبًا.»

كان كفُّ بوجي يقبض على عُملة ذهبية، تحمل صورةً لملكة إنجلترا، لتحفيز حماسته في تنفيذ قوانينها.

لم يستغرق الرجلُ الفرَنسي وقتًا طويلًا في تحديد مكان وجود السيد أبراهام درايفر. حيث عاد ليُعلن أنَّ الرجل الذي أردناه كان بلا شك جالسًا يُدخن في فندق أنجلو أمريكان.

والآن لنقبض على المحتال. كنت مستعدًّا، وكان الدائن ضحيةُ المحتال حريصًا بشدةٍ على القبض على الرجل.

قال القنصل: «كلا، كلا، يجب أن نذهب إلى مفوض الشرطة. يجب أن أدفع رسومه. لن يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا لإتمام الإجراءات، لكن القبض على الوغد سيُكلِّف مالًا. لا شيءَ يتمُّ في هذا البلد يا سيدي، دون نقود.»

سأل موكلي: «كم سيكون مبلغُ الرسوم، في اعتقادك؟»

«لا أستطيع أن أُحدد بالضبط. حوالي ١٦ جنيهًا أو ١٧ جنيهًا، من الأفضل أن تُعطيَني ٢٠ جنيهًا، وسأُعيد إليك الباقي.»

ألقى بوجي هنا عينَيه الزائغتين على القنصل، ثم عليَّ، ثم على موكلي. وكان لهذا التأثيرُ المطلوب.

قال الرجل النبيل من ليفربول: «لا تَشغَل بالك بالباقي. لا أعترضُ على دفع ٢٠ جنيهًا (وهو يُعطيه المال) للقبض على المحتال. يُمكنك أن تُعطيَ الباقيَ إلى هذا الرجل الطيب.»

قادَنا بوجي عبر الطريق بعيونٍ لامعة وملامحَ منتصِرة. وتبعتُه مع رفيقي.

تردَّدْنا على العديد من المكاتب الغامضة. وفحصَ أمر الاعتقال الموجود في حوزتنا والأوراق الأخرى بدقَّة مملَّة. وبدا بوجي كما لو كان في منزله، ومرتاحًا مع المسئولين الصغار، ومبجَّلًا لدى الأشخاص المهمين.

بعد مدَّة غادرنا المقرَّ الرئيسي للمفوض، وبدا موكبُنا مهيبًا حقًّا ونحن نسير نحوَ فندق أنجلو أمريكان. كان هناك ستةٌ من رجال الشرطة، يتقدَّمهم رقيبٌ، ويتبعهم بوجي، ثم اثنان من الإنجليز خلفَ هذا المساعد الفرَنسي للقنصل البريطاني.

عندما مرَرْنا عبر رصيف الميناء، لاحَظْنا، على مَقرُبة من فندق أنجلو أمريكان، سفينةً متجِهة إلى ميناءٍ بعيد في المحيط الأطلسي، جاهزة للمغادرة، والبخار يتصاعد منها.

قال الفرَنسي بضحكة خفيضة: «إنه مُغادر على متن تلك السفينة، أليس كذلك؟» ثم واصلَ الرجلُ المفعم بالحيوية الصياح: «انظر، ها هو قادم.»

وكان مُحقًّا تمامًا. فهناك، على بُعدِ بضعةِ أمتار، رأينا السيد أبراهام درايفر، التاجر، والموزِّع، والبائع المتجوِّل، من ليفربول سابقًا، والمفلس الهارب حاليًّا.

حيث كان يسير بهدوءٍ عبر رصيف الميناء، وهو يُدخن سيجاره، وعلى وشك المغادرة في السفينة التي لاحظناها.

وبِناءً على اقتراحٍ من بوجي، ألقى الرقيبُ القبضَ على المفلس الإنجليزي. وتبادَل الدائنُ والمدين كلماتٍ قليلةً للغاية، لم تكن بالطبع تحوي ثناءً أو مديحًا.

قال السيد درايفر بلكنة أمريكية قوية (لم يكن يستخدمها من قبل في ليفربول)، كما لو كان حريصًا على تقديم دليلٍ على جنسيته، وتوفير عناء أن يطلب منك ذلك: «أعتقد أنك ارتكبت خطأً كبيرًا، يا سيدي المحترم.»

حتى هذه اللحظة، لم يكن لدى الدائن أو لديَّ أيُّ فكرة أنه ليس رجلًا إنجليزيًّا يخضع لسلطة الملكة.

سأله رقيبُ الشرطة، بلغةٍ إنجليزية جيدة: «ماذا تقصد يا سيدي؟»

«يا له من موقفٍ مزعج، أظن أنك تعرف أنني مواطن أمريكي؛ وعليك أن تُدرك الآن، أنني أُحذِّرك يا سيدي، كي لا تُزعجني من أجل إبهاج هؤلاء البريطانيِّين الغاضبين.»

ومِن ثَمَّ نظر إلينا الضابط.

فقلتُ: «إنه مواطنٌ بريطاني مفلس يخضع لقوانيننا الإنجليزية، ومجرمٌ كذلك.»

«أحسبُ أنَّ الحديث يطول كثيرًا، بخصوص ذلك الأمر، وعندما تقبض عليَّ مرةً أخرى في بلدك القديم، يُمكننا مواصلته، حسبما أظن؛ لكني أخبرك يا سيدي، أنك إذا احتجزتَني هنا إلى أن ترحل تلك السفينة، فسيتوجب عليك سدادُ تعويضٍ ضخم للغاية، وهذا ما أعتقده.»

قال الرقيب: «يجب أن تأتيَ معنا إلى المأمور.»

«أوه، أظن أنك إذا قلتَ يجب، إذن يجب عليَّ ذلك؛ لكن انظر، ها هو جوازُ سفري. كل شيء حسَب القواعد والقانون، كما ترى. والآن، انتبِه كيف تُعامل مواطنًا أمريكيًّا؛ هذا كل ما أخبرك به الآن.»

وتزايدَت هسهسةُ البخار.

تابعَ قائلًا: «الآن، على ما أظن، ستأخذُني أولًا إلى قُنصلية الولايات المتحدة، أليس كذلك؟»

«كلا، إلى المأمور.»

نظر حوله بحزنٍ وأخرج من جيبه قطعةً نقدية من فئة ١٠ فرنكات.

ثم قال: «هل مِن أحدٍ يذهب إلى قنصل الولايات المتحدة، ويُخبره أن مواطنًا أمريكيًّا يُريد حمايته. ويطلب منه أن يأتيَ إلى المأمور قبل أن ترحل تلك السفينةُ البخارية.»

أمسكَ بوجي القطعة النقدية.

«أنا لا أُمانع في فعل ذلك. رجل إنجليزي في ورطة يودُّ الحصولَ على مشورةِ قنصله. هذا من حقِّه.»

ركضَ بوجي مبتعدًا لجلبِ حارس العلَم ذي النجوم والشرائط، أي السفير الأمريكي، مبتهجًا كما لو كان قد كرَّس نفسَه لاكتشاف السيد درايفر.

وخلال ثلاث دقائق كنا قد وصلنا إلى المأمور. ووصلَ القنصلُ الأمريكي هناك بمجرَّد وصولنا. لكن القنصل البريطاني لم يكن هناك. واستمعَ المأمور إلى أقوال المفلس وقنصلِه، ثم حكمَ بأنه لا يوجد سببٌ يُبرر استمرار اعتقال المفلس، الذي كان محميًّا بجواز سفرِ بلده. ومن المؤكَّد أنه لا يُمكن تسليمه بموجب أمرِ الاعتقال الإنجليزي، ولا ينبغي له أن يحتجزه ما لم يتمكَّن المدَّعون من إبرام تعهُّدات كافية، ينصُّ عليها القانون في فرنسا، لتعويض المتهَم.

لم يكن لدينا أيُّ شخصٍ حاضر لإبرام التعهُّدات المطلوبة؛ وكان حجم المخاطرة غيرَ محدَّد، ومِن ثَم أُطلِق سراح المحتال.

وعندما ابتعدَ عنا، وضعَ إصبعَه على أنفه، وأصدر صفيرًا على نغماتٍ مقطوعة من النشيد الوطني الأمريكي غير الرسمي «هيل، كولومبيا». ثم أخرج عودَ ثقابٍ من جيبه، وأشعل سيجاره، وبدرجة من السرعة تتناسب مع جوٍّ من الفخامة الوهمية، سار الوغد عبر رصيف الميناء، ثم على متن السفينة، التي كانت تتأهَّب للمغادرة.

لم نكن سعداءَ للغاية بنتيجة هذه الرحلة. كان من المستحيل مقاومةُ الشعور بالإهانة من رؤية الوغد يفرُّ من بين أيدينا، بعد أن ظننا أننا بالفعل قد أمسكنا به في قبضتنا.

لم نعد إلى قنصلية صاحبة الجلالة البريطانية. لكننا مكثنا نحو ساعةٍ أخرى في فرَنسا لتجديدِ نشاطنا، حيث كانت هناك سفينةٌ في ذلك الوقت على وشك المغادرة إلى إنجلترا، وكنا راغبين في العودة إلى الوطن.

هناك عبرةٌ يمكن استخلاصُها من هذه القصة قد يستمتع بها السياسيُّون للغاية؛ ولذا فأنا على وشك إضافة موادَّ يمكن لعضوٍ في البرلمان أن يصنع منها سُمعة طيبة. لقد أُخفِيَت أسماءُ وأماكن الممثلين في هذه الدراما التِّجارية الدولية الصغيرة. ومع ذلك، قد يكون من المفيد أن نُضيف أن الحقائق صحيحة نصًّا وموضوعًا، مع الاستثناءات المحدَّدة التي ذكَرتها. وإذا أراد أيُّ عضو في البرلمان أو أحد اللوردات النبلاء أن يحصل على الاسم الحقيقي وعُنوان القنصل، فلديَّ مطلق الحرية في منحِه المعلومات، وإذا كان يريد الأسماءَ الحقيقية لأيِّ ممثلين آخَرين في هذه الدراما الصغيرة، فسأمنحه إياها بالحرية نفسِها.

عند عودتنا إلى الوطن، ناقَشْنا تصرُّفَ القنصل — أقصد قنصلَنا — في هذه القضية. وقد دفعَنا إلى الشكِّ فيما إذا كان من اللائق أن يأخذ تلك الأموالَ منا. كما تشكَّكْنا في أنه أرادها، لا ليدفعَها إلى الشرطة الفرنسية مقابلَ أيِّ رسوم، ولكن كي يضعها في جيبه الخاص. ونحن نعتقد، إذا كانت شكوكُنا دقيقة، أنَّ تصرُّف القنصل كان فاضحًا.

وقد أجريتُ بعض التحقيقات. ومن خلال خطاب من مفوض الشرطة، علمتُ أن الضباط الفرنسيِّين غيرُ مسموح لهم بتحصيل رسوم، وأنه لم يُدفَع قرشٌ واحد إلى أيٍّ من رجال الشرطة الفرنسية من مبلغ العشرين جنيهًا الذي أخذَه منَّا. وبتوجيهٍ من السلطات المحليَّة الفرنسية، رُفِعَت دعوى ضدَّ القنصل البريطاني في محكمة محلِّية. لكنه عارضَ اختصاصَ المحاكم الفرنسية. كما استعانَ بصفتِه القنصلية في الدفع ببُطلان الدعوى. وفي هذه النقطة الفنِّية البحتة — حينما يُسحَب موضوع القضية من تحت سيطرة المحكمة — يُرفَع الاستئناف إلى محكمة الاستئناف. واعتُبِر التماس القنصل في الاعتراض على اختصاص السلطة القضائية وجيهًا. ورأى القضاة الفرنسيون أنَّ الشخص المحتال عليه رجلٌ إنجليزي، وأنَّ الجانيَ المزعوم قنصلٌ إنجليزي؛ ولذا فإن الوسيلة القانونية للتعويض هي تقديمُ طلبٍ إلى وزارة الخارجية في لندن. وقد عُرِضَت على وزير خارجية سابقٍ مذكراتٌ تُبين جميع استحقاقات القضية وعدم استحقاقاتها، وتُوضح إخفاقَ العدالة في

المحاكم الفرنسية، مصحوبةً بتقارير الصحف عن المرافعات والقرارات القضائية. كان الردُّ على هذه المذكرات والأدلة أنه، بما أن القضية قد رُفِعت أمام المحاكم الفرنسية، وحُسِمت فيها، فإن سيادته لا يجد أيَّ سبب للتدخُّل. وقد قدمتُ توضيحاتٍ أخرى، مع إعادة توجيه فكرة أنَّ موضوع القضية المرفوعة ضد القنصل لم يُنظَر فيه، وأنه اتخذ وسائلَ فعالةً للحيلولة دون فحص المحاكم الفرنسية لهذا الموضوع، وأنَّ القضية قد أُحيلَت بالفعل من القانون الفرنسي إلى الدبلوماسية البريطانية. ومع ذلك، تلقيتُ الرد نفسه، بحذافيره تقريبًا وبالأثرِ الدقيقِ نفسِه. أما التطبيق الثالث، وهو محاولاتٌ أخرى لتعريف وزارة الخارجية بواجباتها، فلم يأتِ إلا بالرد نفسه، بحذافيره تقريبًا، وبالأثرِ الدقيق نفسِه. ولذلك أُقفلت القضية، ولا تزال على حالها منذ بضع سنوات.

مَنْ هو أسوأ مجرم؟

منذ نحو ستِّ سنوات كُلِّف ضابطُ مباحث، يعمل لدى شرطة سكوتلاند يارد، في وستمنستر، بتعقُّب مجرمٍ صغير السِّن، زوَّر توقيعَ سيده، كما قيل، وهو تاجرٌ في حي ساوثوارك.

لم يكن البحث صعبًا للغاية. فقد ظنَّ الجاني، في رأيي، الذي احتال على شخصٍ وأخذَ منه ٥٠ جنيهًا من خلال تلك العملية، أنه قد حصل على ثروةٍ لا تنضب؛ أو ينبغي أن أقول على وجه الدقة إنه تصرَّف كما لو كان يعتقد ذلك.

يُقال إنَّ اللصوص (أعني اللصوص المحترفين للغاية)، الذين وُلِدوا وترعرعوا على حِرفة السرقة، أو الذين تدرَّبوا عليها على نحو غيرِ منتظِم، ينظرون بتروٍّ إلى مخاطر كل عملية واحتمالاتها، ويقدِّرون الربح أو الخسارة، ويحرصون على عدم إثقال مِقياس الاحتمالات المعاكس بالاندفاع أو الطيش. هذا هو الحال، حسبما أعتقد، مع اللصوص المعتادين. لكن الأمر يختلفُ مع أولئك الذين تورَّطوا بسبب دافعٍ أو ضرورةٍ في ارتكاب جريمة واحدة. فاللصوص العَرضيون (الكتَبة، والبائعون، وما شابه)، عندما يختلسون من خزنة النقود، يسرقون ما يُعادل بضعة جنيهاتٍ من البضائع، أو حتى يرتكبون عملية تزوير، ويتصرَّفون بأكثر الطرق التي يمكن تخيُّلُها حماقةً. وفي معظم الحالات، يُساعدون في مهمة اكتشافهم، إذا لم يُفصِحوا تمامًا عن سرِّ جريمتهم.

تُسلِّط القضية التي سأرويها الضوءَ على نصف نظريتي، وتُظهِر حقيقة القول المأثور القديم التي تؤكِّد أن المال غيرَ المشروع لا يُفيد مَن يسرقه.

لقد حصَلَ المجرمُ على وسائل الاحتيال أو التزوير بعد ظُهر يوم الإثنين. واستخدمها في صباح يوم الثلاثاء. ولم يظهر في ذلك اليوم في محلِّ عمله، ولوحِظَ غيابُه على الفور. ومِن ثَمَّ أُرسِلَ مَن يسأل عنه، بناءً على توجيهات سيده، في مسكنه، وتأكَّد أنه لم ينَم

هناك منذ ليلة الإثنين. كانت صاحبة المنزل قلقة عليه مثل سيده؛ وربما أكثر. لقد راحت تستفسر عنه، بينما هم يستفسرون منها حول الموضوع نفسِه. كانت المرأة الطيبة، وهي أرملة، وأمٌّ لعائلة (كلهم كبروا وأصبحوا رجالًا ونساءً، ويعيشون بعيدًا عنها)، تخشى أن يكون قد أصابَ مستأجرَها بعضُ الأذى. لم تأخذ هواجسُ الشر هذه شكلًا محدَّدًا، أو بعبارة أخرى، أخذت مئاتَ الأشكال المختلفة من الخطر، والحوادث المؤسفة، والمعاناة التي تزاحمَت بسرعةٍ كبيرة في عقل المرأة الطيبة، لدرجة أن اختلطَت جميعُها وتشوَّشَت، لكن شكوكها لم تقترب من الحقيقة ولا أي شيء من الواقع. كان صاحبُ عمل ذلك الشاب، على عكس صاحبة المنزل، غيرَ منزعج من العديد من الأفكار حول كاتِبه. ويمكن وضعُ كلِّ ما قاله السيدُ أو فكَّر فيه بخصوص الشاب في بضع جمل قصيرة. حيث قال إنه كان حقيرًا، وإنه لم يكن أهلًا لأن يعمل لديه؛ إذ مِن المخزي أن يتركَه في هذا الوضع الحَرِج، دون أدنى إخطار، كما قال إنه يجب أن يُعاقَب (مثل الحِرفيين في مناطق التصنيع) لإهماله عملَه، وخَرْقِ عقد خدمته. ومع ذلك، جادلَ صاحبُ العمل قائلًا: «توجد الكثير من الأسماك في البحر بالجودةِ نفسِها، ويمكن صيدُها مثلما هي الحال دائمًا. وفي رأيي أنه يُمكنني الحصولُ على كاتبٍ آخَر، في نهاية الأمر، وفي أي يوم، مقابل أجر ١٥ شلنًا في الأسبوع، وبنفس كفاءة هذا الرجل. وعندما يعود السيد ثينشانكس باكيًا لي لتوظيفه، سيجد أنني لن أفعلَ ذلك، هذا كلُّ ما في الأمر. كلا، ليس كلَّ شيء أيضًا. سأخبره قليلًا عما يدور في ذهني كذلك. سأطرده من مكتب المحاسبة لديَّ، وأقول له أن يذهب إلى ...» حسنًا، لا يهم إلى أين، أيها القراء؛ ليس إلى بوتاني باي، ولا وولويتش، ولا بورتسموث، ولا ميلبانك، ولا بينتونفيل؛ لم يكن أيٌّ من هذه الأماكن التي حدَّدَتها الاستعارةُ أو العبارة البذيئة وِجهتَه. ربما سيُعفيني خيالُك، أيها القارئ، من تلويث صفحاتي بذِكْر المكان، الذي قالت بعضُ العقول الحصيفة إنه لا يصلح للذِّكر أو الكتابة كي لا يؤذيَ الأذن أو العين.

وفي صباح يوم الأربعاء ظهرَ إعلانٌ في صحيفة «تايمز» الشهيرة، يُخطر قرَّاءها أنَّ السيد كراب يُعلن عن رغبته في تعيين كاتِب، شابٍّ عازب، ذي تعليمٍ جيد، سريعٍ في الحسابات، يُجيد الكتابةَ بسرعة، رصين، أمين، علاوةً على مهارة أخرى أو مهارتَين ثانويَّتَين. ويجب أن يُؤكِّد تلك السِّماتِ أشخاصٌ مرجعيُّون. عرضَ السيدُ كراب ١٥ شلنًا في الأسبوع كراتبٍ لهذه الوظيفة. ومِن ثَمَّ أرسلَ ٣٠٠ من المتقدمين إلى السيد كراب، عبر مكتب البريد المجاور لمقرِّ عمله، خلال يوم الأربعاء. وفي صباح يوم الخميس، اختار صاحبُ العمل من بين كومة الرسائل ستةَ مرشحين، وقابلَ العددَ نفسَه من الشباب في ذلك المساء.

وفي يوم الجمعة، حصل المتقدِّم الذي اجتاز الاختبار الصارم والتمحيص الشديد — بفضل خبرته الطويلة وسُمعته الطيبة — على المقعد الذي شَرُف السيد ثينشانكس بالجلوس عليه لمدَّة طويلة.

في ذلك اليوم تلقَّى الكاتِب الجديد عددًا كبيرًا من الأوامر. كان قد طُلِبَ منه أن يُعلن رسميًّا أمام السيد كراب أنه لا يخشى العمل، واختبرتُ حقيقة هذا التعهُّد، بقدر الإمكان، في يوم واحد؛ وكان تحديدًا يوم الجمعة.

من بين التوجيهات العديدة التي أعطاها السيدُ كراب إلى كاتِبه الجديد، كانت هناك تعليماتٌ بإرسال رسالة إلى السادة كلوكورك وريجيد، ليسأل بأدبٍ عن سبب عدم إقرارهم باستلام شيك بمبلغ ٥٠ جنيهًا و٤ شلنات و١٫٥ قرش، كان قد أُرسِلَ إليهما في موعد الاستحقاق بعد ظهر يوم الإثنين الماضي.

كانت هذه الشركة تُمارسُ نشاطها في حي شورديتش. ولم يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا من خليفة السيد ثينشانكس كي يكتب هذه الرسالة وذلك مع دستة من الرسائل الأخرى بالإيجاز نفسه، وأرسلت، مع الرسائل الأخرى، بحلول الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة.

اندهشَ السادة كلوكورك وريجيد. فهم لم يتلقوا أي شيك من هذا القبيل، على الرغم من أنهم كانوا يتوقعون الحصول على هذا المبلغ من السيد كراب. وهم يؤكدون أيضًا أنه لا يمكن أن يكونوا قد تسلموا الشيك، ثم فُقِد أو وُضِع في غير مكانه، في مؤسستهم. إنَّ الانتظام الشديد في جميع إجراءاتهم، ونظام الفحص الدقيق والفحص المضادِّ الذي ابتكرَته عبقريتهم منذ سنواتٍ عديدة وشرعت في تنفيذه، مكَّنهم من التأكيد على الفور أن السهو أو الصدفة أو عدم الدقة، من أيِّ نوعٍ كان، هي أمور غير واردة داخل الشركة. وفيما يتعدَّى ذلك لم يهتموا بالاستفسار. فالخَسارة، إذا كانت هناك خَسارة، ليست خَسارتَهما. ومن باب الإنصاف وحُسن النية بين التجَّار، اعتقدَ السادة كلوكورك وشركائهم أن من واجبهم إبلاغ السيد كراب بأسرعِ ما يمكن بأن شيكه لم يصل أبدًا إلى الشركة في شورديتش. ومِن ثَمَّ كُتِبَتْ رسالة على الفور وأُرسِلَتْ إلى السيد كراب، لإبلاغه بهذه الحقيقة المزعجة.

رأى السيد كراب على الفور، كما قد يفعل أيُّ أحمق، أن هناك صلةً بين عدم استلام الشيك من قِبَل السادة كلوكورك وريجيد واختفاء السيد ثينشانكس. فالأموال التي كان يجب أن تُحوَّل من بنكه إلى بنك مُراسليه هي تلك الصِّلة. لقد سُرق منه مبلغ ٥٠ جنيهًا و٤ شلنات و١٫٥ قرش من قِبَل ذلك الشرير ثينشانكس! ذلك الوضيع، الوغد، ناكِر الجميل،

بعد الطريقة اللطيفة التي كان يُعامل بها ذلك الحقير! وقال إنه يستحقُّ الشنق، في إشارة إلى عدم استحقاقه للعطف والمعاملة الحسنة التي أشار إليها لتوِّه.

صرَفَ السيد كراب مرسال السادة كلوكورك مع تعبيرٍ رسمي عن الشكر، كان من الصعبِ استخلاصُه في خضمِّ حالة الغضب التي عصَفَت بذهنه آنذاك.

لقد قرَّر — على الرغم من أن الأمر، على حدِّ وصفه، كان مهمةً مؤلمة — مقاضاةَ ذلك الوغد بأقصى درجات الصرامة في القانون. ومِن ثَمَّ ارتدى قبعته، وتحريًّا للدقة، يمكن وصفه بأنه هُرِع إلى مكتب محاميه. كان الرجل قد غادر المكتب باكرًا. فقد توجه من المكتب الكئيب إلى منزله المبهج قبل موعد مغادرته المعتاد. لقد وقعَت الحوادث التي وصفتُها خلال ذلك الجزء من العام الذي يعتبر بغيضًا جدًّا للمدَّعين ومبهجًا للمدعَى عليهم (دائمًا باستثناء المَدينين بإيصالات الأمانة، الذين يقعون تحت اختصاص قانونٍ حدَّده أحد الأشخاص الكئيبين كقانون الموت المفاجئ)، وهو الإجازة الطويلة. ومِن ثَمَّ فإن القضية التي أراد الموكِل المشورةَ والتوجيه بشأنها من محاميه لا تُبرر الذَّهاب إلى منزل هذا الأخير؛ لذلك يجب عليه بالضرورة الانتظارُ حتى الغد.

وبينما نحن في انتظار المقابلة التي ستحدث بين السيد كراب والسيد كروك (المحامي)، هل يسأل القارئُ نفسه، هل سرق الكاتِب من سيده مبلغ ٥٠ جنيهًا و٤ شلنات و١,٥ قرش بالفعل؟

ربما يكون لدى القارئ عقلية قضائية. وأتمنى أن يكون لديه بالفعل. ففي يوم من الأيام قد يُضطَر إلى الجلوس في هيئة محلَّفين، ولا شك أنه قد فعل ذلك بالفعل. هذا الإطار الذهني قد مكَّنه وسيُمكِّنه من أداء واجباته المهمة تجاه المجتمع بصفته محلَّفًا بطريقة حكيمة. حسنًا، إذن، إنَّ القارئ، صاحبَ العقلية القضائية، لا يستطيع أن يُقرر على وجه التحديد. فالأدلة غير كافية. ولذا، سينتظر ويستمع إلى الحقائق الأخرى التي يجب أن أُفصِح عنها، قبل أن يتخذ قراره بشأن القضية التي أثَرتُها. وهذا تحفُّظ حكيم.

وهكذا عادَ السيد كراب أدراجَه مرةً أخرى بعد زيارته غير المثمرة لمكتب المحامي.

وكان ينظر بعين النقد والرِّيبة إلى كاتِبه الجديد، ليرى ما إذا كان يبدو كأنه لصٌّ أو لا، وقد فعل الكثيرَ من الأشياء الأخرى، التي لا يحتاج القارئ أن يطلب مني سردها؛ لأنها لا تَمسُّ القضية التي أُثيرت للتو، أو تلك التي أثارها السؤالُ الذي عُنوِنَت به هذه القصة.

ويُمكننا القول، مع ذلك، إنَّ السيد كراب لم يكن صَبورًا في عملية القبض على اللص. لقد فكَّر كثيرًا وتناقش مع نفسه في هذا الموضوع وتوصَّل إلى استنتاجٍ مفاده أنه إذا أرجأَ

التصرُّف في الأمر حتى الصباح، فربما يكون قد أهمل واجبه تجاه المجتمع ككل. إذ قد يهرب الجاني خلال تلك الليلة بالذات إلى أمريكا، أو إلى معقل آخرَ يأوي الجريمة. لقد مُنِحَ له الكثيرُ من الوقت بالفعل، الذي يمكنه خلالَه أن يُفلت من يد العدالة البريطانية. يجب إبلاغ الشرطة في الحال. أجل، سيذهب إلى أقربِ مركز شرطة ويُبلغهم بالأمر. ومِن ثَمَّ فعل ذلك. حيث قَدَّمه المفتشُ المناوب إلى السيد الرقيب داوني، فأخذَ خبير القبض على اللصوص وكاشف الغموض هذا من السيد كراب سردًا كاملًا وحقيقيًّا ودقيقًا للقضية؛ بقدر ما يمكن للمدَّعي أن يسرد.

لم يكن لدى الرقيب داوني شكٌّ كبير في القبض على الجاني. كان الشاب محظوظًا أو سيِّئ الحظ لامتلاك وجهٍ وطريقةِ مشي مميزَين وخاصَّين به. كانت الجريمة، على الأرجح، جريمتَه الأولى. ولم يعتقد الضابط أن اللصَّ قد غادر البلاد؛ وهو لم يفعل، كما ستُظهر الأحداث القادمة.

في تلك الليلة وقعَ شجارٌ في واحد من أماكن الترفيه والرذيلة في غرب العاصمة. وارتُكِبت عمليةُ سرقة لشابٍّ من الريف في أحد الملاهي الليلية في هايماركت، خلال مشاجرة بين بعض الحثالة المجتمعية والنشَّالين الذين تجمَّعوا هناك. وبعد استدعاء الشرطة، اعتقلت رجلَين للاشتباه في ارتكابهما الجريمة. وقد أطلقَ القاضي سراحَ أحدهما صباحَ اليوم التالي. حيث قدَّمت بطاقةُ هويته، وحافظة البطاقات خاصته، وتفسيراته الخاصة، إقرارًا بأنه رجل فاضل وبريءٌ من السرقة. أما الآخر، وهو شاب، لم يكن محظوظًا جدًّا. ونظرًا إلى تخوفه من المراسِل والصحف، حسب قوله؛ ولكونه غيرَ راغب، حسبما أضافَ، في شعور أصدقائه المحترمين بالخزي؛ ولكونه متأكدًا أنه سيخسر وضعه الاجتماعي إذا اتضحَ أنه قضى أمسية في مثل هذا المجتمع السيئ السُّمعة، رفض ذِكر اسمِه وعنوانه. ولم يتمكَّن ضحية الشِّجار من التعرُّف على الشخص المتحفِّظ على أنه اللِّص، وكان على استعدادٍ للاعتراف بمعقولية عذره من أجل السرِّية؛ لكنَّ القاضيَ اعتقد أنه يتعين على الشرطة أن تُجرِيَ المزيد من التحرِّيات عنه قبل إطلاق سراحه. قال الرجل الخبير: «كان من الغريب جدًّا أن يحمل الشابُّ معه، في مثل هذا المكان، من الأوراق النقدية والذهب، نحوَ ٢٣ جنيهًا.» رغم مناشداته واعتراضاته، ورغم مظهر البراءة الجريحة الذي اتخَذه، ورغم أن الشرطة لم يكن لديها أيُّ شيء ضده إلا وجودَه في مكان السرقة وحيازته هذه الأموال، فقد وُضِعَ في الحبس الاحتياطي، من أجل إجراء مزيد من التحرِّيات عنه.

وقد زار الرقيب داوني مقر الاحتجاز، وسُمِحَ له برؤية السجين المتحفِّظ. وسأله الرقيبُ إذا كان اسمه ثينشانكس؟ فقال السجين: «كلا، ليس اسمي.» هزَّ الضابط رأسه دلالةً على الشكِّ في مصداقية هذا النفي وابتسمَ بسُخرية. ثم ذهبَ مباشرةً من مقر الاحتجاز إلى منزل السيد كراب. وبعد ذلك زار كِلاهما السجنَ المؤقَّت. وهناك تعرَّف التاجر على الفور على هُويةَ ذلك الشابِّ السجين الذي يبدو كلامه منطقيًّا، وأكدَّ أنه كاتِبُه الهارب. ومِن ثَمَّ تعرض السيد ثينشانكس، على الرغم من أنه متجهِّم ومتحفِّظ كما كان دائمًا، للإذلال والسَّحق عبر نظرة رهيبة من صاحِب عمله السابق.

نصحَ محامي السيد كراب موكِله، عندما استشاره لأول مرة، بعدم التفكير في الملاحقة القضائية. وقال إن هذه الخطوة غير مُرضية. وإذا أُلقي القبض على اللص، فإن القضية ستُكلِّف المدعيَ مبلغًا كبيرًا من المال، بالإضافة إلى خَسارته الحاليَّة، علاوة على كمٍّ كبير من المتاعب. ولا يمكن تركُ الادعاء في أيدي الشرطة. إذا كان الأمر كذلك، فإن الوغد سوف يُفلت على الأرجح، ومَن يدري؛ فقد ينقلب على السيد الطيب الذي سرَقه، ويرفع دعوى ضده بسبب السجن الظلم؟ ومن ناحيةٍ أخرى، إذا أجرى السيد كروك الملاحقةَ القضائية بقوةٍ ومهارة مناسبتَين، من أجل ضمان الإدانة، كما يستحقُّ الوغد، فسيتعيَّن على السيد كراب سداد فاتورة التكاليف؛ كما سيُضطرُّ إلى الذَّهاب لعدة أيام إلى محاكمِ مقاطعة ساري (التي كانت أجواؤها مضرة بالصحة)، وسوف يُعاني من عدم الراحة، ويفقد أعصابه، كما سيَفسُد هضمُه، أو ربما تسوء صحته، بالإضافة إلى فقدانه ماله. وقد انتقد السيد كراب قواعدَ الفقه الجنائي البريطاني وممارساته؛ لأنه لم يتحمَّل كلَّ تكاليف الملاحقات القضائية، والدفعَ للشهود بسخاءٍ مقابل وقتهم ومتاعبهم، ومنحَ مكافآت للرجال المخلِصين لسعيهم النشطِ من أجل تحقيق العدالة. ولكنه قال، بأيِّ ثمنٍ ضروري، وأي مضايقة أو إزعاج غير ضروري، هو مستعدٌّ للقيام بواجبه من خلال مطاردةِ هذا المزوِّر وصولًا إلى حبل المشنقة، حيث يجب أن يكون ذلك العقابُ مصيرَ هذا الجاني.

وعندما أُبلِغَ السيد كروك بأنَّ المجرم قد قُبِضَ عليه، ووجدَ معه ما يقرب من نصف قيمة الشيك، لم تَعُد اعتراضاتُ رجل المحاماة على الملاحقة واضحةً وحاسمة كما كانت. لكنه فقط قال لموكِله إنه يجب الآن محاكمة الجاني لضمان إدانته؛ وكان يعتقد، رغم أنه لم يَقُل ذلك، أن المبلغ الذي لم يُبدِّده السيد ثينشانكس سيكفي، بالإضافة إلى البدلات الضئيلة لوزارة الداخلية، لسداد تكلفة إدانته القضائية. ومن ناحيةٍ أخرى توسَّل السيدُ كراب، الذي تظاهَرَ بعميق الأسى تجاه خسة هذا الشابِّ الأحمق وحقارته، إلى السيد كروك

كي يستخدم كلَّ مهاراته الشهيرة؛ من أجل العدالة الغاضبة، وفي الوقت نفسِه تمنَّى أن يكون مفهومًا أنه يرغب عند انتهاء المحاكمة أن يُبلِغ محامي المدعي كلًّا من القاضي وهيئةِ المحلِّفين والحاضرين والمراسِلين وقرَّاء الصحف والعالَم الخارجي بأَّن السيد كراب، طيبَ القلب وصاحِب عمل السجين، قد أوصاه بالرحمة.

وهكذا عُرِضَ جيمس ثينشانكس وَفْقًا للإجراءات المتبَعة أمام أحد قضاة ساوثوارك بشأن الاتهام الذي لم يُقبَض عليه بسببه، وأُسقطت التهمة التي قُبضَ عليه بسببها.

في الجلسة الأولى للسجين، كان السيد كراب ممثَّلًا بمحامٍ مبتدئ، مختص في القانون الجنائي لبلده. ولن يهتمَّ القارئ بالحصول على تقرير عن خطابه عندما أُخبرُه أنه لا يستحق الذِّكر. ويكفي عن هذا المشهد وأحداثه أن نقول إنَّ السيد سنيك المحامي المختص (الذي كان مبتدئًا في ذلك الوقت ولكنه أصبح خبيرًا الآن) لم يُكلِّف نفسه عَناء فحص لائحة الاتهام، واتخذ الاتهامَ مثلما وُصِفَ من قِبَل الشرطة، دون الاستفسار عن دقته. ومع ذلك، كان الدليلُ ضعيفًا للغاية، وغيرَ مكتملٍ على نحو صارخ. لم يكن الشيك في المحكمة؛ والعديد من العناصر الأساسية الأخرى للقضية لم تكن موجودة، ومِن ثَمَّ كان على السيد سنيك أن يطلب من المحكمة فقط وضعَ السجين في الحبس الاحتياطي. وبعد ذلك قُدِّمت حقيقة أو اثنتان غيرُ ذات أهمية كدليل، ووُضِعَ السجين، الذي لم يعترض، لمدة سبعة أيام في الحبس الاحتياطي. كان سيرضخ إلى الحبس الاحتياطي لمدَّة طويلة للغاية. وبقدر ما كان اللصُّ الغبي والوضيع يكره مقرَّ الاحتجاز، ونظامه الغذائي، وضوابطه، فإنَّه كان يخشى أكثرَ مما يُسمَّى «المحاكمة»، مع خاتمتها التي لا مفرَّ منها؛ وهي الإدانة. لقد جسَّدَ نوعًا أو درجةً من الراحة من فلسفة هاملت. كان يُفضل كثيرًا أن يتحمل المصاعب التي يعاني منها، بدلًا من الهروب إلى أخرى مُفزِّعة بسبب عدم اليقين الشديد منها. لم يكن قد وصلَ بعدُ إلى تلك المرحلة الأخرى من الفلسفة الإجرامية (التي وجدها الشرير المهذب ويليام روبيل، كما يُقال، في إسبانيا) التي تستمد عزاءها الوحيد من معرفة الأسوأ.

بعد الجلسة الأولى للسجين، ألمحَ السيد سنيك إلى السيد كروك عن اعتقاده بأنه من المستصوب جدًّا عقدُ جلسة تشاوُرٍ في أقرب وقت ممكن. لقد فهمَ السيدُ كروك، أو — لكي لا نمنحه مجاملة غير مستحَقة — رأى أنَّ هناك شيئًا ما وراء هذا الاقتراح. لذلك وافقَ على تلميح المحامي المختص بتلك الكلمة القوية «تشاور»، ومنحه شيئًا أكثرَ قوةً وهو مبلغ جنيهين.

ومِن ثَمَّ عُقِد اجتماع بين المحامي والمستشار القانوني في عصر ذلك اليوم في مكتب السيد سنيك. وحضره السيد كروك بنفسِه، ولم يكن هناك أيُّ شخص آخر. كان اجتماعًا سريًّا. لكني سآخذ حريتي في كشف النقاب، والسماح للقارئ بالدخول في هذه المشاورة. وسأطلب منه أن يُصغي، حتى لا يفوته أيُّ شيء من الحديث، ويُعيرني انتباهه الكامل، حتى يفهم ما يسمعه.

«سيد كروك.»

«نعم سيدي.»

«تفضَّل بالجلوس.»

«شكرًا لك يا سيدي.»

كانت هذه هي التحيةَ الشديدةَ الرسميةِ بين محامي الجنايات المفوَّه والمحامي المبتدئ الذي كان يسعى إلى الاستفادة على جميع الأصعدة. وقد قيل لي إنَّ هذا التعاليَ من جهة، والتواضع من جهة أخرى، هو الأسلوب شبهُ الثابت للتواصل بين الرُّتَب العليا والدنيا فنيًّا في مهنة المحاماة. يقال إنَّ الكثير من قوة المحامي يعتمد على الحفاظ على وضعٍ نسبي في مجال المحاماة.

بعد لحظة أو اثنتين من فُتور التعامُل، أضاعَ وعيُ السيد سنيك بالمعاملة اللائقة للمحامي ذلك الفتور، لذلك أصبح مهذبًا وأكثرَ توقيرًا تجاه أخيه الأقلِّ مكانة الذي يدفع له أتعابه.

قال سنيك ذو المكانة الأعلى: «كما ترى يا كروك، من المهم جدًّا تأطيرُ هذه التهمة ضد السجين بدقة، وأود أن أعرف الوقائع الفعلية للقضية — مثل تلك التي يُمكن إثباتها بالأدلة بالضبط — وهو ما لم يحدث بعد. هل سرَقَ السجينُ شيكًا مكتوبًا بالمبلغ، وكان بتوقيع سيده وبخط يد سيده، أم سرقَ الرجلُ شيكًا فارغًا، وحرَّره، ووقَّعَ عليه باسم سيده؟ إنَّ الفارق مهم للسجين نفسِه؛ لأن الحقائق المختلفة تُثبت جرائمَ مختلفة؛ لكن المدعي مشتبهٌ به، كما يبدو لي، في هذا الجزء من القضية أكثر من المتهم.»

تجرأ المحامي على القول: «عُذرًا يا سيدي، إذا قلتُ إنني لا أرى ذلك.»

أجابَ السيد سنيك: «أوه، من الواضح أنه إذا كان الشيك قد سُحِبَ من قِبَل المدعي — أي إذا كان عليه توقيعه لجعل مبلغ ٥٠ جنيهًا و٤ شلنات و١,٥ قرش مستحقَّ الدفع إلى السادة كلوكورك وريجيد أو لحامله — وإذا كان شيكًا كاملًا وأصليًّا، فمن الواضح أن الخَسارة يجب أن يتحمَّلَها السيدُ كراب. فهو عمل من أعمال اختلاس شيك أو عائداته من قِبَل كاتِبه. لنفترض، من ناحية أخرى، أنَّ السجين قد سرقَ شيكًا فارغًا، ووقَّعه باسم

سيده، فإن ذلك يُعَد تزويرًا؛ وعلى البنك أن يتحمل الخَسارة؛ لأنه ليس لديهم حقٌّ أو سلطةُ سداد قيمة شيكات مزورة.»

برقَت فكرةٌ في رأس المحامي كروك. لقد كان محاميًا خبيرًا بما يكفي ليرى النقطة القانونية عندما تشحذ رؤيته الثاقبة، وعندما تُعرَض النقطة أمامه. لقد أخبرَ السيد سنيك أنه لا يستطيع أن يقول بوضوح — حيث لم يتحقَّق تمامًا عن طريق الاستعانة بالمدعي — ما إذا كان الشيك قد سُرق وهو فارغ، أو بعد تحريره وتوقيعه. وسيتحرى الأمر في هذا الصدد، ثم يُبلغ السيد سنيك.

بعد ذلك أجرى المحامي كروك لقاءً مع موكِله، حاول فيه أن يشرح للمدعي الجانبَ القانوني للقضية قبل أن يتحرى حقيقة الأمر. لا أعرف ما قد يُفكر فيه القارئ بشأن هذا الترتيب للإجراءات. إذ يبدو لي أنه لم يكن منطقيًّا تمامًا، أو صحيحًا من الناحية الأخلاقية. كان الأمر أشبهَ بإعطاء السيد كراب تلميحًا حول كيفية تشكيل الوقائع على نحو معين، وإلقاء العبء أو الخسارة عن كتفَيه وتحميله للبنك. وإلى أن تُصبح نتيجة الإثبات القانوني هذه واضحةً بالفعل للمدعي، لا يمكن إقناعُه بإرهاق ذاكرته بشأن الحقائق.

قال السيدُ كروك: «كما ترى، إذا كنت بالفعل قد حرَّرتَ الشيك ووقَّعتَ عليه، وحدَث أنك تركته موضوعًا على مكتبك وخرجت لمدة ساعة أو ساعتين؛ أو افترِض، أنك بعد تحريره والتوقيع عليه، سلَّمتَه إلى ثينشانكس لإرساله إلى شركة كلوكوركس، هل نفترض أنه سرَقه أو صرفه دون إذن، واستولى على عائد الشيك لاستخدامه الخاص؟»

أجابَ السيد كراب: «حسنًا، افترض أنه فعل ذلك. إنَّ هذا هو ما قد فعله حقًّا، في رأيي.»

فأجابَ المحامي: «آمُل ألا يكون قد فعل ذلك.»

«تأمُل ألَّا يكون قد فعل ذلك! ما فائدة أمَلِك أنه لم يفعل؟ إن ذلك الحقير سيئٌ بما يكفي ليفعل أيَّ شيء.»

«لا شك أنه كذلك؛ لكن، كما ترى، إذا سرقَ شيكًا بعد توقيعك عليه، فلا يُمكننا القول إنه زوَّر توقيعَك، أليس كذلك؟»

«بلى، لن يمكننا ذلك؛ لكن ما الذي يُهم في ذلك؟ أليست سرقة شيك موقَّعٍ أمرًا سيئًا وغيرَ أخلاقي مثلما لو كان شيكًا غيرَ موقَّع؟ وإذا لم تكن تزويرًا، فهي سرقة، جناية، أليس كذلك؟»

«بلى، بلي، يا عزيزي السيد كراب. لكن يجب أن أتحدث بشكل أوضح، حسبما أرى. أريد أن أعرف مَن الذي سيتحمَّل خسارة المال؛ مبلغ ٥٠ جنيهًا.»

«عجبًا، أظن أنني مَن خسر المبلغ؛ بالطبع، أليس كذلك؟»

«لا أعرف. دعنا نرَ ما تشير إليه الحقائقُ وينصُّ عليه القانون. وآمُل أن أتمكَّنَ من إثبات أنه ليس موكِلي، ولكن البنك، هو مَن يجب أن يتحمل خَسارة المال.»

«أوه، لقد فهمتُ المعنى الضِّمني لكلامك؛ ولكن كيف نفعل ذلك؟»

«لنفترض أنك تركتَ دُرج مكتبك مفتوحًا — فقط افترض، كما تعلم، أنَّ هذا حدث — وأنك تركت دفتر الشيكات في متناول موظفك.» (هنا تنفَّس المحامي بعمق، ونظرَ بعين فاحصة إلى موكِله.) تابعَ المحامي: «لنفترض أنه أخذَ شيكًا فارغًا من الدفتر، وحرَّره، وقلَّد توقيعك تحت أمر الدفع، سيصبح هذا تزويرًا، كما تعلم.»

«أجل، أعلمُ ذلك.»

«عندئذٍ لن تُضطرَّ إلى تحمل خسارة المال. سيتحمَّلها البنك.»

«حقًّا؟»

«أجل؛ لأنه إذا صرفَ البنكُ شيكًا مزورًا، فإنه هو مَن يتحمَّل العواقب وليس أنت.»

أثارت هذه المعلومةُ الجديدة على السيد كراب دهشته.

«آه! فهمت. أجل. أتساءَل كيف حدث الأمر؟ في الواقع، يا سيد كروك، لا أستطيع أن أتذكَّر في هذه اللحظة كيف حدث ذلك. سوف أعصرُ ذاكرتي لأستحضر ما حدث. وأبلغكَ غدًا.»

أنهى الموكلُ والمحامي اجتماعَهما. وأرسلَ السيدُ كراب، عند عودته إلى المنزل، على الفور دفتر حسابه إلى البنك، كي يُراجعَ حساباته. وقد سُجِّلت الشيكات التي صُرِفت منذ آخر ترصيد لحسابه في دفتر الحساب، ومن بينها الشيك الذي صُرِفَ إلى «كلوكورك أو حامله»، ولم يُشطَب.

أيًّا كان الشخصُ الذي زوَّر توقيع السيد «جون كراب»، ليس هناك شكٌّ في أن التاريخ والمبلغ (بالكلمات والأرقام) قد كتبهما ثينشانكس. ومع ذلك، كان هذا أمرًا عاديًّا. إذ إن الكاتِب عادةً ما يكتب بيانات الشيكات كي يُوقِّعها صاحبُ عمله.

فكَّر السيدُ كراب طويلًا وبقلقٍ في هذا الشيك. وقارنَ التوقيع الموجود باسمه «جون كراب» مع التوقيع نفسِه على الشيكات الأخرى. هل راوده شكٌّ فيمَنْ كتبَ اسمه في أسفل هذا الشيك؟ كلا. هو يعرف أنه توقيعه. كان يفحصه فقط ليرى ما إذا كان بإمكانه إيجادُ

عُذرٍ كافٍ ليقول إنه ليس توقيعَه. لكن الغريب أن التوقيع «جون كراب» على هذا الشيك لم يكن مطابقًا تمامًا للتوقيع على الشيكات الأخرى. كان هذا التوقيع ممتدًّا أو مترامِيَ الأطراف أكثر قليلًا من توقيعه المعتاد. كيف حدث ذلك؟ لقد تذكَّر جيدًا. هذا الشيك وُقِّع على عجَلٍ شديد. كان قد وعَدَ في اليوم الذي وقَّعه فيه — في فترة ما بعد الظهر — أن يصطحبَ زوجته العزيزة، السيدة كراب، إلى المسرح. وكان يُحاول إنهاءَ عمله بسرعة شديدة بعد ظهر ذلك اليوم. كان من الغريب أيضًا أنه نسي تظهير الشيك. حدث هذا الإهمال للسبب نفسِه. هل سيجرؤ على القول، عندما يؤدي اليمين، مع معرفته بكل عواقب الحِنْث باليمين، إنه لم يكتب «جون كراب» على ذلك الشيك؟ لِمَ لا؟ مَن سيُعارضه؟ مَن يستطيع فعل ذلك؟ فقط ثينشانكس. هل يمكنه فعل ذلك؟ أجل، يمكن أن يُعارضه من قفص الاتهام، لكن شهادته لا يُعتدُّ بها؛ كما أنَّ عدم تشابه التوقيع يُعد ضمانًا إضافيًّا ضد الضرر الذي يلحق بالمدعي من هذا الإنكار. كان (السيد كراب) رجلًا محترمًا. هل يمكن أن يُقسم على الكذب والافتراء دون خجل؟ إنَّه لم يكن خائفًا. أجل، يمكنه؛ وسيفعل. فهو لا يستطع تحمل خَسارة ٥٠ جنيهًا. إنها خسارة كبيرة له. لكن الأمر لن يُؤثر كثيرًا في بنك أندرتيلز. فهم أغنياء للغاية. ومِن ثَمَّ، كانت لديه الجرأة لكي يقول بأن التوقيع ليس توقيعَه، ويُخاطر باكتشاف أمره. لا أحدَ يستطيع تقديم دليلٍ قانوني على عكس ذلك؛ إن هذا أمر مؤكَّد للغاية.

في جلسة المحاكمة التالية، فتحَ السيدُ سنيك القضية كواحدةٍ من قضايا التزوير. وجادلَ المحامي المختصُ بأن السجين الماثِل في قفص الاتهام قد اغتنم الفرصة، في غفلةٍ مِن صاحب عمله، لأخذِ شيكٍ فارغ من دفتر الشيكات، وكتبَ الحاشية؛ وكتب بيانات الشيك (وهو أمر معتاد)، لكنه وقَّع أيضًا باسم سيده تحتَه؛ وهو تصرف لم يسمح به السيد كراب مطلقًا، ولم يفعله هذا الشابُّ من قبل، ولم يكن لديه أيُّ إذنٍ لفعله. وبالطبع لم يُظهِّر الشيك، مما يُظهِر تعمُّدَه في إساءة استخدام عائِد الشيك، حتى يتمكَّنَ من تبديد ذلك العائد في وكر الرذيلة الذي قُبِض عليه فيه. لقد كان (تابعَ السيد سنيك القول) عملًا بارعًا، وقد نجح على نحو جيد جدًّا، لدرجة أن صاحبَ عمله قد ظنَّ، مسترشدًا بحاشية الشيك، ودون تروٍّ، أنه قد وقَّع الشيك بيده؛ ولكن عندما نظر بعنايةٍ إلى التوقيع، أدركَ على الفور أنه على الرغم من التقليد البارع لتوقيعه، فإنه لم يكتب أبدًا اسم «جون كراب» عند توقيعِه. وبمقدور السيد سنيك أن يفهم جيدًا كيف يمكنُ حتى لموظَّف البنك، دون التوقف لمقارنةِ التوقيعات، قَبولُ صرف شيك مزوَّر؛ لكنَّ القاضيَ الموقَّر، أو أي شخص آخر، عند

إجراء المقارنة بين الشيكات العديدة التي قدَّمها الآن للمقارنة مع الشيك المستحَق السداد إلى السادة كلوكورك، سيُلاحِظ أنه لا يحمل توقيعًا مشابهًا للتوقيع على الشيكات الأخرى. كما أنَّ موكِله المحترم للغاية سيُقسم على أنَّ التوقيع مزوَّر، وليس هناك شكٌّ في ذلك. لقد اكتملت القضية الآن، أو ستصبح مكتملة عندما يُقدم الأدلة التي لديه أمام عدالة المحكمة؛ وعليه أن يطلب إحالة السجين إلى الجلسات التالية لمحاكمته على التهمة التي ذكرها.

ودعمت الأدلةُ ما ادَّعاه محامي المدعي. أما السجين، الذي لم يكن مندهشًا ولو بقدر قليل من الخطأ الفادح غيرِ العادي لصاحب عمله، مثلما كان يعتقد، فلم يرَ هدفًا من شرح موقف القضية بالفعل. فإذا كان بإمكانه التخلصُ من إثبات التزوير المزعوم — بخصوص توقيع «جون كراب» — فهو لا يُمكنه أن يأمُلَ في تبرئة ساحته من التهمة الأخرى. ورأى أنه يمكن إثباتُ سرقة الشيك وعائدِه. ولم يكن يعرف هدفَ صاحب عمله من القسَم على أن التوقيع لم يكن بخطِّ يده، ولو كان يعلم الهدف، فلربما أخبرَته السُّلطة نفسُها أنَّ غرضه لن يتحقَّق بشكل فعال من خلال محاولة كشف احتيال صاحب عمله ونذالته.

سيعلم القارئ المسارَ الذي اتخذَته هذه القضية اللافتة للغاية.

نشرت الصحفُ أمر إحالة السجين. وهكذا علمَت عائلته، التي لم يكن قد اتصل بها، بموقفه. ومِن ثَمَّ جاءوا لزيارته. ووكَّلوا له محاميًا سأسميه شارك.

أجرى السيد شارك — وهو رجلٌ مرموق في الجهة الأخرى من العاصمة، كان يشتهر بالمهارة والكفاءة العالية في مِهْنة المحاماة — مقابلاتٍ خاصةً مع الجاني في سجنه المؤقت. وطلبَ السيدُ شارك من موكِله أن يوليَه ثقته؛ وأنه يجب أن يعرف الحقيقة كاملة؛ كي يتمكنَ من مساعدته، وما إلى ذلك.

كان الموكِل التعيس في غاية الصراحة مثلما أراد المحامي. وقد أقرَّ بالذنب في هذا التحقيق؛ ليس بتهمة التزوير، ولكن بالجريمة الأخرى. إذ أصرَّ على أن التوقيع باسم «جون كراب» كان مكتوبًا بخط يد صاحب عمله، على عجَل، كما هو موضَّح، وأن عدم تظهير الشيك تسبَّب في إغراء الكاتِب. لقد رأى أنه من خلال اعتراض مسار الشيك من شركة كراب إلى شركة كلوكورك، وتقديمه إلى بنك أندرتيلز بنفسه، يُمكنه بسهولة الحصولُ على مبلغ ٥٠ جنيهًا و٤ شلنات و١,٥ قرش. وقرَّر القيامَ بذلك تحت إغراء دافعٍ شرِّير، وكان لديه من الحماقة والإثم ما يكفي للانصياع وراء هذا الدافع والرضوخ له.

وأعلنَ الشابُّ البائس أنه لم يرتكب أيَّ جريمة تمسُّ الشرف من قبل. وأقسمَ بكل إخلاص إنَّ هذه هي جريمته الأولى. لقد نُسِفت مسيرته المهنية بأكملها جراءَ الاستسلام

لإغراءٍ واحد. كما سردَ على مسامع مستشاره القانوني اللامبالي قصةَ بؤسه منذ اللحظةِ التي أمسكَ فيها أمواله غيرَ المشروعة. وقال إنه قاسى عذابَ الندم. ولم يشعر براحةٍ قط بعدها بسبب تأنيب الضمير، حتى قُبِضَ عليه، فشعَر ببعض الارتياح. وكان قد قرَّر عدة مرات أن يستجديَ رحمة صاحب عمله السابق؛ لكن القسوة الوحشية التي تتَّسم بها شخصيةُ ذلك الرجل جعلَته يتردَّد كثيرًا في اتخاذ هذا القرار السليم.

أدركَ السيدُ شارك في الحال، وكادَ أن يُعجَب، ببراعةٍ الحيلةَ التي اتبعَها المدعي لإلقاء خَسارة المال على عاتِق البنك. ولم يعتقد أنه من الضروريِّ إطلاعُ موكِله على هذا الأمر، وجعله يظن أن أدلة السيد كراب تنطوي على خطأ عرَضيٍّ في الوقائع. وقال لنفسه إنه ليس من مهامِّه أن يتدخل بين المدعي والبنك الخاصِّ به. كما لم يكن لدى السجين أيُّ شيء يَكسِبُه من إنكار التزوير؛ ومن المؤكَّد أن أحدًا لن يُصدِّقه.

ومِن ثَمَّ رأى هذا المحامي الجنائيُّ المحنك فائدةً واحدة فقط يمكنه جَنيُّها عبر ما أفضى به موكِله. التهديدُ باستبانة وتوضيح من جهة، والوعدُ بالصمت من جهة أخرى، قد يحظَيان بتوصية قوية بالعفو من المدعي.

ومِن ثَمَّ زارَ السيدُ شارك مكتب السيد كروك. ويمكن تخمين ما دار في المقابلة من خلال النتيجة. حيث كرَّر السيدُ سنيك في المحاكمة الكلامَ الذي قدَّمتُ موجزًا له، وأضافَ أن المدعيَ، الذي كان مقتنعًا بأن هذه هي الجريمة الأولى للسجين، مهتمٌّ أيضًا بأن تُتاح له فرصة استعادة أهليته المفقودة؛ ولذا أوعز إلى محاميه بأن يلتمس العفوَ له من عدالة المحكمة.

ثم أُثبِتت الوقائع، وجرى القسَم على شيء أكثر من الوقائع. فوجدت هيئة المحلِّفين أن السجين مُدان. وبعد أن وافقَ القاضي على التوصية الكريمة — على حَدِّ تعبيره — من جانب المدعي، حَكمَ على الجاني بالسجن أربع سنوات مع الأشغال الشاقة.

ومنحَ البنكُ السيدَ كراب مبلغَ الشيك المسروق، الذي أُعلِن عن تزويره بحكم باتٍّ من محكمة جنائية.

أمضى الكاتِبُ غير الأمين ما يُقارب ١٢ شهرًا من أصل أربع سنوات من العقوبة المشدَّدة الموقَّعة عليه في صبرٍ وندم دون شكوى. وقد شهدَ له السجَّانون والمأمور والقسُّ بحُسن السير والسلوك. وقد حظي بمعاملة جيدة داخل السجن بما يتوافق مع النظام المتبَع هناك. وكان من المرجح أن يحصل على عفوٍ عن بقية مدة العقوبة بفضل حُسن سيره وسلوكه.

وفي مساء أحدِ الأيام، وسط الأفكار الهادئة التي تولَّدت عن العُزلة، طرأت على ذهنه فكرة أنه يجب ألا يسمح بأن يمرَّ خطأ السيد كراب بخصوص توقيعه الخاصِّ دون عقاب. إنَّ قول الحقيقة، حسبما يعتقد دائمًا، هو أمرٌ مرغوب فيه؛ إذا لم يكن هناك سببٌ خاص أو غيره، فليكن من أجل الوصول إلى الحقيقة المجردة. ومن أجل صالحه هو شخصيًّا، ألم يكن من المرغوب فيه الكشفُ عن الوقائع الفعلية؟ لماذا يُعاني تحت وطأة جريمة أعمقَ مما هو مذنِبٌ بسببها؟ ولذا، قرَّر التحدُّث إلى القس حول هذا الموضوع. وقد فعل ذلك. ومِن ثَمَّ رأى القس أنه مُحِق في رغبته في تقديم هذه التوضيحات. حيث قال السيد الموقَّر، بطيبةِ قلبه، إنه سيكتب إلى السيد كراب، ومِن ثَمَّ يسعى إلى تخفيف عبء تحامُل هذا الرجل على نفسه، وربما يحصل على توقيعه على مذكرة نيابةً عن كاتِبه السابق. وحكى القسُّ قصةَ هذا الشخص المدان للمأمور. فأدرك المأمورُ على الفور، أو اشتبه، في وجود شيءٍ ما في دليل السيد كراب، على الرغم من أنه لم يستطع تحديده على وجه الدقة. وكان صِهْر المأمور، الذي يعمل محاميًا، في زيارةٍ آنذاك لمنزله مدتها يومان. فكرَّر القس والمأمور على مسامع المحامي القصة كاملةً. فأدركَ في مخيلته عملية الاحتيال الناجحةَ على الفور. وبناءً على ذلك، أُخطِرت السلطات المختصة بتلك الوقائع، فوجَّهَت بإبلاغ الوقائع إلى بنك أندرتيلز.

ومِن ثَمَّ استشارَ رئيسُ البنك الذي تعرَّضَ للاحتيال في مبلغ ٥٠ جنيهًا و٤ شلنات و١,٥ قرش محامِي البنك، فأبلغوه أنه بموجب قانون الأدلة الجديد، يمكن استخدام شهادة ثينشانكس في مقاضاة السيد كراب، الذي أوصَوا به كعمل من أعمال العدالة البسيطة، ولصالح المجتمع المصرفي. لكن شريك السيد أندرتيلز كان رجلًا كريمًا حقًّا. إذ لم يوافق على تدمير تاجِر محترم، مما أدى إلى تردُّد البنك في اتخاذ القرار. فاستشارَ رئيسُ بنك أندرتيلز المحامينَ مرة أخرى حول هذا الموضوع، فأشاروا بضرورة مقاضاة البنك لهذا الرجل.

كان هناك بعضُ الصعوبات بشأن هذه القضية. فقد لا يُعتدُّ بدليل المُدان. إذ قد يدفع السيدُ سنيك، أو أيًّا كان المحامي الذي سيوكله السيدُ كراب للدفاع عنه، بأنَّ المذنبَ المُدان قد اختلقَ هذه القصة، في عُزلة سجنه، من أجل إرضاء شعور الانتقام من صاحب عمله الذي، على الرغم من أنه حصلَ على حكمٍ ضده بالإدانة تحت ضغطٍ من واجبه، التمسَ له العفوَ من عدالة المحكمة. ومع ذلك كانت هناك بعضُ الحقائق الداعِمة التي يمكن عرضُها على هيئة المحلَّفين. حيث قد يشهد الخبراءُ أنَّ التوقيع لم يكن مزورًا. وقد يحلف المذنبُ المُدان اليمينَ أمام المحكمة على تعجُّل السيد كراب وقتَ توقيعه على الشيك؛ ويمكن إثباتُ

زيارته للمسرح، التي تسبَّبت في ذلك. كما يمكن الدفع بوجود دافعٍ وهو رغبته في تحميل الخسارة للبنك.

سارت المناقشاتُ والمداولاتُ في مكتب المحاسبة في لومبارد ستريت في الاتجاه نفسه الذي سارت فيه في مكتب المحامين. ومِن ثَمَّ تقرَّر مقاضاةُ السيد كراب، على أمل إدانته لصالح المجتمع.

في غضون ساعاتٍ قليلة من الاستقرار على هذا الرأي، هربَ السيدُ كراب من منزله، ولم يُسمَع عنه قط بعد ذلك. ولكن عُثِر على جسد رجلٍ يُشبهه بعد ١٠ أيام جرفته المياه إلى الشاطئ في باركينج كريك.

وأظنُ أنَّ شريك السادة أندرتيلز مدفوعًا بكَرمه المفرط قد حذَّر الوغد من الخطر المحدِق به، وأنه هربَ نتيجةً لذلك، وأنه، لخوفه من القبض عليه والعار والعقاب، قد انتحرَ غرقًا.

هل يرغبُ القارئ في أن أُجيب عن السؤال المطروح في مقدمة هذه القصة؟ إنَّه مرحَّب به في رأيي إذا رغبَ، وله الحرية في الاختلاف معي إذا لم تُرضِه الإجابة. أعتقد أنَّ السيد كراب كان أسوأَ من كاتِبه. وأنَّ السيد كروك كان مجرمًا أعتى من أيٍّ منهما؛ لكنني أعتبرُ أن أكثرهم حقارةً كان السيد سنيك.

مكيدة كبرى في شركة السكك الحديدية

هل يعرف القارئُ أنَّ كل الأموال المحصَّلة في أي محطة سكة حديد تُرسَل إلى المقر الرئيسي كلَّ ليلة؟ هذا هو الإجراءُ المتبع. تُوضَع الأموال في صندوق، أُنشِئَ لجعل الاختلاس أو السرقة على الطريق أمرًا صعبًا، إنْ لم يكن مستحيلًا، وتُرسَل بهذه الطريقة. ويُرسَل معها بالطبع أيضًا إخطارٌ من قِبَل مدير المحطة أو المحصِّل من محطة معينة إلى المكتب الرئيسي. وتُرسَل الأموال لدفع الرواتب والأجور بطريقة مماثلة وعبر مسار عكسي من المقر الرئيسي إلى المحطات التي أتَت منها في الأصل. إنَّ المحطة الرئيسية أو المكتب الرئيسي هو في الواقع مركزُ نظامٍ نقدي توزيعي. فكلُّ شيء في شكل نقود يأتي إلى هناك ويذهب من هناك.

هذه هي طريقة سداد الأجور، أو على الأقل تحويل الأجور من المقر الرئيسي. ومن أجل الحماية من السرقة أو الاحتيال، تُرسَل قائمة بجميع الحمَّالين وسائقي القطارات والحُرَّاس وغيرهم من عمال كلِّ محطة، إلى المقر الرئيسي. وفي يوم محدَّد — على سبيل المثال الجمعة أو السبت — تُعاد هذه القائمة إلى المحطة مع كاتبٍ من مكتب المحصلين أو السكرتارية، الذي يأخذ معه أيضًا المبلغَ المطلوبَ لسداد أجور جميع هؤلاء العاملين. ويقوم الكاتب برحلةٍ من بداية الخط إلى نهايته، حيث يُسلم، خلال رحلته طردًا من المال معبَّأً بقائمة الأجور. وتُستلَم هذه الطرود من أيدي الكاتِب من قِبل شخص ما يحرس دائمًا مكان التسليم، مع ذلك الحماس أو العناية التي عادةً ما يُظهرها الرجال عندما يتوقعون نَيل مكافأة على جهدهم. ودائمًا ما يكون وصول حامِل النقود معروفًا إما بترتيب ثابت أو ببرقية خاصة تُرسَل إلى محطات الخط.

إنَّ القارئ، في رأيي، أيضًا لا يعرف إلى حدٍّ كبير حقيقة، أنه حتى عامٍ أو عامَين قبل ذلك، كانت هناك عصابةٌ من أشرس الأوغاد الذين حصَلوا على مكاسبَ هائلةٍ من

النهب المنهج لشركات السكك الحديدية. كانت أساليبُ عملهم متنوعةً بقدر ما يمكن أن تُقدم لهم حيل البراعة الشريرة، وكانت تداعياتها مذهلة بالنسبة إلى أكثر المحققين خبرة. لقد وفَّرَت لي خُدعُهم وخططهم وترتيباتهم عملًا طويلًا ومربحًا؛ ومن باب الإنصاف أن نفترض أنَّ العديد من حالات النهب هذه لم تُكتشَف، أو لم يُشتبَه بها. لقد رفعوا دعاوى عن إصاباتٍ لم تقع، من قِبل أشخاص لم يكونوا موجودين في حوادثِ التصادم أو التحطم؛ وقدَّموا مطالَبات مقابل طرود مفقودة والتي، كما قد يُعذر أي أيرلندي على قول ذلك، لم تُفقَد أبدًا؛ وسرَقوا أمتعة الركَّاب؛ واستولَوا على البضائع في مسار الترانزيت؛ وكانت لديهم مخططات أخرى للنهب. كانت آلية عملهم متشعبة على نطاق واسع، بحيث إنه في كل محطة كبيرة تقريبًا توجد عصبة تقوم بعمل الشركة ظاهريًّا، وتتلقَّى رواتبها، وتُصنَّف ضمن عُمَّالها المخلصين. في كل قطارٍ تاسع أو عاشر كان هناك حارسٌ له صلة، سواءٌ بصفته عضوًا أو وكيلًا، بعصابة النهب. كما يوجد لديهم جواسيسُ ومخبرون وشركاء في المقر الرئيسي للعديد من خطوط السكك الحديدية في جميع أنحاء المملكة — في مكاتب السكرتارية، والمحصلين، ومكاتب المديرين في العديد من الخطوط.

وكانت فائدة هؤلاء الجواسيس في المقرَّات هائلة. فهناك، على سبيل المثال، قضية الحادث المزعوم. حيث رُفِعت دعوى ذات مرة ضد شركة لها محطة رئيسية في العاصمة. وطالبَ المدعي بتعويضاتٍ عن الإصابات التي لحقت به في حادث تصادم. لم تستطع الشركة أن تدحضَ المطالبة بالكامل، ولكن نظرًا إلى أنهم اعتبروا المبلغ المطلوب من قِبل المدَّعي مبالغًا فيه، فقد اعتقدوا أنه يمكن تخفيضه عن طريق التفاوض. كان المبلغُ المطلوب أصلًا هو ٢٠٠٠ جنيه. لكنَّ المدعيَ، أثناء المفاوضات، خفَّض توقعاته إلى ١٠٠٠ جنيه. وقد كان هذا، على حدِّ قول محاميه، أدنى مبلغ يمكن أن يقبله. وقد أبلغ محامو الشركة الإدارة بذلك، ومِن ثَمَّ فوضَتهم الإدارة بتسوية القضية عن طريق سداد ٨٠٠ جنيه والمصاريف. وبناءً على ذلك، عرضَ محامو الشركة ٧٠٠ جنيه كأعلى مبلغٍ يمكنهم سداده. فإذا رفضَ هذا العرض، فإنه يجب عليهم، حسَبما قالوا، خوضُ المعركة حتى النهاية، ومعرفة ما ستُقرره هيئة المحلَّفين. لقد كانوا ينتوون بالطبع أن يَزيدوا المبلغ بمقدار ١٠٠ جنيه في اللحظة الأخيرة، بدلًا من ترك المفاوضات تنهار. ومع ذلك، ردَّ محامي المدعي، على عرض الـ ٧٠٠ جنيه، وكتبَ ليقول إنه تشاور مع موكِله البائس، الذي، من أجل وضع حدٍّ للنزاع والتقاضي، قرَّر أن يأخذ مبلغ ٨٠٠ جنيه، لا ينقص ولو شلنًا واحدًا؛ وأضافَ أنه لا جدوى من إجراء مزيدٍ من التفاوض إذا لم يُلبَّ هذا الطلبُ في الحال ويُوافَقْ عليه. ومِن ثَمَّ لم يَبدُ

أن هناك ضرورةً لاستمرار التفاوض على هذا النحو حتى يصل إلى المرحلة التي حُدِّدت لمحامي الشركة كي يُسويَ الأمر، ولم يكن ذلك مستغرَبًا على الإطلاق؛ لكن السبب الحقيقي لموافقة المدعي على قَبول ٨٠٠ جنيه كان المعلومات التي تلقَّاها، التي تفيد بأن هذا المبلغ هو أقصى ما يمكن أن يأمُلَ في الحصول عليه دون المرور بمحنةِ تحقيقٍ عام؛ وهو اختبارٌ تسعى العصابة دائمًا إلى تجنبه.

وقد تصادف، من خلال مجموعةٍ فريدة من الظروف غير المتوقَّعة، أنْ كنتُ أُراقبُ بعيني اليقظةِ في ذلك الوقت رجلًا متهَمًا بالتزوير. وخلال مراقبتي رأيتُ رسائلَ تمر من وإلى مكتب السكرتارية لخط سكةٍ حديدية مهم. لم يكن الإبلاغُ عن هذا الظرف جزءًا من عملي. فذلك قد يُفسِد الخطة التي أقوم بها؛ ولذا لم أُخطِر أحدًا، أو على وجه الدقة لم أعطِ أيَّ إشارة أو تلميح. خلال أقل من أسبوع بعد تسليم الرسالة الأخيرة، في نحو الساعة السادسة مساءً، كانت خطتي قد تبلورت، وأمسكتُ بالمتهم الذي كنت أسعى خلفه. إهمالٌ غير عادي وعناية رائعة! لقد دمَّر حلقةً واحدة في السلسلة التي كنت أنشئُها بمساعدته اللاواعية، لكنه احتفظَ بحلقةٍ واحدة في سلسلة أخرى متساوية القيمةِ والمنفعة لخصومه الآخَرين. وقد وجدتُ معه رسالة، كانت مشفَّرة، لكنها مكتوبة على ورق مختوم بأحد أختام الشركة.

علاوة على ذلك، لم يكن من الصعب جدًّا فكُّ الشفرة. إذ سرعان ما كشفَ أحدُ الأصدقاء، الذي أشدتُ بمهارته في مجلدي السابق، هذا اللغز.

هل يرغبُ القارئ في تخمين ما تحتويه الرسالة؟ لقد كانت نسخةً مشفرة من محضر اجتماع مجلس الإدارة ذي صلةٍ بقضية الأضرار والتعويضات! وكان المتهم هو أحدَ المتحالفين مع العصابة، أو أحد جواسيسها على الأقل، الذي احتفظ في الواقع بمنصبٍ سري في مكتب السكرتارية، قريب جدًّا من معقل أسرار الشركة بحيث يُمكنه نسخُ المحاضِر من السجلِّ الذي تُسجَّل فيه قراراتهم. وبموجب هذا التوجيه، أصدر المدعي تعليماته إلى المحامي، الذي وكَّلَته العصابة في هذه القضية، كي يخفض مبلغ التعويض إلى ٨٠٠ جنيه بالضبط، ومن خلال هذه الخيانة الشائنة لثقة الشركة، حصلَ الناهبون على المال.

سلَّمتُ الآن بالطبع الوثيقة إلى الشركة. ومع ذلك، سدَّدتُ مبلغ التعويض. وأُدينَ سجيني بتهمة أخرى، ولذا لم يكن من الضروري مقاضاته بتهمة الاحتيال على شركة السكك الحديدية. كما لم تتَّخَذ إجراءاتٌ لمقاضاة الكاتِب. لقد أفلتَ من ذلك المصير بفضل علاقاته القوية التي وفرَت له الحماية. حيث أكد رسميًّا لمجلس الإدارة أنه لم يشارك في

واقعة النهب، وأنه لا تجمعه بالمزوِّر علاقةٌ وثيقة، وأنه تعلَّم الكتابة بطريقة الشفرة، بهدف الترفيه وحسب، وأنه أخبره فقط بقرار مجلس الإدارة من أجل أن يحثَّ صديقه، المدعي (الذي كان يظنه قد تعرَّض للضرر بالفعل)، على عدم الإصرار على مبلغ التعويض المبالَغ فيه. صدَّق مجلس الإدارة هذه القصة أو تظاهروا بأنهم صدَّقوا. ربما لم يرغبوا في كشف أنَّ الاحتيال والإجرام قد توغَّلا في المقر الرئيسي لهم، وقريبٌ للغاية من مركز إدارتهم. وأيًّا ما كان الأمر، فقد علمتُ أنهم وبَّخوا الكاتِب، ووجَّهوا اللومَ إليه، وفصلوه من العمل، لكنهم امتنعوا عن مقاضاته.

عندما فُصِل هذا الشاب، الذي نسخَ المحضر، تخيَّلَت الشركة بلا شك أنها قد تخلَّصَت من العناصر الاحتيالية التي أثرَّت سَلبًا على ثقتها. لكنها كانت مخطئة كما سيتَّضح الآن. إذ إن الواقعة التي أنا بصدد الحديث عنها لم تحدث إلا بعد انقضاء نحو ١٢ شهرًا على القصة التي رويتُها للتو.

فقد تصادفَ أنه في تاريخ هذه المكيدة الكبيرة، رتَّب كاتِبٌ ملحَق بمكتب كبير المحصلين، كانت مهمته نقلُ الأجور إلى محطات الخط الرئيسي، أن يأخذ إجازته السنوية ومدتها شهر، وأن يبدأها يوم الجمعة، وهو اليوم الذي كان المالُ يُسلَّم فيه دائمًا.

استفسرَ الكاتِبُ من كبير المحصلين: «ماذا سنفعل بخصوصِ الأجور، في هذا الأسبوع، يا سيدي؟»

أجابَه الرجل: «أوه، يمكن تدبُّر الأمر بسهولة، يا ويلسون، يجب أن تُسلمها يوم الخميس.»

«شكرًا لك سيدي. ولكن هل ينبغي أن أُرسل برقياتٍ إلى المحطات وأُخبرهم أننا سنُسلمهم الأجورَ في يوم الخميس من هذا الأسبوع؟»

قال كبيرُ المحصلين: «يمكنك فعلُ ذلك أيضًا، يا ويلسون.»

والآن، فإنَّ معرفة ما إذا كان ويلسون قد سلَّم أي رسالة إلى كاتِب البرقيات أم لا، هو لغزٌ لم يُحَل إلى الآن. فهو يقول إنه قد فعلَ ذلك. بينما يقول كاتِب البرقيات إنه لم يفعل. وبين هذه التصريحات المتضاربة يظلُّ هناك شكٌّ مؤلم حتى يومِنا هذا. يبدو من المحتمَل فقط أن الكذَّاب كان متحالفًا مع العصابة، لكن هذا ليس استنتاجًا مؤكدًا. فربما قد سلَّم ويلسون الرسالة المكتوبة إلى أحد زملائه الكتَبةِ في مكتب كبير المحصلين، في ظل ارتباك أو انفعالٍ ناتِج عن إجازته الوشيكة، أو ربما وضَعها كاتِبُ البرقيات جانبًا عن غير قصد، وربما أتلفها أحدُ شركائه من أجل مساندة المشروع الإجرامي الذي أصبح ممكنًا بحجب هذه الرسالة (أيًّا ما كان السبب الداعي إلى ذلك).

لم يستطع مجلسُ الإدارة، وربما لم يكن متوقَّعًا منه بشكل معقول، أن يحكم بين التصريحات المتضاربة للكاتبَين؛ ولذا فقد فصَلوا كِلَيهما من العمل، واعتقدوا أنهم قد قاموا بكل ما تتطلَّبه العدالة النزيهة وما يمليه عليهم واجبهم تجاه المساهِمين.

إنَّ الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي حقيقةٌ سلبية. فالبرقية لم تُرسَل. وانتظر العمَّالُ وصولَ الأجور، وطالَ انتظارهم عَبثًا، يوم الجمعة.

ذهبَ ويلسون، محمَّلًا بمبلغ كبير من المال، إلى محطات الخط يوم الخميس، وَفْقَ ما رتَّب مع رئيسه. لقد ذهبَ، كما لو كان سيئَ الحظ، وَفْقًا لوعده في البرقية، مستقلًّا القطارَ السريع في وقتٍ ما بعدَ الظهر، وكما لو أن الطقس يعمل لصالح عملية الاحتيال، فقد استمرت شبورة خريفية كثيفة، تكاد تصل إلى حدِّ الضباب، طوال رحلته؛ على الرغم من أنني لا أعلم أنَّ الأحداث كانت ستتخذ أيَّ شكل أو لونٍ آخرَ لو كان الجو صَحْوًا والشمسُ ساطعة.

وعندما يقترب ويلسون من كل محطة، كان القطار يُبطئ من سرعته، وهو شيءٌ اعتاده ويلسون عندما كان يسافر على متنه لأداء مثلِ هذه المهمة، ومِن ثَمَّ أخرجَ رأسه من العربة التي خُصِّصت له فيها مقصورةٌ منفصلة. وبمجرد ظهوره، رحَّبَ به أحدُ الأصدقاء؛ أو على الأقل شخصٌ يعرف ملامحه جيدًا.

«مساء الخير، يا سيد ويلسون. لقد أتيتَ مبكرًا هذا الأسبوع. إنه لمن الجيد أن نحصل على المال في موعد مبكر. أتمنى أن تستمتع بإجازتك، يا سيد ويلسون.»

تُجسد هذه الجمل التمنياتِ السارةَ لأصدقائه القدامى، ومع اختلافات طفيفة، فإنها تؤكِّد رسالةَ جميع التحيات التي تلقاها وجوهرها.

ومع ترحيب كلِّ صديق بالكاتِب، يأخذ المالَ المخصَّص إلى محطة معينة، وخلال وقت قصير يُعاود القطارُ التحركَ مجددًا.

وفي بعض الحالات لا يتوقف القطارُ على الإطلاق. حيث يُلقى منه طردُ الأموال بالطريقة نفسها التي تُلقى بها أكياسُ البريد؛ وينتظر أحدُ الموظفين في يوم الخميس هذا، كما في أيام الجمعة السابقة، على رصيف المحطة لتلقِّي ذلك الطرد المنتظر.

في إحدى المحطات — وهي محطة كبيرة — أُصيبَ رجلٌ، كان هناك ينتظر بصبر استلامَ الأموال من السيد ويلسون، بخيبة أمل. أحدُ المعارف القدامى لمح كاتِبَ النقود بينما كان القطار يُبطئ من سرعته.

وبعد المصافحة السريعة، أعطى ويلسون المالَ إلى كاتِب المحطة.

قال ويلسون: «تفضَّل.»

قال الآخر مستفسِرًا: «ماذا؟»

«المالُ المخصَّص للأجور.»

«لكن اليوم هو الخميس.»

«أجل؛ فإجازتي ستبدأ غدًا.»

«أوه! حسنًا. في رأيي؛ سيانٌ هو الأمر بين اليوم والغد، لكن لماذا لم تقل إنك قادمٌ اليوم؟ فأنا لم أكن أنتظرك؛ لكن رأيتُك بالصدفة، ويا لها من مزحةٍ مروعة لو أنك اضطُرِرت إلى إعادة المال مرة أخرى إلى لندن!»

«لقد أرسلتُ إليكم برقيةً يوم الإثنين.»

«حقًّا! لم يُخبرني المديرُ بأيِّ شيء عنها. إنه معتادٌ على ذلك؛ لكن لا تَشغَل بالك، فأنا أتكتَّم على إهماله. إنه رجلٌ طيب.»

ثم تحرَّك القطار مرةً أخرى، وغادرَ اللصُّ الذي كان ينتظر الكاتِب خاليَ الوفاض.

وضاعت الأموالُ من محطة أخرى. وهذا يعني أنها لم تصل إلى الأيدي التي قصَدها محصِّلُ الشركة، ولا أولئك الذين وضَعوا خُطة لتحويلها إلى قنواتٍ أخرى. لكنها ذهبت في اتجاهٍ لم يُفكر فيه أيٌّ من الطرفين.

لم يتوقف القطارُ في تلك المحطة، وكان هناك رجلٌ ينتظر لتلقِّي المال، لكن تحركاته، كما ظنَّ، كانت ملحوظة. لقد كان حذرًا؛ وربما جبانًا بلا داعٍ. لقد ظنَّ أنه عندما اقتربَ القطار كان هناك رجلان يُراقبانه من مكتب مدير المحطة. ولذا استدارَ، ودخلَ المحطة، وسألَ عن موعد وصول القطار التالي الذي يتوقَّف عند تلك المحطة، ثم تسلَّل بعيدًا.

وصلَ ويلسون إلى تلك المحطة في الوقت المناسب، ورأى مَنْ ظنَّ أنه رجلٌ ينتظره. ولسوء الحظ، لم تقبض العجلات على القضبان بشكل صحيح ولم يبطئ القطار من سرعته، بسبب الرطوبة وانزلاقها، لذلك لم يكن لديه وقتٌ كافٍ ليتحقَّق من ملامح مَن ينتظره، على الرغم من أنَّ حالة الجو جعلت التحقُّق الدقيقَ ضروريًّا للغاية. ومِن ثَمَّ ظنَّ الموظف غيرُ الحذِر (وأعتقدُ أنني يجب، بعد كل البدلات العادلة، أن أقول مهملٌ للغاية)، أنه قد سلَّم الطرد إلى يد المسئول الذي ينتظره، لكن ما حدث هو أنَّ الطرد ظلَّ هناك دون أن يُلاحظه أحدٌ حتى الصباح.

ثم رآه رجلٌ عجوز وامرأة، من ركَّاب قطار السوق، فالتقطه الرجل، واصطحبه إلى المنزل، ولم يقل شيئًا، لكنه أدخله في حفرة داخل مدخنة المنزل لمدَّة طويلة؛ وبعد ذلك أبلغا

قسَّ الرعية أنَّ عم والدة الزوج أرسل لهما هذا المال. كان مقدارَ إرثٍ مستحَق للزوجة، كما زعم. ورأى رجلُ الدين أنه من اللافت للنظر أن تصلَهما هذه الأموالُ على نحو مفاجئ، دون أن يعرف كلمةً واحدة عن أيِّ مراسلات سابقة مع المحامين؛ لكن القس لم يكن رجلًا متشككًا، ولم يطلب أيَّ استبانة أو توضيح.

كان المبلغ، على الرغم من أنه ليس كبيرًا (نحو ٥٣ جنيهًا فقط)، أكثر بكثير من الحصَّة الأسبوعية المعتادة للأجور في المحطة التي أُسقِط فيها. فهي لا تتجاوز ثمانية جنيهات في الأسبوع. إلا أنه، كان هناك مبلغٌ مستحَق من الشركة لتاجر ماشية، كتعويضٍ عن إتلاف غير منشور لجزءٍ من حمولته؛ وأُرسِلَ هذا المبلغ مع الأجور إلى مدير المحطة، مع توجيهاتٍ صارمة حول صيغة الإيصال الذي سيأخذه مقابلَ المبلغ.

نصحَ رجلُ الدين بأن تُوضَع الأموال تحت إشراف السادة سيل ودليفري، المحامين الموقَّرين في البلدة «إتش» المجاورة. وقد مهَّد الأمر لهؤلاء السادة بخطابٍ شرحَ فيه الموضوع مثلما شُرِحَ له؛ وقد أعفى ذلك التمهيدُ، مع تفسيره، من كلِّ التساؤلات حول مصدر الأموال، التي استثمروها بشكلٍ مربح للزوجين اللذين ليس لهما أولاد، واللذين لن يتمتَّعا بقرشٍ واحد منها.

كانت عمليتا التسليم الخاطئ اللتان ذكَرتُهما بمثابة الإخفاق الوحيد لخطة العصابة من أجل الحصول على حصة أسبوعٍ كامل من الأجور عبر كل محطات خطِّ السكة الحديدية لشركة جريت للسكك الحديدية.

وفي اليوم التالي (الجمعة) ذهبَ السيد ويلسون في رحلة إلى باريس خلال إجازته. كان عمَّال الشركة ينتظرونه كالمعتاد، باستثناء المحطة الوحيدة التي تسلَّمَت الأموال المخصَّصة لاستخدامها بالصدفة البحتة. لا داعي للقول إنه لا السيد ويلسون ولا الأموال وصلَت إلى أيٍّ من هذه الأماكن في لندن، كما كان متوقعًا. حتى وقتٍ متأخر من وقتِ ما بعد الظهر، وبعد أن أُغلِقَ مكتب كبير المحصلين، وعاد ذلك الموظف الكبير وجميع موظفيه إلى منازلهم، لم يُذكَر أيٌّ في هذا الشأن. ولم ينكشف الأمر حتى ذلك الحين؛ ولكن بمجرد أن أصبحت الحقيقةُ موضعَ ملاحظةٍ لدى الجميع، تطورَت لتُصبح تظلمًا عامًّا، وهدَّدت بالتحوُّل إلى فضيحة.

قال أحد الحمَّالين في إحدى المحطات البعيدة لحارس قطار عائدٍ إلى العاصمة: «لم نحصل على أجورنا، ومن غير المحتمل أن نحصل على أيِّ شيء حتى الغد.»

أجابه الحارس: «أوه، هُراء؛ لا تحاول فعل هذا معي، أفَهِمت. لن أُقرِضَك شلنًا آخرَ على عجل.» حيث كان قبل يومين قد أقرضَ هذا المبلغ الصغير للحمَّال الطيب.

قال الحمَّال: «أقسمُ لك إننا لم نحصل على أجورنا.» واستشهدَ بزملائه الحمَّالين كي يؤكدوا كلامه، وقد فعلوا.

قال الحارس: «سيصبح كلُّ شيء على ما يُرام غدًا، أظن أنَّ كبير المحصلين يُعاني من صداع ولم يذهب إلى المكتب، أو أنَّ ويلسون يعاني من آلام في البطن، أو شيء بسيط أو غيره. حسنًا، من حُسن حظي أن زوجتي العجوز غيرُ مفلسة؛ كي تتمكَّن من الذَّهاب إلى السوق، لو كان وضعُنا سيئًا في محطتنا مثلكم هنا؛ لكنَّا جميعًا في المأزق نفسه.»

كان الحمَّالون أقلَّ قدرةً على مواجهة الموقف بهدوءٍ. إذ إن جميع ترتيباتهم المنزلية والشخصية تعتمد على أجر الأسبوع الذي يحصلون عليه يوم الجمعة، وليس يومًا آخَر. ربما سُمح للزوجات بتأجيل شراء اللحم يوم الأحد وبقية مستلزمات الأسبوع الضرورية من المؤن، لكن كل رجل كان لديه ارتباطات لا يُمكن تأجيلُها بسهولة. إذ يتجمَّع الحمَّالون كلَّ ليلة جمعة في حانة لقضاء ساعةٍ من البهجة. هل يجب التضحيةُ بهذه المتعة، أو حتى تأجيلها؟ لقد كان هذا أكثرَ مما يُمكن أن تتحمَّله الطبيعة البشرية، التي جُبِل عليها حمَّالُ السكك الحديدية، دون احتجاجاتٍ مدويَّة وعميقة. هل يجب السخريةُ منهم والاستهزاء بهم، وإبلاغهم بأن الشركةَ مُعسِرة، وأنَّ أصحاب العمل لا يستطيعون سدادَ أجورهم؟ كان هذا سيئًا للغاية. أليس لديهم مشاعرُ مثل سكرتير، أو مدير عام، أو عضو مجلس إدارة، أو رئيس مجلس إدارة؟ كان هذا هو ما يُريدون معرفته. كانوا يقصدون أن يقولوا إنها واقعة مُخزية، وفاضحة، وفظيعة، وبغيضة، وتستحق صفاتٍ أقسى. هذا ليس فقط ما قصَدوا قوله، وإنما هو ما قالوه بالفعل.

وانتشرَت الأخبارُ خلال الليل صعودًا وهبوطًا عبر الخط، وجميع محطاته. وفي الصباح وصلَ الخبرُ إلى السكرتير وكبير المحصلين. كانت ملابساتُ القضية غريبةً للغاية، لدرجة أنَّ هؤلاء الموظَّفين الكبار شعروا بأنهم غيرُ مؤهلين للتعامُل معها. فسارعَ السكرتير إلى التشاور مع رئيس مجلس الإدارة، الذي استشار مرةً أخرى اثنَين من زملائه، تصادفَ حضورُهما، ونتيجةً لذلك، اتُّخِذت خطواتٌ معينة.

بادئ ذي بدءٍ، سُحِبَ شيكٌ على البنك الذي تتعامل معه الشركة بقيمة المبلغ المسروق منهم — بالضبط ٢٣١٠ جنيهات و١٨ شلنًا و٦ قروش — وأُرسِل كاتبٌ إلى جميع

المحطات لإرضاء جميع العمَّال الساخطين، الذين تصاعدَت صيحاتُ غضبهم وهم يُطالبون بأجورهم، وتهدئتهم.

كان تصرُّف ويلسون موضوعَ دراسةٍ جادَّة. هل يُمكن أن يكون قد هرَب بالمال؟ كيف يُمكن أن تحدث عمليةُ السرقة دون مشاركته أو تواطُئِه؟ ماذا كانت صفاتُه الشخصية فيما سبق؟ ما هي التَّزكيات التي قدَّمها إلى الشركة عندما دخَل الخدمة لأول مرة، منذ خمسِ سنوات؟ كانت الإجابات عن الأسئلة الأخيرة مُرضِيةً. لكنَّ الأولى لم تكن كذلك. ردَّد كبيرُ المحصلين رأيًا عامًّا عندما أعلنَ أنه لا يعتقد أنَّ ويلسون قادرٌ على مثلِ هذه السرقة الحقيرة والضخمة. ومع ذلك، فإنَّ رئيس مجلس الإدارة والسكرتير لم يتفهَّما كيف يُمكن أن تُرتكَب هذه الجريمة دون تواطُئِه، أو، حسَبما اعتقدا، دون مشاركته الفعالة. وتساءَلا مِرارًا وتَكرارًا كيف يمكن أن يحدث ذلك رغم يقظته؟ وفتَّشوا الأوراق وفحصوا سجلَّ التزكيات الخاصة بالكتبة لمعرفة نوع التزكيات التي قدَّمها عند تقدُّمه للعمل موظَّفًا لديهم. وكانت جميعها تزكياتٍ جيدةً للغاية. فجميعها كانت تُشيد به وتعطي ضمانةً كافية لإخلاصه في أيِّ موقع ينضمُّ إليه. مرارًا وتَكرارًا، دفعَتهم هذه الاستفساراتُ إلى السؤال، كيف يُمكن أن يحدث ذلك دون تواطُئِه على الأقل؟ فأسلوبُ حياته وعاداته وأخلاقه ومحادثاته وكيفية تفكيره وأذواقه المعروفة كانت غيرَ متسِقة مع نظرية إجرامه. مرةً أخرى، أكَّد رئيس مجلس الإدارة أنه سمعَ عن الأوغاد الذين استطاعوا إخفاءَ حقيقتهم الإجرامية، ووجَدوا فُرصَهم لارتكابِ الجريمة، عبر تصنُّعِهم المستدام للفضيلة. وكان متأكدًا تمامًا من أن ذلك الرجل ويلسون شريكٌ في الجريمة، إن لم يكن أيضًا مُدبرًا لها.

ومِن ثَمَّ صدَرَت تعليماتٌ إلى محامي الشركة باتخاذ الخطوات التي قد يرَونها مناسبةً في القضية. وقد استشاروني في الأمر، وأخبرتهم بأن رأيي القاطع هو أن الوقائع يمكن أن تُفسَّر لصالح براءة الكاتِب مثلما يُمكن أن تُفسَّر لصالح إدانته. كانت هذه وجهة نظر في القضية لم تخطر ببالِ المحامين. حيث يتَّسم المحامون بنوعٍ من الغريزة الثانية، مما يجعلهم دائمًا يميلون إلى الجانب المظلِم من السلوك والأحداث. وهذا صحيحٌ بشكل خاصٍّ بالنسبة إلى المحامين الجنائيين. إذ لا يستطيع المحامي المعتاد الذي يترافع أمام المحكمة الجنائية المركزية فهمَ نظرية البراءة. وسيُصبح من الأسهل بكثيرٍ إقناعُ أيِّ قاضٍ أو هيئة محلَّفين ببراءة رجلٍ أو امرأة متهمين، أكثرَ من إقناع ذلك الرجل المتمكِّن البارع ذي الأنف المعقوف والصوت الرخيم، المعروف باسم «المحامي العام للصوص»، في مدينة لندن. ولكن ما الذي يُهمُّه بشأن إدانة موكليه أو براءتهم؟ لا شيء حرفيًّا. تحت التأثير اللطيف للأتعاب،

سيتحدَّث ببلاغة (في رأيه ورأي شخص آخر) ويدَّعي بصوت عالٍ أن موكله غيرُ مذنب بالفعل، سواءٌ كان كذلك أم لا. إذا كان هناك أيُّ شيء يُفضِّله، كما يقول في كثير من الأحيان، فهو أن يحصل على اعترافٍ بارتكاب الجريمة من المتهم؛ لأنه يعلم حينَئذٍ أن موكله لا يخدعه، ويعتمد على معرفة الأسوأ، ويصبح متأكدًا من أنه لا توجد حقائقُ مخفيةٌ عنه، ويُمكنه أن يُحدِّد إلى أيِّ مدًى يُصبح من الآمن تنفيذُ انتقاده أو استجوابِه للشهود. ولم يكن محامو الشركة، وهذه هي الحقيقة، رجالًا يتَّسمون بهذا الطابَع بالضبط. ومع ذلك، فقد رأَوا في حياتهم المِهْنية الكثيرَ جدًّا من الفساد والشر في البشر، والقليلَ جدًّا من السِّمات العليا للطبيعة البشرية، لدرجة أنهم كانوا مستعدِّين دائمًا لقَبول الفرضيات السلبية في تفسير السلوك البشري، وأقل تقبلًا للنظريات الإيجابية بدلًا منها. كان من الصعب إقناعُهم بأن ويلسون ربما يكون بريئًا من المشاركة في السرقة. ومع ذلك، بعد مدَّة، وبعد دراسةٍ متأنِّية لجميع الأسباب التي قدَّمتُها ضد الاعتقال الفوري للكاتِب واتهامه، أقروا بأنه من الوارد أنه لم يُساعد المتآمرين واللصوص إلا من خلال إهماله الجسيم الذي يستحق الإدانة.

ومِن ثَمَّ تأكدتُ بسرعة من كيفية قضاء ويلسون لإجازته ومكانها. حيث تقرر أن أتبعه وأُراقبه. وإذا وافق على العودة معي عندما ألحق به، فلن أعتقله بشكلٍ قانوني. ومع ذلك، في حالة ما إذا رفض، أو أظهرَ أيَّ ممانعة للعودة، فقد صدرَت أوامرُ بالقبض عليه في باريس وتسليمه، ووُكِّلتْ هذه المهمة إلى أحد ضبَّاط التحقيق الذي كان يُرافقني، وكانت لديه تعليماتٌ بإطاعة توجيهاتي.

وهكذا، ذهبنا إلى باريس مسلَّحين بتلك الاحتياطات. ولم يكن من الصعبِ اكتشافُ الكاتِب المشتبَه به. لقد كانت واحدةً من أسهل المهامِّ التي كُلِّفتُ بها على الإطلاق. حيث اكتشفتُ الفندق الذي يُقيم فيه. لكنه لم يكن موجودًا عندما وصلنا إلى هناك، في وقتٍ مبكر إلى حدٍّ ما من المساء. فتركتُ رفيقي بمذكرة الاحتجاز في الفندق، بينما ذهبتُ في مهمتي، بحثًا عن السيد ويلسون.

كان لديَّ دافعٌ خاص لهذا الجزء من خُطتي الصغيرة. لم أكن أعتقد أنَّ الرجل سيعود أثناء غيابي عن الفندق. واعتقدتُ أنه من المرجَّح — حيث كنتُ أعرف طريقي في باريس، وعلى درايةٍ بمؤسَّسات عاصمة الحرية والانفتاح، وأعلم أنه يُمكنني الحصول على مساعدةٍ من الشرطة الفَرَنسية في بحثي، ولأسباب أخرى — أنه ينبغي أن أحضر السيد ويلسون إلى الفندق، وهو محتجَزٌ بالفعل، على الرغم من أنه ليس احتجازًا رسميًّا. وفي حالة عدم العثور عليه خارجَ الفندق، قررتُ العودة وحدي إلى الفندق في وقتٍ مناسب حتى أتمكنَ

من مقابلته. كنتُ أرغب في أن أكون أولَ من يتحدث إليه، وإذا كان بإمكاني، أن أتحدث إليه في غياب زميلي الذي يرافقني في الرحلة، متسلحًا بسلطته.

قد يسألني القارئ: لماذا أردتَ أن تأخذ هذه المَيْزة من ضابط القانون؟ والحقيقة هي أنني لم أكن أريد أيَّ مَيزة من هذا القَبيل. فأنا الذي كنت سأمنحه مَيزة، ربما قد تخدم دورَه في سكوتلاند يارد، لو كان بإمكاني فعلُ ذلك بما أعتبره عادلًا تجاه المشتبَهِ به. لم أكن أرغب في أن تؤديَ ظروفُ القبض عليه إلى وجود تحاملٍ عليه من قِبل أصحاب عمله، وربما أمام محكمة جنائية. لقد أوحت لي خبرتي بالطبيعة البشرية والمجتمع أنَّ هذا الشاب، عندما يكون بعيدًا جدًّا عن مقرِّ عمله، وبعيدًا، كما يفترض، عن عيون أصحاب العمل وآذانهم، وقد أصبح مِزاجه رائقًا في العطلة، ربما يزور بعضَ الأماكن، التي يعتقد الكثير من أصحاب المبادئ السليمة أنها أماكنُ غيرُ لائقة، وأنا واحدٌ منهم، على الأقل في هذا الصدد. وحيث إنني أشعر أن وطأة الشك، قبل إثبات الذنب، تحمل بالفعل تحاملًا لا داعي له على الكاتِب، فقد اعتقدتُ أنه من الخطأ تركُ وطأة عنصر آخرَ (مهما كان عادلًا في حدِّ ذاته) تضاف إلى عبء التحامُل. ولو كنتُ في هذه المهمة، كما كنتُ غالبًا في مناسبات أخرى، مكلَّفًا بمراقبة التحرُّكات الترفيهية وتعقب الكاتِب في العطلة، حتى يتمكَّن أصحابُ العمل من خلال تقريري من تحديدِ ما إذا كان لائقًا لِشَغلِ وظيفته أم لا، لما كانت لديَّ أيُّ رغبة في عرض وقائع زيارة السيد ويلسون لباريس. لقد رأيتُ هنا أو اعتقدتُ أنني رأيت أنه من واجبي إعادته إلى لندن، حتى يتمكَّن من تقديم تفسيراته قدرَ استطاعته حول جريمةٍ معينة. وللقيام بذلك على نحو فعَّال، أشرتُ إلى أنه من المستحسَن، من أجل صالحه حقًّا، وأيضًا من أجل صالح العدالة، ألَّا يُواجه أي تحيُّز لم يُبرره سجلُّ التزكيات الخاصة بالكتَبة، وأصحاب عمله السابق، وسلوكه العام. كان هذا، كما آمُل أن يتفهَّم القارئ، مجردَ توفير لقدر بسيط من العدالة للمشتبَه به. واسمحوا لي أن أضيف، أنني تنبأتُ، بأنه إذا كان الكاتِب بريئًا بالفعل، ولكن أدى التحيز إلى القبض عليه دون وجهِ حق، فإن الجُناة الحقيقيِّين سيحصلون في هذه الحالة على تحذير فعَّالٍ كي يُدمروا أيَّ دليل بينما مطاردوهم يتبعون المسارَ الخطأ. وأيًّا كان ما قد يظنُّه القارئ، فأنا صريحٌ بما يكفي لأقولَ إنَّ اقتناعي لن يتغيَّر بأنني تصرفتُ حتى الآن بحِكمة وعدالة.

ومِن ثَمَّ عثرتُ على ويلسون، مرتديًا ملابسَ غريبةً بعض الشيء، في قاعة رقص بالعاصمة الفرنسية. حيث أشار إليه أحدُ حراس الأمن على أنه وافدٌ جديد. وقد تأكدتُ من هُويته بفحصِ صورته التي بحوزتي.

اقتربتُ منه وسألته: «هل أنت السيد ويلسون؟»

«أجل هذا هو اسمي.»

«أنا أعرفُ ذلك جيدًا. أريد أن أتكلم معك.»

«مَن أنت؟ ما هو اسمك؟ وماذا تريد مني؟»

«إذا تنحَّيتَ جانبًا إلى الطرَف الآخر من القاعة، وتركتَ هذه السيدة الشابة الجميلة هنا، فسوف أخبرك.»

«أنت ...»

أوقفتُ ما تبقى من الجملة بنظرةٍ أرعبَته.

همستُ في أذنه أنني أريده، وإذا لم يُطِعْني، فسأطلب من الشرطة، الموجودة داخل وكر الحماقة والرذيلة هذا وخارجه، أن تُلقي القبض عليه، بتهمة سرقة أصحاب عمله، شركة السكك الحديدية، والاستيلاء على مبلغ ٢٣١٠ جنيهات و١٨ شلنًا و٦ قروش؛ ولكن إذا تبعني عائدًا إلى الفندق الذي يُقيم فيه، ومن هناك إلى لندن، فستُصبح لديه فرصةٌ لتقديم أيِّ توضيح يريده بشأن القضية.

ومِن ثَمَّ تركَ رفيقتَه الرقيقة، وانتقلنا معًا إلى الجهة الأخرى من القاعة، حيث تمكنَّا من إجراء محادثتنا دون أن يسمعَنا أحد؛ وأخبرتُه بمزيدٍ من التفصيل عن ملابَسات السرقة. وبطبيعة الحال أنكرَ أيَّ معرفة بالقضية، وقال إنه غيرُ قادر تمامًا على تفسير ذلك، وعلى الرغم من أنه كان من السهل رؤيةُ الرعب الناتج عن الاشتباه الواضح فيه، فقد أعربَ عن رغبته الشديدة في العودة معي إلى إنجلترا، وتقديم كلِّ المساعدة التي يستطيعها لكشف الجناة.

وقد شرحتُ له أسبابَ عدم السماح لصديقي الذي يحمل مذكرة الاحتجاز بالقبض على ويلسون. وكان ممتنًّا للغاية. وأخبرتُه أنه إذا تبعني للخارج، فسأسمح له أن يشقَّ طريقه، تحت مراقبتي، إلى أحد المقاهي الجيدة في بوليفارد، حيث يجب أن آخذَه إلى عهدتي. كان البائسُ الوضيع سعيدًا بما يكفي للاستفادة من هذا الامتياز.

ومِن ثَمَّ أرسلتُ برقيةً بنجاحي في المهمة تلك الليلة. واستقلَلْنا قطارًا مبكرًا في صباح اليوم التالي في طريق عودتنا إلى الوطن، ووصلنا إلى لندن في مساء اليوم نفسه في وقتٍ مناسب. ووافقَ السيد ويلسون على أن يُصبح ضيفي هذا المساء، فإما أن تجبرني ضغوطُ الواجب على تسليمه إلى الشرطة، أو يُصبح من دواعي سروري أن أعلن أنه لم يعد قيدَ الاعتقال.

في اليوم التالي لعودتي إلى لندن عُقِدَ مؤتمرٌ رسمي في المقر الرئيسي لشركة السكك الحديدية. حيث عقَد هذا المجلسُ الموقَّر، مجلس الإدارة، اجتماعًا خاصًّا على عجَل. وبحث الأمر برمَّته في ضوء الحقائق التي أصبح مسئولو الشركة ومستشاروها على علمٍ بها الآن. كما عُقِدت اجتماعاتٌ مصغَّرة وأخرى إضافية في غرفة الانتظار بيني وبين الشريك الرئيسي للشركة الذي اتخذ قرارَ التعيين المربح والمشرف لمحامي الشركة. كانت نتيجة المداولات مجتمعة، قرارًا بعدم مقاضاة الكاتِب المشتبَه به؛ لأنه لم يكن هناك أدلةٌ كافية في متناول اليد لتبرير الإدانة؛ وقرارًا آخر، بأنه نظرًا إلى وجود دليلٍ أكثرَ من كافٍ لتبرير الشكِّ القوي في تواطُئِه في القضية — حيث كان هناك دليلٌ وافٍ على الإهمال الجسيم — ومِن ثمَّ، يجب فصل الكاتِب ويلسون.

لكن لم تكن ضحيةٌ واحدة كافيةً للتعويض عن خَسارة الكثير من المال، فقد فُصِل الكاتِبان الآخران — أحدهما في مكتب كبير المحصلين والآخر في قسم البرقيات — من وظيفتَيهما.

كان الجزءُ غيرُ المرضي بشدةٍ في هذه القضية، في رأيي، هو التخلِّيَ عن أي بحث إضافي عن الجناة. ولم أحصل على أي تفسيراتٍ لشرح هذا القرار المفاجئ وغير المعتاد. وأظن أنَّ السبب هو عدمُ الرغبة في السماح بالإعلان، في جميع أنحاء العالم، عن علامةٍ واضحة مثل هذه على الضعف الإداريِّ في المقر الرئيسي، ومن المركز إلى أبعدِ نقطةٍ في محيط العمليات المالية للشركة. وقد عرَفتُ شركاتٍ مساهمةً وشركاتٍ تِجارية كبرى استسلمَت بهدوء أمام تعرُّضِها لخسائرَ أكبر بكثير من أجل سببٍ مماثل. فمثلًا عندما اكتشفَت إحدى أقدم وأغنى وأشهر شركات تداوُل السَّندات المالية في مدينة لندن أنَّ شريكها الرئيسيَّ بالوكالة قد أقرضَ مبلغًا هائلًا من المال إلى شركةٍ ناشئة من المتداولين بموجب سندات أوامر رسوٍّ مزوَّرة، قررَت عدم مقاضاة الأوغاد؛ لأنَّ السادة الذين وقَعوا ضحية الاحتيال، والذين يُدركون أهميتهم الخاصة، كانوا يخشَون أنه إذا أصبح من المعروف في لومبارد ستريت أنهم، وهم الشركة الكبرى، والعريقة، والثرية، والخبيرة، قد تعرَّضوا للاحتيال، فإنَّ كل السندات المالية المتداولة في أسواق لندن ستفقد مصداقيتها، وسيُصيب الذعرُ كلَّ المتداولين، وسيتورط مصرفيُّو العاصمة في مشكلات قد تزعج الكثيرَ منهم، وسيتعين على محافظ بنك إنجلترا حماية الأصول المالية للبنك، وخفض ائتماناته إلى الحدِّ الأدنى، وفي الواقع، أنه بسبب عملية احتيالٍ ضخمة واحدة سيعمُّ اليأس، أو الانهيار، أو الفوضى داخل دائرة يبلغ نصفُ قطرها نصفَ ميل حول البورصة الملكية (حيث يتجمَّع ملوك الذهب، وهم

المحكَّمون والمتحكِّمون في التصنيع داخل جميع أنحاء إنجلترا وخارجها أيضًا). هل أُبالغ في القضية؟ دَعِ القارئ الذي يعتقد ذلك يفحص الأدلة التي قدَّمها السيد تشابمان، من الشركة الشهيرة أوفريند وجورني وشركاه، في محكمة الإفلاس بلندن، وفي المحكمة الجنائية المركزية، في الإجراءات المتخذة ضد السادة ... أو، إذا لم يكن قادرًا على معرفة تفاصيلِ هذه القضية الشهيرة بسهولة، فَدَعْه يسأل أيَّ صديق يعرف تاريخ البنوك البريطانية والتِّجارة البريطانية خلال العشرين عامًا الماضية، وسيُزوده هذا الصديقُ بعددٍ مماثل على الأقل من الحالات المؤثرة للخداع والتزوير والاحتيال التي لم يُحقَّق فيها للأسف، أو حدث التحقيق والإدانة، وانتهى الأمر بالتغاضي عنها سرًّا، وهكذا أتخيَّل أن مثل هذه الأسباب هي التي دفعت مجلس إدارة شركة السكك الحديدية لاتخاذ قرارهم هذا في القضية الحاليَّة. كما أعتقد أن أيَّ رجل خبير، لديه خبرةٌ كبيرة في ممارسة الأعمال التِّجارية، لن يتجاهل احتمالية دافعي المقترح. لا أقول إن السبب المشارَ إليه هو السببُ العمَلي في هذه الحالة، لكنني أعتقد أنه كان كذلك، وأقول إنني أعتقد أنه كان؛ ويمكن للقارئ الذكيِّ أن يُكوِّن رأيه الخاصَّ حول صحة فرضيتي أو خطئها.

قد يكون من المقبول تقديمُ مزيدٍ من التوضيح (حيث يُسعدني كثيرًا القيامُ بذلك)، أنه على الرغم من أنني لم أتلقَّ تعليماتٍ بالقبض على مرتكبي هذه الجريمة، فقد طُلِبَ مني مساعدةُ مسئولي الشركة في صياغة الترتيبات التي تجعل من المستحيل تَكرار مثلِ هذه السرقة بنجاح. وبمساعدة مسئولي الشركة، فعلتُ ذلك، ويُسعدني أن أعرف أنه إذا وُضعت أيُّ خطط أخرى بعد ذلك بالوصفِ نفسِه من أجل السرقة، فلن يتمكَّن اللصوصُ من تنفيذها مطلقًا. ولا بد أن معرفة العوائق التي تحول دونَ تحقيق تلك الخُطط قد وجَّهَت إنذارًا إلى مَنْ تُسول له نفسه أن يتآمر على الشركة.

إنَّ القارئ الذي يرغب في رؤية العدالة الشاعرية تقتصُّ دون مماطلةٍ من كلِّ مذنب بمجرد ارتكاب الخطأ، قد يُصبح حزينًا عندما يعلم أنَّ عصابة من الأشرار أفلتَت من عقابها الذي تستحقُّه. لقد جَرَّبتُ هذا الشعور. لا أعتقدُ أنَّ ويلسون كان متورطًا في عملية الاحتيال، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول إنَّ الدليل على إيماني مكتملٌ للغاية مثلما كنتُ أتمنى. ومع ذلك، فقد انهارَ تمامًا وبشكل ميئوسٍ منه، بسبب فصله من وظيفته في ظل ظروف من الشكِّ الشديد؛ وإذا كانت أسوأُ اتهاماته هي الإهمالَ (كما أفترض)، فقد كانت عقوبتُه شديدةَ القسوة. في المرة الأخيرة التي رأيته فيها (منذ أقل من ستةِ أشهر) كان يبيع علبًا صغيرة من الأدوات المكتبية في كشك في أحد الأسواق الشعبية في غرب لندن.

قد يشعر القارئ الذي أشَرنا إليه مؤخرًا بقدرٍ مناسب من الارتياح بسبب الدليل الذي يُمكنني تقديمه بشأن تبرئة ساحة العدالة من تهمة عدم القِصاص من كل أفراد العصابة المشاركين في تلك المكيدة الكبرى. حيث قبضتُ على أربعة منهم بعد فترة قصيرة بسبب ارتكابهم جريمة أخرى، وتطوَّع أحدُهم بتوضيح حقائقِ تلك القضية (مثلما فعل كلٌّ واحد من الأربعة)، على أمل أن ينالَ امتيازات ما يُسميه الأيرلنديون شاهدَ الإثبات. خلال هذه المحادثة (بعد أن أكمل اعترافه بالجريمة التي اتُّهِم بها آنذاك) أخبرني أنه تورط أيضًا في قضيتنا هذه مع جميع شركائه الحاليِّين في الجريمة، الذين كانوا آخِرَ مجموعة من أفراد العصابة أفلتَت من العدالة حتى ذلك التاريخ.

قصة من العدالة الجنائية

منذ مدَّة من الزمن، ارتُكِبت عمليةُ سطو في قصر اللورد إتش، الذي يقع في أحد ميادين بلجرافيا. وقد نجحَ اللصوص في الحصول على غنيمة مجزية. حيث سرَقوا الأطقُم الذهبية بأكملها، وكذلك الكثير من المجوهرات، التي تخصُّ السيدة إتش، وهي ذاتُ قيمة هائلة.

ظلَّت الطريقة التي تمكَّن بها اللصوصُ من الوصول إلى المبنى غامضةً تمامًا لمدَّة طويلة. كانت الملابَسات الظاهرية تُبرر الاعتقاد بأن واحدًا أو أكثرَ من خُدَّام سيادته أو سيادتها قد ساعدوا وحرَّضوا على السرقة. لكن لم يكن هناك أيُّ أثر لما يُسمى بالأدلة القانونية لإجازة هذا الشك أو تبريره. ومِن ثَمَّ لم يُقبَض على أيٍّ شخص قريب من الأسرة؛ ولكن رُصِدت مكافأةٌ للكشف عن المجرمين، واستُنفِدَت جهود الشرطة العادية في محاولة تعقب الجُناة.

وهكذا مرَّت أسابيعُ وشهور (حوالي ثلاثة شهور)، ولم يُقدَّم أحدٌ إلى العدالة.

فانزعج سيادة اللورد إلى أبعد الحدود بسبب إخفاق العدالة. وذات يوم ذهبَ إلى محاميه، معلنًا أنه سيُنفق نصف ثروته، إذا لزم الأمر، من أجل القبض على الجاني ومعاقبته على فِعلته.

لا أعرفُ مدى مساهمة السيدة إتش في اتخاذ هذا القرار، لكن لديَّ فكرة أن هناك الكثيرَ مما يدعوها إلى المشاركة في اتخاذه؛ فمن المؤكَّد بما لا يدع مجالًا للشك أنَّ فقدان مجوهراتها قد أضرَّ بمَعنوياتها، وأثار حنقَها إلى أقصى حد. ونظرًا إلى كونها حادةَ الطِّباع، فهي ستُوقع، حسبما أعتقد، الانتقام الفوريَّ على أشد اللصوص شراسةً إذا كان بإمكانها الإمساكُ به.

وقد انزعجَ محامو اللورد إتش إلى حدٍّ ما بسبب إخفاق الشرطة وعدم تمكنها من الكشف عن هوية المجرمين. ومِن ثَمَّ تواصلوا معي بشأن الموضوع، ووكَّلوني بالقضية بعد فترة.

لقد كانت قضيةً صعبة تنطوي على قدرٍ بالغ من التحدي. وسبَّبَت لي مشكلةً أكثرَ بعشر مرات من الكثير من القضايا الأكبر والأكثر أهمية. ومع ذلك، بعد أن وُكِّلت بها، أصبحتُ مصرًّا على المضيِّ قُدمًا فيها. وشعرتُ أنني لن أقعَ في حيرة من أمري.

ولمدة طويلة لم أتمكَّن من الحصول على دليل. وفي النهاية شممتُ رائحة فريستي، ومنذ تلك اللحظة كانت النتيجةُ مؤكَّدة، على الرغم من أنه لا يمكن الإيقاعُ بها إلا من خلال مسار دائري وملتوٍ.

وقد قبضتُ على الجاني الرئيسي في نهاية الأمر.

حيث نُفِّذت عملية السطو برُمَّتها من قِبل رجل وامرأة. وقد هرَبت المرأة فور القبض على الرجل. كان بإمكاني القبضُ عليها قبل الرجل، لكن لو فعلتُ ذلك كنت سأفقده. حيث كان القبض عليها سيُعطيه إشعارًا بالخطر المحدِق به؛ وفي الحقيقة، كنت غيرَ مبالٍ تقريبًا بشأن هروب المرأة إذا تمكَّنتُ من القبض على رفيقها.

كان اللورد إتش أكثرَ غضبًا من أي وقت مضى عندما تأكَّدَ من هوية المجرم؛ على الرغم من أنه أكدَّ لمحاميه، وفق ما أبلَغوني، أنه لم يكن لديه أدنى معرفةٍ بالرجل، ولم يفترض أنَّ الجانيَ لديه أيُّ معرفة به بخلاف ما قد يعرفه جميع لصوص لندن بشكل عامٍّ عن أحد النبلاء.

ظننتُ أنَّ هناك سببًا غامضًا أشعلَ هذه الرغبة في الانتقام لدى سيادته، إلى جانب التأثير الطبيعيِّ لخَسارته على عقله. كان ذلك كافيًا لتفسير تلك الرغبة المفرطة في الانتقام، لكنه لم يَبدُ لي دافعًا كافيًا للتصاعد المفاجئ لمثل تلك الرغبةِ منذ الكشف عن هُوية المجرم. وأنا لا أعلم، على الرغم من ذلك، ما إذا كانت شكوكي صحيحةً أو لا. فمن الوارد أن تكون غير صحيحة.

ومِن ثَمَّ مَثَلَ الجاني أمام قاضي التحقيق، بالطريقة المعتادة، وقُدِّم إليه طلبٌ بوضع المتهَم في الحبس الاحتياطي فوافقَ عليه. وقد عارضَ محامي السجين الطلبَ بكل قدرته الجدَلية ومهارته في الدفاع، ولكن دون جدوى. حيث ارتأت المحكمةُ أنَّ أصحاب الادِّعاء يستحقُّون كلَّ فرصة لاكتشاف مصير مقتنياتهم، ومِن ثَمَّ توريط السجين في دليل إدانته كي يجعل هروبه عبر ثغرات القانون مستحيلًا.

وفي النهاية عُرِضَت القضية على السجين بما يكفي من الوضوح، ليس فقط لتبريرِ إحالته للمحاكمة، ولكن لضمانِ إدانته عند إجراء تلك المحاكمة. وبِناءً على ذلك جرَت محاكمته.

وخلال الجلسات التالية، وجدت هيئةُ المحلفين الكبرى بالمحكمة الجنائية المركزية أنَّ لائحة الاتهام مدعومةٌ بما يكفي من الأدلة ضدَّ السجين، ووفق الإجراءات المعتادة وُضِعَ السجين في قفص الاتهام، ليخوضَ المحنة الكبرى ذاتَ الصِّلة بهذه القضية.

كانت المحكمة مزدحمةً إلى حدٍّ ما. وقد جذبت وقائعُ هذه السرقة انتباهَ الجمهور. حيث تضافرَت قيمة الأطقم الذهبية، ونُدرة الأحجار الكريمة، ودقة الجريمة واكتمال أركانها، لإضفاء جوٍّ من الأهمية العامة على القضية.

وداخلَ قاعةِ المحكمة، في انتظار المحاكمة بقلق شديد، حضرَ اللورد إتش والسيدة زوجته.

وفي رواق القاعة حضَرت امرأةٌ، ترتدي ثيابًا باهظةَ الثمن، تزيِّنها جوهرة ثمينة. لقد كانت، ربما، واحدةً من أجمل النساء في لندن؛ وكان جمالها من النوع الذي عادةً ما يُوصَف بالجمال الرقيق. كانت هناك رقَّة واضحة ولطف في التعبير يكمن وراء آثار المشاعر العميقة والمؤلمة التي أثارها شيءٌ متوقَّع.

استقرت عينا هذه المرأة الجميلة ذات الملابس الأنيقة على اللورد إتش والسيدة زوجته، اللذَين جلسا معًا على مقعد في يمين القاعة، على مسافة قصيرة من منصَّة القاضي، واللذَين كانا محطَّ أنظار الحضور الآخرين بجانب هذه المرأة المثيرة للإعجاب.

كانت القضية المنظورة أمام المحكمة آنذاك محاكمةً مملَّة بتهمة الشهادة الزُّور، وتحتوي على عدد كبير من الأدلة المتضاربة. ومِن ثَمَّ أصبحت مهامُّ القاضي وهيئةِ المحلفين صعبةً للغاية بسبب الكتلة المتشابكة من الحقيقة والخيال التي نسجَتها مهارةُ الادِّعاء وبراعة الدفاع أمام المحكمة. بالنسبة إلى الأطراف المهتمَّة بالقضية التالية — قضية سرقة الأطقم الذهبية — لا شك أن تلك الأدلة المتشابكة كانت مزعجةً للغاية، وكذلك بالنسبة إلى الرجل الموجود في قفص الاتهام، الذي ترتجف حريته في ميزان هذه الشهادة المتضاربة، أو حصافة أعضاء هيئة المحلفين وقدرتهم على التمييز.

بالتزامن مع الجزء الأخير من محاكمة الشهادة الزور، أجرى محاميا الدفاع، السيد سيرجنت بونديروس، والسيد أنتوني ستفجاون، مشاورةً مع السيد ويديل، محامي السجين.

وقد جرى التواصلُ مع هذا الأخير «الرجل النبيل وفقًا لقانون صادرٍ عن البرلمان» في الليلة السابقة. كان عبارةً عن رسالة كتبتها السيدة الجميلة الجالسة في رواق قاعة المحكمة، التي أجرَت أيضًا مقابلةً مع السيد ويديل في ذلك الصباح.

وقد اختِيرَ المكانُ الذي جلسَت فيه داخل المحكمة من قِبَل المستشار القانوني للسجين. حيث حسب بدقةٍ مقبولة مكانَ جلوس سيادة اللورد، وأراد لها أن تكون في نطاق رؤيته، دون أن تكون بارزةً للغاية بالنسبة إلى المشاهد العَرضي غيرِ المهتم.

كان المستشار القانوني للسجين، في هذا التشاور، قد أوضحَ للمحامي حيلتَه، أو التحوُّل الدراماتيكي المُستهدَف. ومِن ثَمَّ اعتبر الرقيبُ الخبير وزميله المبتدئ أنَّ الفكرة جيدة، ويمكن القول إنه قد وافق عليها؛ على الرغم من أنه، كما أوضَحوا، لم يكن من واجبهم المهنيِّ إبداءُ رأيٍ حول ذلك. عندما انتهت المشاورة، عاد المحامي إلى المحكمة، وجلس أحدهما على مقعده واستند الآخرُ بفتورٍ على درابزين مقاعد المحامين.

بينما وقفَ السيد ويديل على سلَّم المحكمة، مراقبًا بابَ الخروج من المحكمة، ومنتظرًا رؤيةَ تأثير حيلته الصغيرة.

تلقَّى حاجبُ المحكمة رسالة مطوية في شكل ثلاثي الأركان من يد شخصٍ ما، موجَّهةً إلى اللورد إتش، مع عُملة ذهبية صغيرة، طلبَ منه الاحتفاظ بها، وتسليم الرسالة إلى سيادة اللورد دون أن تراه السيدة زوجته.

وكان نصُّ الرسالة على النحو التالي:

رِواق قاعة محكمة الجنايات المركزية
١٩ يوليو ...١٨٥

سيدي اللورد، أستحلفك بالله، لا تُقاضِ أخي، وتقتل المخلصة لك كلارا!

وجَّه سيادته عينَيه نحو الرواق، ولأول مرة في ذلك المكان رأى شكل وملامح سيدة غير مجهولةٍ بالنسبة إليه، ولكنه كان قد قابلها كثيرًا في مكان آخر. كان لتلك العينين ومعرفة كاتِب الرسالة، تأثيرٌ عظيم في مشاعر الرجل النبيل المرهفة. ولذا أصبح وجهُه شاحبًا مثل الطباشير. وكان يرتجف تقريبًا مثل رجلٍ أصابه مرضُ رقاص سيدنهام. ثم أُصيبَ بالإغماء على الفور بعد أن وضَع الرسالة في جيبه دون أن يلحظها أحد.

تسبَّب هذا الحدثُ في الشعور الذي وصفه مراسلو الصحف اليومية بأنه إحساسٌ مؤلم في المحكمة. حيث نُقِل سيادته في عربته إلى مقر إقامته في ميدان ... سكوير، في بلجرافيا، دون أن ينطق بأكثرَ من جملةٍ واحدة.

كانت تلك الجملة التي نطقها هي أمرٌ لمحاميه بتأجيل المحاكمة.

وبعد فترة قصيرة، بدأت محاكمةُ الحِنْث باليمين، وانتهت بتبرئة السجين.

وبناءً على ذلك نهضَ السيد كيني، بصفته أحد محامي الادعاء، بعد اجتماعٍ مع نظيره الخبير المعيَّن للدفاع، وتوسَّل، نيابةً عن سيادته، بسبب المرض المفاجئ للمدَّعي، أن تؤجَّل محاكمة السجين. وقالوا إن محامي السجين شعَروا ببعض الصعوبة في معارضة الطلب بعد ما رأَوه، لكنهم أضافوا أنهم يعتقدون أن السجين، الذي لا دخلَ له بمرض سيادته، يحقُّ له الإفراج عنه بكفالة. فقال القاضي، بعد إلقاء نظرةٍ على الإفادات، إنه لا يرى أن المتهم يحقُّ له مثلُ هذه المطالبة، ورفضَ ربط هذا الشرط بتأجيل القضية، مثلما يلتمس الادِّعاء.

حافظت كلارا، التي شاهدت من الرواق كلَّ ما حدث، وقد أصغَت باهتمام إلى كلِّ كلمة قالها المحامون والقاضي، على رباطة جأشها، لكن ذهنها كان يموج بتفكيرٍ قَلِق. ثم غادرَت المحكمة عندما جرى التوصُّل إلى هذا القرار في قضية شقيقها؛ الذي كان، في الواقع، غيرَ مدركٍ تمامًا حتى هذه اللحظةِ لما حدث في غيابه، وعندما شُرِحَ له ذلك، لم يفهم سبب حدوثه.

ثم أُحضِرَ السجينُ مرة أخرى في الجلسة التالية للمحاكمة. وحضر سيادة اللورد لكن لم تحضر معه زوجته. فقد حثَّها زوجُها على البقاء في المنزل؛ لأنه أدرك تأثيرَ الأجواء البغيضة للمحكمة عليها. وعلى الرغم من أنه كان حتى اليومِ الأول للمحاكمة عازمًا على أن يُطالب للسجين بأقصى عقوبة يمكن أن توقَّع عليه، أصبحَ على استعدادٍ الآن لأن يلتمس له العفو.

ومِن ثَمَّ أُعيدت صياغةُ الأدلة، التي كشَفت في المذكرات التي قُدِّمت أصلًا إلى المحامي عن سلسلةٍ كاملة من الإثباتات. فقد احتوَت الآن على سرد يوضِّح الصعوبات التي تعترض نظرية الادعاء، وأسهبت في تبرير موقف المتهم ودحضِ الحُجَج ضدَّه. وأصبحت المذكرات الخاصة بالدفاع، التي قُدِّمت في الأصل دون أن تنص على أي ردٍّ محتمَل على التهمة، تحتوي الآن على نظريةٍ تُوفق بين الأدلة كما هي، أو كما كان من المتوقع أن تظل قائمة، مع إمكانية براءة المتهم.

ولم يردَّ شاهِدُ الادعاء على اسمه عند استدعائه؛ ويُمكن إبلاغ القارئ بأنَّ هذا الشاهِد قد تجاوزَ اختصاصَ أيِّ محكمة إنجليزية. وكانت النتيجة انهيارَ الادعاء وإطلاقَ سراح الجاني.

إنَّ تفسير هذا الإخفاق في تطبيق العدالة بسيط. لقد كانت كلارا الجميلةُ هي عشيقةَ اللورد النبيل. حيث أغواها بالفعل قبل بضعِ سنوات، وظلَّت تعيش منذ ذلك الحين (غيرَ معروفةٍ لزوجته) تحت حماية سيادته. وهي أخت السجين. لكنها بريئة من كلِّ مشاركة أو علم بالسرقة. ولم ترَ هذا الأخَ لسنوات عديدة. لقد كانا يتيمَين. وقد واجه كلاهما العالمَ في سنٍّ مبكرة للغاية من أجل كسبِ قوتِهما. وعندما كان عمرُها أقلَّ من ١٤ عامًا، عملت في أحد محلات القبَّعات في غرب لندن، ثم رُقِّيت إلى بائعةٍ في متجر في أكسفورد ستريت. أما هو فقد شغَل وظيفةً في مستودع بالمدينة، لكنه لم يحصل قط على ترقية من خلال إظهار أيِّ اجتهاد أو إخلاص من جانبه.

لقد ابتعدَ الأخُ والأختُ عن دروب الفضيلة في مسارَين مختلفين وفي أوقات مختلِفة، وظل كلٌّ منهما لا يعرف مكانَ الآخر لمدة ستِّ سنوات. حيث لم يهتمَّ أيٌّ منهما بإعلام الآخر بمكان وجوده أو نشاطاته أو أسلوب حياته. والآن يعرف القارئُ جيدًا ما حلَّ بها. أما هو فمن الضروري أن نقول عنه إنه قد سرَق أصحابَ عمله، الذين عفَوْا عنه فيما اعتقدوا بشكلٍ صحيح أنه جريمةٌ أُولى، لكنهم أطلَقوا سراحه وهو فاقِد الأهلية. ومن خطوة إلى خطوة، تدنَّى إلى مرتبةٍ أعمقَ وأعمق في متاهات الإجرام، حتى انخرطَ بشكلٍ لا ينفصم مع شركائه في مختلف حالات الاحتيال والسرقة والسطو.

كان أسلوبُ عملية السطو بسيطًا جدًّا. حيث استحوذَ السجينُ على مشاعرِ الخادمة في منزل اللورد إتش، واستخدم المعلوماتِ التي حصَل عليها بهذه الطريقة كي يُنفذ، بتواطُئِها، إن لم يكن مساعدتها، الجريمةَ التي اتُّهِم بارتكابها فيما بعدُ في المحكمة المركزية للجنايات. ومع ذلك، لم تكن هذه أولَ قضيةٍ له في تلك المحكمة. لقد حُوكِمَ هناك في قضية سابقة، وحصلَ على البراءة، مثلما حدث هذا اليوم، بسبب قصورٍ في الأدلة ضدَّه. وقد قرأَت الأخت — التي بالاستعانة بوسائلها الآن أفلَت هو من العقاب — عن جريمته الأخيرة في إحدى الصحف التي ذكَرَت الاسمَ الحقيقي للمتهَم، خلال استعراضها القضايا المعروضةَ على هيئة المحلفين الكبرى، باعتباره حقيقةً اكتشفها الادِّعاءُ، مع الإتيان على ذِكر وظيفة أو وظيفتَين مارسَهما المتهم في بداية حياته المهنية، وهو ما عُدَّ دليلًا كافيًا لإثبات هُويتِه لديها بأنه شقيقُها المفقود.

من اللحظة التي اكتشفَت فيها كلارا هذا الأمر، أصبحَ من المستحيل عليها الوصولُ إلى سيادة اللورد. كان أولُ ما طرأ على ذهنها هو أن تُلقي بنفسها عند قدمَيه، وأن تطلب حريةَ أخيها، باعتبارها الخدمةَ الوحيدة التي لا تطلبها منه لشخصِها، وكأعلى مكافأةٍ على

منحه نفسَها بلا مقابل. لكنها لم تتمكَّن من ذلك، فأرشدها ذكاؤها الأنثويُّ إلى التواصل مع محامي الدفاع. ولم تجد صعوبةً في معرفة مَن الذي وُكِّل بهذه المهمة، والتقت بالسيد ويديل، الذي رتَّبَ معها الحيلة التي حققَت نجاحًا كبيرًا.

أعقبَ هذه القصةَ الصغيرة حدثٌ أو حدَثان يمكن أن يطَّلع القارئ عليهما. فقد تقبَّل اللورد إتش، الذي لم يكن بأي حال من الأحوال رجلًا راجحَ العقل، الحادثَ كتحذيرٍ من العناية الإلهية. ولم يكن مستعدًّا لمُعاداة زوجته بسبب مخاطرةٍ بسيطة، حيث كان مرتبطًا بها إلى حدٍّ ما، وكان يخشى أن تسوءَ سُمعته نتيجةَ علاقته الآثمة مع أخت السجين. ولذا عقدَ العزم على أن يُصبح فاضلًا، ونفَّذ هذا القرارَ باتفاقٍ مالي مع عشيقته، من خلال محامي الأسرة. وقد استفادت هي، التي لم تُلوِّثْها الخطيئة إلا من خلال علاقتها غير المشروعة بالمدعي، من هذا الاتفاق المالي الموضوع الآن تحت تصرفها بطريقة تُمكِّنها من الحياة بشرفٍ واحترام من الآن فصاعدًا. كما حاولَ شقيقها أن يفعل الشيء نفسَه؛ لكن هذه الرغبة تحطمت بسبب التدخُّل المستمرِّ في قراراته الجيدة من زملائه القدامى. وكذلك جرَّب طرقًا شتى، مثل أخته، من أجل الحياة بشرف؛ لكن استحالة إخفاء هُويته الحقيقية وإبقائها سرًّا جعلَت هذا أمرًا غيرَ ممكن. إذ كان طَوال الوقت يُصادف «أصدقاء» سابقين، يُسفِّهون نواياه ويُحبطونها. وقالوا له إنها مزحةٌ جيدةٌ تلك الفكرةُ التي دعَته إلى العمل الشريف لكسبِ رزقه. وسألوه بسخرية: «هل فكر حقًّا في أن يُصبح شريفًا؟ يا لها من فكرة مضحكة!» وتعجَّبوا من الأمر. كما اضطهدوه بأشكال مختلفة. وطلبوا منه المال، وهدَّدوه بـ «كشف» أسرار جرائمِه لدى الشرطة و«الوشاية» به إن تردَّد. كان عليه أن يمنحهم في مثل هذه الحالات كلَّ ما لديه، وأن يَعِدَهم بأكثرَ مما لديه أو يُمكن أن يكسبه كثمنٍ لعدم الوشاية به. ونظرًا إلى التضييق عليه من كلِّ جانب، واكتشافِ أنه من المستحيل كسبُ رزقه بشرفٍ في هذا البلد، قرَّر الهربَ منه، بمساعدة المال الذي قدَّمَته له أختُه وزوجُ أخته (لأنه بحلول هذا الوقت أصبحَت كلارا زوجةَ رجلٍ حسَنِ الطباع، طيب المعاملة، يعمل بإدارة الجمارك)؛ وكانت آخر مرة أَراهُ فيها وسطَ حشد من ركَّاب الدرجة الثالثة على متن سفينة مهاجرين في طريقها إلى أستراليا، حيث آمُل أن يكون قد تمكَّن الآن من العيش كأحد أفراد المجتمع المحترمين.

طبيبُ ملجأ الفقراء

من بين جميع الأوغاد في المجتمع، لا يوجد مَن هم أسوأُ من المحامين السيِّئي السمعة أو غير الشرفاء، سوى الأطبَّاء العديمي المبادئ. وأعتقد أن رمز التفوق في الخسة، إذا كان هناك شيءٌ من هذا القبيل، قد يستحقه عددٌ قليل من الفئة الأخيرة في أيِّ منافسة مع الأولى. إذ لا حدَّ للأذى، ولا مقياسَ لعمق الجريمة التي قد يرتكبُها الجرَّاح. إنَّ قلةً من الرجال، ربما، لديهم أيضًا مثل هذه الفرص الوافرة لتفادي انكشافِ أمرهم. ومن الإنصاف القولُ إنني أعتقد أن جريمة الاحتيال أو خيانة أخلاقيات المهنة نادرةٌ في مهنة الطِّب والجراحة التي تُعَد من أشرفِ المهن؛ لكن الاستثناءات فظيعة، وإن كانت قليلة.

قالت امرأةٌ عجوز: «يا سيدي الطبيب، لقد كنتَ طيبًا معي، وقد أسأتُ إليك، وآمُل أن تسامحني، وتظلَّ محسنًا معي؛ لأنني امرأة عجوز فقيرة وحيدة، ليس لديَّ صديق في العالَم غيرك أيها الطبيب.»

ابتسم الطبيب بفتورٍ تجاه الإطراء المقدَّم له.

كانت هذه المرأة العجوز مريضةً فقيرة. زارها الطبيبُ بتكليفٍ من مسئول الإغاثة في نقابة ... ويكفي أن يعرف القارئُ أنَّ مقر تلك النقابة يقع في جنوب العاصمة.

كان الطبيبُ جراحَ أبرشية الكنيسة لسنوات عديدة؛ وكان في هذا الوقت أيضًا الطبيبَ المُعيَّن في ملجأ الفقراء التابعِ للنقابة. وكان يُعدُّ رجلًا ناجحًا. ويمارس عمله على نطاقٍ واسع، لكن مكاسبه لم تكن متناسبة مع حجم عمله؛ وبسبب عائلةٍ كبيرة إلى حدٍّ ما، مع عاداتٍ مكلِّفة خاصة به وبزوجته، لم يستطع أن يصنعَ ثروة. أعتقدُ أنَّ من الممكن وصفَه بأنه طبيبٌ فقير، على الرغم من أنه يعيش في منزلٍ كبير ويُنفق بسَخاء. أجل؛ يُمكنني

وصفُه بأنه فقير. كانت هناك علاماتٌ لا التباسَ فيها، على الرغم من أنها سلبيَّة، على الفقر بالنسبة إلى وضعِه الاجتماعي. فهو لا يمتلكُ عرَبة، وكان عليه أن يتنقَّل سيرًا على الأقدام من بداية جولاته اليومية إلى نهايتها. ونادرًا ما كان يستمتع برفاهية ركوب عرَبة أجرة، وهذا، من وجهة نظري، يُظهِر إمَّا حِرصًا شديدًا، لا يتوافق مع بعض العادات الأخرى التي ذكَرتُها، أو ظروفًا تُشير إلى الفقر.

«أجل، يا جودي، أتمنى أن أكون قد أحسنتُ إليكِ، وسأحرصُ على ذلك دومًا، فالطبيبُ يجب أن يكون كذلك مع جميع مَرْضاه، ولكن بشكلٍ خاص مع جميع الفقراء وكبار السن.»

كان يجب أن أذكر، بالمناسبة، أنَّ الطبيب قد حَظِي بسمعةِ أنه لطيفٌ مع جميع الناس، وأنه يُحسِن بصفة خاصة إلى الفقراء.

صاحت المريضة: «يا سيدي الطبيب، آه، إن لديَّ أمرًا يَشغَل بالي. أعتقد أنني قد أسأتُ التصرفَ في حقك. فهل ستُسامحني؟»

وبينما كانت تنطق هذه الكلماتِ الأخيرةَ، كشفَت ملامحُها الشمطاء البائسة فظاعةً أخافَت الجرَّاحَ، واستطاع، بصعوبةٍ، وبعد عدةِ لحظات، أن يردَّ عليها.

«سوف تُسامحني أيها الطبيب، أليس كذلك؟»

«أسامحكِ يا جودي! على ماذا يجب أن أسامحكِ؟»

«أوه، كان من الخطأ أن أخدعَك.»

«ولكن كيف خدَعتِني؟»

«أوه، لقد كان تصرفًا خبيثًا للغاية.»

«عجبًا! ما الخَطْب؟ ماذا تقصدين بذلك؟»

وبينما كان الطبيبُ ينطق هذا السُّؤالَ الأخير، بلهجةٍ مطمئِنة، سحَبَ كرسيًّا بالقرب من المرأة العجوز، وبلُطفٍ شديد، أو برغبة تُشبه رغبةَ قسٍّ اعترافٍ في تخفيف العبءِ الذي يُثقِل كاهِل ضميرها، وأثناء سحبِ كرسيِّه إلى جانبها، أمسكَ بيدِها النحيلة والذابلة في يده.

«هيا، أخبريني كلَّ شيء عن الأمر، يا جودي. بأي طريقة خدَعتِني؟ وفي أي شيء؟ وما هو التصرف الذي ينبغي ألا تفعله امرأةٌ فقيرة؟»

تلعثمَت، وهي ترد على هذا الاستفسار الودود وقالت: «حسنًا، أيها الطبيب، في واقع الأمر أنا أمتلك ثروة.»

انتفضَ الطبيبُ من الدهشة.

«أرجو ألا تكشفَ سري. سأموتُ إذا انكشفت. اقتلني أيها الطبيب، إن لم تكن ستسامحني.»

«ثروة! وأنت تعيشين على الإعانات منذ مدة طويلة، وتحصلين على الإغاثة والرعاية الطبِّية من النقابة! أوه، إن هذا تصرفٌ شرير بالفعل!»

في هذه اللحظة طرأَت على ذهن الطبيب فكرةٌ أكثرُ خبثًا من أي أفكار أو أفعال من جانب المريضة الفقيرة. إذ كان في تلك الفترة يسير في شوارع لندن، ويعتني بمَرْضاه، ويكسب رزقَه ورزق عائلته وهو مَدينٌ لمُرابٍ مسيحي، قد حصلَ على أحكام ضدَّه بسبب إيصالِ أمانة، والذي يتقاضى، كثمنٍ لما يُسميه الصبر، فائدةً ضخمة وأتعابًا لمحامٍ سيِّئ السمعة، الذي (دعني أقُلها بكلِّ ثقة) لديَّ سبب للاعتقاد بأنه يتقاسمُها مع موكِّله. كان ما يُعانيه الرجلُ من فقرٍ شديد هو سبب غوايته.

ومِن ثَمَّ سألَ نفسه: «هل يُمكنني الاستيلاء على ممتلكات هذه المرأة؟»

كان جواب ضميره: «كلا!»

«ستكون نعمةً عظيمة بالنسبة إليَّ إذا تمكَّنتُ من الحصول على القليل من المال في الحال، وسداد دَين ذلك الملعون تومبكينز، الذي يُهدِّدني وينغص حياتي على مدى الأربع والعشرين ساعةً كل يوم؛ والذي جعل شبحَ إلقاء القبض عليَّ يُطارد خطواتي من اللحظة التي أغادر فيها بابي في الصباح حتى لحظة عودتي في الليل، والذي يزعج راحتي في المنزل، ويقض الخوفُ منه مضجعي. إذا كان بإمكاني الحصولُ على المال، فسأُسدِّد له دَيني. إنَّ الاحتيال على هذه الفقيرة البائسة هو جريمةٌ أنا عاجزٌ عن ارتكابها؛ ولكن الاستفادة من أموال تلك البائسة العجوز لمدَّةٍ من الوقت، وإعادتها إليها مرةً أخرى، لن يَضير أي شخص. سأحاول وأرى إذا ما كان بإمكاني الحصولُ على ما أريد.»

كان هذا هو تسلسلَ التفكير والسؤال والجواب والقرار، الذي دار في ذهن الطبيب بسرعةٍ أكبرَ من سرعة مطالعة القارئ له.

«يا سيدتي الطيبة، مثلما قلت، لقد تصرفتِ على نحو سيئ للغاية، ليس فقط نحوي وحدي؛ لكنك، في هذا الصدد، تعاملتِ معي بطريقة غيرِ عادلة. فكيف لي أن أعيشَ وأعيل عائلتي إلا من خلال ممارسة مهنتي؟ إذا كان بمقدورك دفعُ مقابل أتعابي، فكان يتوجَّب عليكِ فعلُ ذلك. كنت سأحضر لرعايتك عن طيبِ خاطر طَوال حياتك، دون مقابل، إذا كنتِ غيرَ قادرة بالفعل؛ ولكن بما أنه كان بمقدورك الدفع، أعتقد أنه كان لِزامًا عليكِ أن تفعلي.»

«يا سيدي الطبيب، ليس لديَّ سوى القليلِ من المال، وكنت دائمًا أخشى إنفاقَه أو إنقاصه. إنه فقط مبلغ ٥٠٠ جنيه الذي أملكه؛ وإذا فقدتُه فسأفقد كلَّ ما لديَّ في الحياة. كيف أعرفُ أنني لن أحتاج كلَّ مليم منه؟ وعندي ابنٌ احتفظتُ له بالمبلغ لمدة ١٠ سنوات.

وأنا لا أعرف أين هو الآن. لقد غادر إنجلترا في سفينة إلى الهند الشرقية. لقد هربَ من منزله خلالَ حياة والده، وأعتقد أنه تسبَّب في كسر قلب زوجي. لكنه اعتادَ أن يكتب لي رسائلَ طويلة، ولطيفة. وكان يقول لي إنه سيعود إلى الوطن يومًا ما. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن سمعتُ بأخباره، وربما يكون قد غرقَ. لكنني لا أعتقد ذلك. وأحيانًا أحلم به، وأثناء نومي أعتقد أنني أسمع صوتًا يخبرني أنني سأراه مرة أخرى. وعندما يعود إلى المنزل، سأعطيه كلَّ ما أملك، وأنا متأكدة من أنه سيكون لطيفًا مع والدته العجوز، وسيُبقيني سعيدة ومرتاحة طوال حياتي.»

وبينما أخذت العجوز الشمطاء تُثرثر وتروي سرَّ ادِّخارها البائس، كان الطبيبُ يحيك مخططًا خبيثًا.

ومِن ثَمَّ قال: «حسنًا، يا سيدتي الطيبة، ليس من شأني أن أُبلغ عنكِ. ولن أجلب لكِ الخزي. ولن ألومَكِ. ومن جهتي أنا على الأقل، لن تُعاني أيَّ متاعب.»

«شكرًا لك، أيها الطبيب العزيز، المحسِن، الطيب!»

فسألها الطبيب: «ألن تدفعي لي شيئًا على حسابي؟»

«أوه، أجل، أيها الطبيب.»

وبينما كانت تتحدَّث نهضَت من مقعدها وذهبت إلى الخِزانة، وأخذت منها صندوقًا صغيرًا وفتحَته. كان يحتوي على دفترين من بنك الادخار. كم كانت هذه السيدة العجوز ماكرةً للغاية! لقد فهمَت جيدًا، بالنسبة إلى شخص في وضعها، وفي سنها، تلك القاعدةَ الصعبة لاستثمار الأموال بحِكْمة! ووضعَت الدفترين أمام الطبيب، وتوسلت إليه مرة أخرى ألا يُخبر أيَّ شخص عن كَنزها.

وقالت: «سأعطيك ١٠ جنيهات، أيها الطبيب، بمجرد أن أتمكَّن من سحبها من بنك الادخار.»

قال الجراح في خنوع: «أنا ممتنٌّ لكِ كثيرًا.»

تأثرت المرأة العجوز، وربما شعرَت بالإطراء، من التواضع النسبي الذي تقبَّل به الطبيبُ المالَ المقدَّم. هذا التقبُّل صنَع تقاربًا بينه وبين مستوى مريضته. وأصبحت الثقةُ في هذه اللحظة هي ثقةَ الأصدقاء؛ وعندما تجاوزا عقَبة التحفُّظ والتقاليد الاجتماعية، تحدَّث الاثنان عن قرب.

فأوضحَ الطبيبُ للسيدة العجوز المخاطرَ التي قد تتعرَّض لها، من حريق، أو سطو، أو أي حادثٍ آخر، مما يتسبَّب في إتلاف دفترَيها وطمسِ دليل استثمارها أو استثمارِها

نفسِه. واستمعت إلى هذا الشرح بجشع وقلق. وتفهَّمت قوة الاقتراح، ناهيك عن المصداقية أو الحيادية. وأشار لها إلى الرِّبحية النسبية لنمط الاستثمار الذي اختارته. وأخبرها أنَّ المال قد يُحقق، في ظل إدارةٍ حَذِرة وحكيمة، ضِعفًا، أو ثلاثةَ أضعافٍ، أو أربعةَ أضعافٍ، أو حتى ١٠ أضعافِ الفائدة التي كانت تتلقَّاها مقابل وضعه في بنك الادخار.

أثار حديثُه جشعَ المرأة العجوز. فليس هناك ما يُغري الشخصَ الشديدَ الحرصِ والفقيرَ أو البخيلَ أكثرَ من تقديم فائدة كبيرة. إنَّ هذه هي نقطة ضعفٍ يتشاركونها مع المرابي المعتاد، الذي نجده في مناحي المجتمع العادية. أعتقدُ أنه من الممكن خداعُ أحد المرابين اليهود المعتادين، أو أكثر المرابين المسيحيِّين ذَكاءً وحِدَّة، من خلال إغراء تقديم فائدة كبيرة، والتلاعب قليلًا بغريزة الجشع السائدة لديهم.

وقبل أن تنتهيَ هذه المقابلة، ناشدَت المريضة الفقيرة طبيبَها الطيب المحسِن أن يمنحها الاستفادة من حَصافته العمَلية الكبيرة، وخبرته الحياتية الضخمة، وحُسن تقديره، في استثمار الأموال التي ادَّخرَتها. وبعد قليل من التردُّد وافقَ على الاستجابة لطلبها.

في غضون أسبوعَين، سحبت الأموال من بنكَي الادخار التي كانت موزَّعة فيهما، وذلك للتهرُّب من تلك القوانين التي تمنع استثمارَ أكثرَ من مبلغ معيَّن في أي وقتٍ في بنك واحد. وبعد سحب النقود من كلا البنكَيْن، وُضِعت في يد الجرَّاح، ليُقرِضها أو يُوظِّفها وفقَ ما يراه مناسبًا، وبموجب الضَّمانات التي من شأنها أن تُدِرَّ عائدًا أكبر.

استخدم الطبيبُ المالَ الذي وُضِع في عهدته لتسديد المطالبات الملحَّة، ولتقليل أزماته المالية. وسدَّد للسيدة العجوز، أو على وجه الدقة حوَّل لحسابها فائدةً نسبتها ١٠ في المائة سنويًّا بأكبرِ قدرٍ من الانتظام؛ وكان ضميرُه مرضيًّا لاعتقاده بأنه يمنحها منفعةً أساسية، من خلال تمكينها من الحصول على حقِّ الانتفاع السخيِّ هذا بدلًا من الفائدة الضئيلة التي كانت تتلقَّاها. كان يُرضي شكوكها، أو على وجه الدقة يمنعها من عدم الثقة به، من وقتٍ لآخَر، بأن يعرض عليها إيصالاتِ أمانة، أو وثائق، أو أوراقًا، سمَّاها سنداتِ البيع، وقسائمَ ورقية كان يُسميها بالسندات، وأسهُمَ السكك الحديدية، وما إلى ذلك، وكلها، كما أوضحَ لها، كانت تجلب الفائدة بمعدَّل يزيدُ عن أربعة أضعافِ ما كانت تحصل عليه في السابق.

وهكذا اعتبرَت جودي الطبيبَ، الذي هو الوحيد المؤتمَن على سرِّها وبمثابة قسٍّ الاعتراف الخاصِّ بها، صديقها المقرَّب والمخلص. وكانت تُكافئه أحيانًا، كما تظن، من خلال شراء هدايا صغيرة لأطفاله، أو بعض الجوارب أو القفازات له.

وبعد عامَين أو ما يقرُب من ذلك، أصبحَت جودي، التي ازداد جسدها ضعفًا، وتشوَّهَ إدراكها الذهني أكثرَ فأكثر، وازدادت حِدَّة بُخلها، غيرَ راضيةٍ عن الوضع غيرِ المنتظم الذي تحصل فيه على الإعانة التي تعيش عليها، بينما في خيالها رأت استثمارَها يزداد.

وفي أحد الأيام ذهبَ إليها الطبيبُ، ليُوضح لها أنَّ الفائدة على سند السكك الحديدية ستُستحَقُّ غدًا، وهكذا ستحصل على مبلغ أربعة جنيهات و١٥ شلنًا، وهو ما كان مستعدًّا إما لتسليمه إليها أو الاحتفاظ به كي يستثمرَه لها. فأخبرته أنها تُفضل أن يحتفظ بالمبلغ كلِّه باستثناء شلن واحد، تحتاج إليه لغرضٍ ما، وقد أعطاها إياه. ووعَدَ باستثمار هذا المبلغ الإضافي، كما فعلَ ببقيةِ مالها، كي تزداد قيمته.

ثم واصلَت حديثَها قائلةً: «في الواقع، كنتُ أفكِّر في أنني أشعر بالوحدة الشديدة وعدم الارتياح الشديد هنا بمفردي، وأودُّ أن أدخل إلى ملجأ الفقراء.»

«ماذا! ملجأ الفقراء التابع للنقابة؟»

«أجل، أيها الطبيب.»

«أنا آسف، لا يمكن فعل ذلك.»

«أوه، يؤسفني ذلك جدًّا. أتمنى لو أمكن ذلك. ألا يُمكنك تحقيقُ ذلك من أجلي أيها الطبيب؟»

«حسنًا، اسمعي، يا جودي، قد يكتشفُ شخصٌ ما أنَّ لديكِ نقودًا، وقد أتعرَّض لمشكلاتٍ إذا تبيَّن أنني قد ساعدتُكِ، أو حتى سمحتُ لكِ أن تصبحي نزيلةً في ملجأ الفقراء، وتعيشي على حساب أموال دافعي الضرائب.»

شعرت المرأة العجوزُ بالحزن. فقد تحطَّمت الفكرةُ التي رعَتْها لعدة أشهر. وتدمَّرَت آمالُها.

وتابعَ الطبيب: «يؤسفني أن أخبركِ بأن هذه الفكرة غيرُ صائبة على الإطلاق يا جودي.»

«لا أحدَ يستطيع أن يعرف أن لديَّ نقودًا، أيها الطبيب، إلا إذا أخبرتَهم أنت بذلك.»

«لا أفكر، بالطبع، في الكشف عن ذلك، وربما، في نهاية الأمر، لن تُعتبر جريمةً بالنسبة إليَّ أن أتركِكِ تُحددين مساركِ الخاص. فقط، ضعي في اعتباركِ، أنني لن أُساعدكِ. لن يسمح لي ضميري بفعل ذلك. سوف يُسبِّب لي ذلك مشاكل، إذا انكشفَ الأمر. كلا، يا جودي. إذا تمكنتِ من دخول الملجأ، فلن أفشيَ سرَّكِ؛ ولكن عليكِ أن تدخلي دون مساعدةٍ مني.»

في ذلك الوقت، بدأ الطبيبُ يرتجف، خشيةَ أن تُطالب المرأة العجوز في أي لحظةٍ بالحصول على سنداتها المالية، وعندئذٍ ستكتشف أنه قد أنفقَ الجزءَ الأكبر من مالها. كان

يعلم أنه لا يُمكنه استردادُه أو تعويضه. كان في كثير من الأحيان يستنفد كلَّ طاقته في التفكير كي يُحدد ما يجب عليه فعلُه في مثلِ هذه الحالة الطارئة. ومِن ثَمَّ راقت له فكرةُ دخول هذه المرأة العجوز إلى ملجأ الفقراء، وهو يعلم أنها يمكن أن تحصل على مكان هناك؛ لأن الكذب والخداع الإضافيَّين الناتجين من ادِّعائها الفقرَ سيُصبحان بمثابة ضمانٍ إضافي لصمتِها. وأثناء وجودها هناك، لن تجرؤ على مطالبته بالمال أو الوثائق. كما سيُصبح من السهل عليه الحفاظُ على سرِّ احتياله عليها أكثرَ مما هو عليه حتى الآن.

ومِن ثَمَّ يكفي أن نذكر أنَّ السيدة العجوز قدمَت طلبًا للدخول إلى ملجأ الفقراء التابع للنقابة، وأنَّ مسئول الإغاثة قد حقَّق في حالتها؛ وأن تقريرًا قد عُرِض على مجلس الأوصياء؛ وأنها، دون صعوبةٍ كبيرة، قد حصلت على أمرِ قَبولٍ لدخولها الملجأ. وهكذا وقعَ الاحتيالُ على دافعي الضرائب واستمرَّ؛ كما استمرَّ إخفاءُ جريمة الطبيب.

اعتادت العجوزُ الفقيرة على الملجأ، وكانت تخرج عندما يُسمَح لها بالذَّهاب إلى ما وراء جدرانه، لتُثني على طبيبها الطيِّب، الذي كان يسأل عنها في زياراته للمكان، ويجدها في الغالب مريضة، وكثيرًا ما يُوصي لها بكماليات، لا يحصل عليها الفقراءُ الآخرون الذين لا يحظَوْن بالقدر نفسِه من الاهتمام.

وهكذا مرت ثلاثُ سنوات، وخلال هذه الفترة أصبحت الفقيرةُ أكثرَ ثراءً وثراءً (كما كانت تظن) من حقِّ الانتفاع بمدَّخَراتها. كما استمر الطبيبُ طوال الوقت بيقينٍ متزايد في اعتبار الأموال الذي استخدمها لمصلحته الشخصية أموالًا لن يُطلَب منه أبدًا ردُّها. كان عليه فقط أن يستمر في الخداع لمدةٍ أطولَ قليلًا، وستنتقل المالِكة الحقيقية لهذه الأموال إلى قبرِها مجهولةً دون أن يلتفت إليها أحدٌ أو يكتشف سرَّها.

وفي أحد الأيام، حصلت المرأة العجوز على إجازتها المعتادة، وابتعدت عن المسار الذي اعتادته في زياراتها عندما تخرج من الملجأ. فذهبت أولًا لزيارة الطبيب، وحصلت منه على مبلغ صغير من المال — بضعة شلنات — وبعد ذلك كان من بين الأماكن التي زارتها منزلٌ بائس لأحد معارفها القُدامى. حيث تناولت العشاءَ والشاي، وبعد الشاي أخرجَت المال، الذي قالت إنها حصَلَت عليه كهِبَةٍ من صديقها العزيز المحسِن طبيب أبرشية الكنيسة، وأصرَّت على منح ثمن الوجبة لرفيقتها.

وعند نحوِ الساعة التاسعة مساءً دارت محادثة بين المرأتين.

قالت صديقتُها: «يا جودي، أنتِ تعلمين أنني لا أريد أن أجعلَكِ تتعجَّلين. وأنني سعيدة جدًّا لوجودكِ هنا. فأنا أحبكِ للغاية؛ لكن الوقت يتأخر، وإذا لم تُسرعي بالعودة، فلن تستطيعي دخول الملجأ قبل موعد الإغلاق.»

كانت المتحدثة ممن يُطلق عليهم أنهم شَرِهون للخمر، فشربت جودي معها وأصبحت مخمورةً بعضَ الشيء.

وقالت بعصبية إنها لا يُهمها البوَّاب، أو مسئول الإغاثة، أو مجلس الأوصياء، أو المشرفون، أو حرَّاس الكنيسة، أو أيُّ شخص. وإنها لو تأخرت، فلا يُهم، ولن تتحمل أيَّ هُراء منهم. إذا تأخرت، يسألونها لماذا تأخرتِ. وإذا لم تستطع دخول الملجأ، فيتعيَّن عليها البقاءُ في الخارج، وقالت إن لم يهتمُّوا بالاعتناء بها، فبمقدورها الاعتناءُ بنفسها.

«يا له من هُراءٍ ذلك الذي تقولين! ماذا ستفعلين، فيما بقي من حياتك، كي تتمكَّني من الاعتناء بنفسكِ؟ بالقطع، إذا استبعَدوكِ من الملجأ، فستتضوَّرين جوعًا. أنتِ غير قادرة على العمل، وليس لديكِ أيُّ مال تُنفقين منه على ضروريات الحياة.»

صاحت المرأة العجوز بكلام مفكَّك غير واضح: «أوه، تقولين، ليس لديَّ!» وتابعَت قائلةً: «هذا كلُّ ما تعرفينه عن الأمر. أنا لا يُهمني أحدٌ منهم جميعًا. إنَّ أموالي عند الدكتور جالايب. وهو يعتني بها من أجلي. بالقطع، لديَّ ثروة؛ وهي عنده كي يستثمرها لي. لقد حصلتُ على أكثرَ من ١٠٠٠ جنيه. أليست هذه ثروة؟ ألا ترغبين في الحصول على مثلها أيتها العجوز؟ في رأيي إنَّ رئيس مجلس الإدارة يرغب في الحصول على مثلها، لكنه لن يتمكَّن. كلا، ليس بإمكانه ذلك. وأنا لن أعود إلى الملجأ. سأقفُ هنا. هيا، اذهبي وأحضِري رُبع قنِّينة أخرى من مشروب النبيذ.»

ومِن ثَمَّ أعطتها شلنًا فذهبَت وأحضرت رُبع قنِّينة أخرى من النبيذ، فشربت السيدة العجوز كميةً أخرى، وازدادت سوءًا، وسرعان ما تحوَّلت إلى حالة من السُّكْر المفرط واليائس والعاجِز.

بعد أن وصلَتا إلى هذه الحالة من الثُّمالة، غادرت المخلوقتان البائستان المنزلَ وحاولتا السيرَ في اتجاه الملجأ وهما تترنَّحان. ولم تكونا قد ابتعدتا كثيرًا، عندما قابلهما صبيَّان مشاغبان، عائدان من عملهما إلى منزلهما، وشاهداهما تترنَّحان، فأخذا يسخران منهما. فحاولت المرأة الفقيرة، تحت وطأةِ الإهانة الصِّبيانية الوقحة، أن تندفع إلى الأمام وتقبض على أحد الوقِحَين، ولكن بدلًا من القبض عليه، سقطت على وجهها. فحاولت رفيقتُها حملَها، لكنها وقعت؛ وبينما كانت المرأة المتعاطفة تَهْذي، وهي مخمورة، بكلمات العَزاء للفقيرة المتخفِّية، جاءَ شرطيٌّ، وبالنظر إلى حالتهما، اقتادهما إلى قسم الشرطة.

وفي صباح اليوم التالي، عند مثولهما أمام مأمور القسم، أخبرتاه بقصة متقنة، تقبَّلَها الرجل الموقَّر على أنها حقيقية، عن لقائهما بصديقة قديمة، دعَتهما إلى تناول نصف

قنِّينة من النبيذ (كانتا متأكدتَين من أن الكمية لم تزد عن ذلك) فأثَّرَت عليهما. ومِن ثَمَّ أطلقَ سراحَهما مع تحذير، فتوجهتا إلى الملجأ، وافترقتا عند البوابة، فسارت إحداهما نحو منزلها، كامرأةٍ مستقلَّة؛ بينما تسللت الأخرى إلى حجرتها، وتحمَّلت استهزاءَ رفيقاتها بقدر ما تستطيع.

مرَّت مدة طويلة قبل أن تلتقي المرأتان مرةً أخرى. وعندما التقتا، تحدَّثتا عن الثروة، من بين أمورٍ أخرى. وودَّت جودي الفقيرة أنها لم تقل شيئًا عن الأمر، لكن رفيقتها لم تكن لتدعَ الأمر يمر مرور الكرام. كان لديها مبدأٌ دفعَها إلى القول بأنَّ ما يقوله الناس حول أكواب الخمر وهم ثَمِلون يمكن اعتبارُه أخلصَ عقائدهم، وأنَّ الكلمات التي تُلفَظ في حالة سُكرٍ لها حقيقة لا ترتبط دائمًا بكلمات الوعي واليقظة. فأصرَّت على استفساراتها، وكانت النتيجة أنَّ جودي الفقيرة وضعت ثقتها في صديقتها.

ومِن ثَمَّ قالت لها: «بالقطع، كما ترين، لا أحدَ يعرف ما قد تأتي به الأيام. لقد كنتُ امرأةً وحيدة طوال هذه السنوات العديدة. وأنجبتُ ابنًا، على الأقلِّ أعتقد أن لديَّ ابنًا، وقد يعود يومًا ما. وأنا أحب ذلك الفتى، وقد ادَّخرتُ واستثمرت من أجله، وفي حالة حدوث أيِّ شيء لي، فلماذا أرغبُ في وجود القليل من المال بجانبي؛ لذلك ادَّخرتُ ووضعتُ أموالي في بنكِ ادخار. لكن، ذات يوم، أخبرتُ الطبيبَ عن أموالي، فنصحني ألا أدعَها هناك. فطلبتُ منه إذا كان الأمر كذلك، أن يتكرَّم ويعتنيَ بها من أجلي، فوافقَ، وفعلَ ذلك. ولذلك أعطيتُه المال، فاستثمرَه، وحقَّقَ لي أفضلَ فائدة على أموالي، وأنا أستثمرُ هذه الفائدة مع المال، مما يزيد من قيمة المال، كما ترَين، كلَّ عام. لقد فعلتُ ذلك لسنوات عديدة، والآن ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنني أملكُ ما يزيد على ١٠٠٠ جنيه.»

«يا إلهي! أنتِ حقًّا تمزحين أليس كذلك؟»

«كلا، بشرفي، هذا هو ما حدث بالفعل.»

«حسنًا، كم أتمنَّى لو أنني حصلتُ على ١٠٠ جنيه، هذا أقصى ما أتمنى.»

قالت جودي، التي كانت أفكارها أكثرَ ميلًا إلى الاسترسال بشأن النظريات المالية: «١٠٠ جنيه ليس مبلغًا كبيرًا.»

وهكذا تجاذبت المرأتان أطرافَ الحديث، حتى أصبحت صديقة جودي على دراية بمسألة الاستثمار مثل جودي نفسِها، وأصبحت العلاقة الائتمانية للطبيب معروفةً جيدًا لامرأتين مثلما كانت معروفة من قبل لواحدة.

يُقال إنَّ المرأة لا تستطيع كتمانَ سر. أعتقدُ أنَّ هذه العقيدة لا يمكن قَبولها أو اعتبارها قاعدةً دون استثناءات. لكن من المؤكَّد أن صديقة جودي كانت تُثرثر وتثرثر طويلًا وبإلحاح، وإن كان بسرية مهيبة، لمجموعة متنوِّعة من الناس. وأخيرًا، أصبحَت حقيقة أو خيال ثروة الفقيرة معروفةً للسيد دو، وهو خبَّاز شهير، ورئيسُ مجلس الأوصياء في النقابة التي كانت لها شرفُ رعاية الفقيرة الثرية من أموالها العامة.

كان السيد دو رجلًا ذا استقلاليةٍ في التفكير. وقد كسَب طريقه المتميز، كما كان كثيرًا ما يقول، ليُصبح عضوَ مجلس الكنيسة ورئيس مجلس الأوصياء، بسبب مواهبه (يقول أحيانًا إنه عبقري)، وطاقته التي لا تعرف الكلل، ونزاهته التي لا هوادةَ فيها. ولم يكن من النوع الذي يتغاضى عن أيِّ إساءة. لقد كان آخِرَ رجلٍ في العالم يمكن أن يسمح بحدوث احتيال من غير ملاحظةٍ أو عقاب. وعندما سمعَ عن حالة هذه المرأة الفقيرة ذات الثروة، قرَّر أن يستقصيَ بشأنها حتى النهاية. فروى القصة كما وصلته لزملائه أو أعضاء مجلس الأوصياء التابعين له؛ وانبثقت لجنةٌ فرعية للتحقيق في الأمر. وصدَر توجيهٌ لكاتِب المجلس أن يكتب رسالة إلى الطبيب ليطلب منه تفسيرًا. بِناءً على ذلك أمهلَ المجلسُ الموضوعَ لمدة أسبوعين، من أجل أن يحصل كلُّ طرفٍ — كما قال السيد دو — على فرصة كافية للدفاع المناسبِ ضد التهَم الخطيرة التي يُوجِّهها إليه.

وفي هذه الأثناء كان الطبيبُ لا يزال محتفظًا بوظيفته كمستشار طبي ومقدِّم خدمةٍ في ملجأ الفقراء.

بينما كانت المرأة الفقيرة مريضةً للأسف، وفي الوقت الذي أُثيرت فيه هذه القضية كانت نزيلةً في المستوصف أو عنبر المرضى. وكان الطبيبُ هو مَنْ يعالجها.

وعندما تلقَّى الجراحُ الرسالة، كان مندهشًا بطبيعة الحال. حيث قاده النجاح في الأمر والإخفاءُ المستمرُّ له منذ مدَّة طويلة إلى الاعتقاد بثقةٍ أنَّ لا أحدَ غيره يعلم بوجود المال في حوزته. ولم يستطع التكهُّن أو التخمين بكيفية انكشاف السر. ولم تُساعد محادثةٌ، لم يجد صعوبةً في إجرائها مع المريضة، في حلِّ اللغز؛ لأنها، كمذنِبة عجوز، أنكرَت أن تكون قد باحت بالسرِّ إلى أي مخلوق. لقد تظاهرت بأنها تجهل مثله تمامًا كيف وصلت هذه المعلومةُ إلى المجلس. بينما لم تتصنَّع الانزعاج؛ لأنها في الحقيقة كانت منزعجةً للغاية، من انكشافِ السر. زادَ الطبيبُ من حدَّة هذا الانزعاج بإخبارها أنها ستتعرَّض للمقاضاة والعقاب، وستودَع بلا شكٍّ في السجن، أو، ربما، قد تُنفى بسبب الاحتيال على مجلس الأوصياء. كما أخبرها أنَّ المسار الوحيد الذي يجب أن تتمسك به هو إبقاءُ الأمر في طي

السرية التامة. فيجب أن تُنكر كلَّ شيء، وتُعلِن أنها لم تقل أبدًا إن لديها مالًا؛ وتُنكر تمامًا أنه قد تلقَّى منها أيَّ أموال لأي غرض، وإذا فعلَت ذلك، فإنه سيدعم أقوالها بإعلانِ أنه ليس لديه أيُّ أموال تخصُّها تحت تصرفه. أدركَت البائسة المخدوعة أنها تضع نفسَها بالكامل في يد طبيبها، وأنه قد ينقلب عليها، أو على الأقلِّ اعتقدَت ذلك. لكنها مع ذلك، بين السجن والنفي، آثرَت أن تخوض المخاطرة المحتمَلة باحتيال الطبيب عليها.

ومِن ثَمَّ عُقِدَ اجتماعُ مجلس الإدارة. وردَّ الطبيب، على الخطاب الذي أُرسل إليه، فكتبَ إجابةً قصيرة بليغة، موضحًا أنَّ التصريح الذي يَمَسُّه هو والمرأة الفقيرة المريضة هو افتراءٌ واهٍ، وأكَّد أنه لن يتدنَّى كي يُجيب بالتفصيل. لقد قدَّم نفيَه المطلق، وينبغي ألَّا يفعل أكثرَ من ذلك. أما الدخول في دفاعٍ ضدَّ مثل هذه الاتهامات، فإنَّ الجميع، قطعًا، يشهد له بحُسن السمعة، وسيترك للأوصياء مهمةَ تحديد احتمالية أن يكون مثلُ هذا التصريح الذي أدلى به أحدُهم هو فقط من أجل تشويه سمعته. وإذا شعر الأوصياءُ برغبتهم في الحصول على مزيدٍ من المعلومات، فربما يكون مستعدًّا لتقديمها؛ لكنَّ رأيه الحالي، أنه لن يُدْلي بالمزيد.

وعندما مثَلَت المرأة الفقيرة أمام الأوصياء لاستجوابها — أو للتحدث على نحو أكثرَ دقة، ذهبَ وفدٌ من أعضاء المجلس، أو لجنته إليها في عنبر المرضى — أنكرَت بشدةٍ كلَّ شيء. وأعلنت بجدية أنها لا تملك أيَّ أموال، وسألَت المستجوِبَ، لو كان لديها مثلُ هذا المال، فهل كانت ستمكث هنا، في هذا المستوصف البائس، على أسرَّتِهم، في حالة فقرٍ بغيض، دون أن تحظى بالرعاية الطبِّية الكافية؟ كان أحدُ أعضاء الوفد مقتنعًا بأنَّ رئيس المجلس قادهم في مطاردة غيرِ مجدية، وأنَّ المرأة لا تمتلك أيَّ ثروةٍ مثلما أُشيع، وأن الأمر برُمَّته ما هو إلا ادِّعاءٌ عابث. وقال عضوٌ آخر؛ ليس لديه رأيٌ على الإطلاق، إنه بصراحة لا يعرف ماذا عليه أن يُقرر بخصوص هذا الأمر. بينما تكوَّنت لدى عضوٍ ثالث فكرةٌ مناقضة تمامًا للعضو الأول، حيث يعتقد أنَّ دافعي الضرائب قد خُدِعوا لمدَّة طويلة؛ وأنَّ رئيس المجلس كان على حقٍّ تمامًا، وأنه يجب النظر في الأمر بمزيد من التدقيق.

وللأسف الشديد، تُوفِّيَت المرأة الفقيرة بعد تحقيق الوفدِ معها. يا لها من مسكينة! لقد انتهت حياتها في ظلِّ معاملة صديقها المتآمِر ضدَّ دافعي الضرائب؛ طبيب ملجأ الفقراء. وكانت تلك الوفاة هديةً له من السماء؛ لأنها أوقفَت فعليًّا كلَّ التحقيقات الإضافية.

وقد أعربَ رئيسُ مجلس الأوصياء، السيد دو، في الاجتماع الذي قدَّم فيه تقرير اللجنة، عن عدم رضاه، وقال إنَّ الشكوك تُساوره؛ حول استيلاء الطبيب على أموال المرأة، وكان على يقينٍ، شبهِ مؤكَّد، أنَّ دافعي الضرائب قد تعرَّضوا للسرقة. وهو يرغب في كشف كلِّ

شيء دفعةً واحدة. حيث لم يعجبه ذلك الخطاب المراوغُ من جرَّاحهم، ورغبَ في استدعاء هذا الرجل ليَمثُل أمامهم في الحال، ويطلب منه التوضيح. فإذا جاء، ووضَّح الأمر، فهذه نتيجةٌ جيدة، ولن يعترضَ السيد دو على الاعتذار إذا اقتنعَ بأنه كان مخطئًا. وإلى أن يقتنعَ بذلك، ينبغي أن يتمسَّك برأيه الخاص ويدافع عنه. كانت نتيجةُ التحقيق الكامل لهذا التاجر الموقَّر، والنشيط، والناجح، والمحترم، أن أرسل مرسالًا خاصًّا لاستدعاء الجراح، الذي حضرَ مداولاتهم في اجتماع مجلس الإدارة الذي أشرتُ إليه سالفًا. حيث أظهرَ روحًا ساميةً من الكرامة الزائفة. واحتجَّ على الغضب الذي تعرَّض له بسبب شكوكهم ومطالبهم، وبإحضاره أمامهم كمجرمٍ في محكمة عامَّة. لم يكن يعلم أنه يفعل الصوابَ في دَحضِه لهذه الاتهامات، لكنه اختتمَ بوضع يدِه بشكلٍ ميلودرامي على قلبه، مقدِّمًا العديدَ من عبارات التأنيب، وفي النهاية، بالطريقة الأكثرِ شيوعًا، عرضَ إثباتًا — كما أثبت بالفعل، بما يُرضي الأغلبية، ولا يُرضي الأقلية، في المجلس — أنَّ ثَرْثرة مخبرِ رئيس المجلس لم تكن تَعْدو أوهامًا زائفة، أو تخيُّلاتٍ طائشةً لشخص مجنون.

كانت خاتمةُ هذه الأحداث كلِّها وهذا التحقيق قرارًا صدَرَ بأغلبية أعضاء المجلس، يُعبِّر عن الثقة في طبيبهم، ويُجسد رأيًا بأنه تعرَّض لتشويه سمعته ظُلمًا وافتراءً، ويُطالبه بمواصلة العطاء للفقراء الذين ترعاهم النقابةُ تحت رقابة مجلس الأوصياء وتقديم خدماته المقدَّرة والرعاية المسيحية الحقة.

الوصية المفقودة

كان السيدُ فرانكلين محاميًا ذا خبرةٍ جيدة في غرب لندن، وله مكاتبُ في ... تشامبرز في شارع ريجينت ستريت، ومسكنٌ خاصٌّ بالقرب من فولهام. وهو رجلٌ ذو عاداتٍ غريبة نوعًا ما، على الرغم من أنه شديدُ الذكاء، ومتمكِّن في مهنته، وكريمٌ تجاه أصدقائه الذين لم يكونوا قليلين. وكانت حياته المنزلية بعيدةً كلَّ البُعد عن الراحة. فقد انفصلَ عن زوجته بسبب عدم توافُق الطباع؛ وكانت تلك السيدة، مع طفلها، تعيش في جزء ناءٍ من العاصمة، وتحصل على نفقةٍ سخية من السيد فرانكلين.

سيُغطي هذا الوصفُ حياةَ السيد فرانكلين ومهامَّه خلال مدة ١٥ عامًا. فطوال هذه الفترة، وربما قبل ذلك بكثير من بداية هذه الحقبة، ادَّخَر جزءًا كبيرًا من أرباحه، واستثمرَها بهذا النجاح الذي تمكَّن محامٍ حكيمٌ من تحقيقه. وهو لم يكن، وهذه حقيقة، بالرجل المضارب أو «المغامر». كان على وجهِ الدقة رجلًا كادحًا أو مُجِدًّا في عمله. ويؤمن بفكرةٍ مفادها أنه يجب على المحامين عدمُ الانخراط في المخاطر، خشيةَ أن يتعرَّضوا للإغواء، في غمرة الجشَع، أو لتغطيةِ بعض الخسائر غيرِ العادية، ويستخدموا الأموال التي قد يتركُها العملاء في أيديهم بحكمِ الضرورة أو الاختيار. وهو لم يربح قطُّ مبالغَ كبيرة من المال، لكنَّ ثَراءه تنامَى بدرجات بطيئة، حيث تراكمت الدفعات التي يقتصدها بعضها فوق بعض، وحيث زادَ حقُّ الانتفاع منها، عامًا بعد عام، من إجمالي مكاسبه التي كان يقتصد في إنفاقها.

وكان على رأس فريق موظَّفيه أو مكتبه كاتبٌ إداري؛ بينما وُجِدت على رأس مسكنِه الصغير نوعًا ما في الريف مدبِّرةُ منزل. وكان لدى السيد فرانكلين أقصى درجاتِ الثقة في كِلا الشخصَين. نشأ هذا الشعور المريح، حسَبما أظن، من خبرةٍ طويلة؛ لكنني أستطيع

مشاركة هذا الشعور عندما قابلتُ هذَين الشخصين الموقَّرين لأول مرة. حيث أظهر الكاتِبُ جميع السِّمات البارزة لمهنته. كان ماكرًا ومتحفظًا ومتغطرسًا. وفي رأيي إنه كان مخلصًا لسيده. والإخلاص مَيزة خاصة لكاتِب المحامي. لقد عرَفتُ الكثير منهم خلالَ عملي، لكن لم يحدث أبدًا أنْ خان أحدُهم سيده؛ ولم أسمع قطُّ، بِناءً على سلطةٍ موثوق فيها، أنَّ أحدَهم قد خانَ أسرارَ الموكلين. وكثيرًا ما أُتيحت لي الفرصةُ لمعرفة أنَّ رشاوى قد قُدِّمت إلى الكاتِب البائس، الذي ربما لا يتجاوز راتبُه جنيهًا في الأسبوع، وإلى الصغار منهم، الذين تبلغ أجورُهم بضعة شلنات — رشاوى تُساوي على الأقل الدخل رُبع السنوي لهم — ولكنهم لم يَقبلوا إفشاءَ أيِّ أسرار رغم ذلك. لقد فكرتُ كثيرًا في هذه الظاهرة، لكنني لم أفهم على نحوٍ كامل العلاقةَ الدقيقة بين السبب والنتيجة. ربما يكون القارئ محلِّلًا نفسيًّا أفضلَ مني، ويُمكنه تفسير ذلك. سأتركُ الحقيقة بين يدَيه ليُفكر فيها بنفسه؛ فقط أؤكد أنها حقيقة. ومِن ثَمَّ كما قلتُ سلَفًا، كان هناك هذا الكاتِبُ المخلص على رأس فريق الموظفين في مكتب السيد فرانكلين.

وكانت مدبرة المنزل التي تُشرف على الميزانية المنزلية لمسكن المحامي من النوع التقليدي للغاية. وهي تبلغ من العمر نحو ٤٨ أو ٥٠ عامًا. كانت طويلة القامة إلى حدٍّ ما، وضخمة الهيئة بعض الشيء. وكانت ملامحها قاسيةً قليلًا، ولم يكن صوتها مما يمكن وصفُه بأنه موسيقيٌّ، ولم يكن سلوكها مما يرقى إلى مرتبة السيداتِ المهذَّبات. لكنها كانت أيضًا خادمةً مخلصة؛ أو على الأقل أخبرَتني بذلك كثيرًا، وليس لديَّ دليلٌ على عكس ذلك. لقد أخبرتني، بعد وقتٍ قصير من معرفتي بها، أنها لم تَسرق من الرجل الصالح (أي سيدها السابق) قرشًا واحدًا. لطالما كانت تُنفق ماله على أفضلِ نحوٍ، ولم تحصل أبدًا على عُمولة من التُّجار الذين يبيعون لها الزبد أو الجُبن أو البيض أو أيًّا من أصناف الطعام الأخرى؛ وفي الحقيقة، هي لم تنهَبْه قطُّ مثلما تفعل بعضُ مثيلاتها من الخادمات. لقد كانت في الواقع مدبرة منزل نموذجية، وهو ما أعتبره أمرًا مفروغًا منه، وأطلب من القارئ أن يفترضه.

إنَّ هذا هو عصرُ الذمِّ وتداوُل الفضائح. وأنا لا أستطيع، كما أخشى، الاعتمادَ على أنَّ صفحاتي قد لا تقع في أيدي شخص أو شخصين على استعدادٍ دائمًا للشكِّ في جيرانهم وذكرهم بالسوء. فاسمحوا لي، إذن، وبوضوح وبشكلٍ قاطع، أن أُقِرَّ بعدم وجود علاقة من أي نوع بين السيد فرانكلين وهذه السيدة سوى العلاقة الظاهرية بين السيد والخادمة. إنه أمرٌ ينبغي ألَّا يكون موضع شكٍّ.

وذات يوم، بعد مرضٍ قصير، تُوفِّي السيد فرانكلين.

وقد أُبلِغ أقاربه وأصدقاؤه بخبرِ وفاته على نحوٍ شبه فوري، وقد ذرفوا بعض الدموع الحقيقية والمصطنَعة على جثَّته التي، وَفْق المعتاد، دُفنت دون مظاهرَ متباهية أو مراسمَ لا داعي لها، في باحةِ كنيسة قريبة.

بعد الجنازة وحتى قبلها، سادَ التعبيرُ عن الكثير من الدهشة لعدم الكشف عن وصية.

هل ترك وصيةً أو ماتَ بلا وصية؟ كان هناك الكثيرُ من التكهُّنات حول هذا الأمر، وتشكَّلت العديدُ من الآراء. رأى بعضُ الناس أنه من الحماقة أن يترك محاميًا، من بين كلِّ الرجال في العالم، لنواياه غير المعلنة، وأن يترك إرثًا سلبيًّا من المتاعب وانعدام الثقة والشك وانفطار القلب والحرب الاجتماعية بين معارفه وأقاربه. واعتقَدوا أنه من غير اللائق أن يفعل ذلك. بينما أكدَّ آخَرون أنه لا يوجد شيءٌ غير معتاد في عدم قيام المحامي بعمل وصية. ويمكن تقسيمُ هؤلاء الأشخاص إلى فئتَين. حيث قال المنتمون إلى الفئة الأولى بسخرية إن أطفالَ صانعي الأحذية عادةً ما يرتدُون أسوأَ الأحذية مقارنةً بالأطفال الآخرين، وأطفال الخياطين ملابسهم رديئة، وأصحاب الحانات لا يحتسون الخمور التي يبيعونها، والقساوسة نادرًا ما يُقدِّمون القدوة، من خلال ممارستهم الفضائلَ التي يُعلِّمونها من فوق منابرهم؛ فمِن ثَمَّ، ليس من المستغرب أن يتصرَّف المحامي في أمر يخصُّه تصرفًا يُظهر قمةَ انعدام الحصافة. كان هذا هو السبب الذي دفع البعضَ إلى الاعتقاد بأن السيد فرانكلين لم يكن لديه وصية بالتأكيد. أما المنتمون إلى الفئة الثانية، فقد سخروا من عملية الجدال المسهَبة وغير المُرضية هذه. حيث قالوا إن الأمر واضح بدرجة كافية. فالمتوفَّى هو محامٍ. وكان على دراية جيدة، وعلى رضًا أيضًا، بالترتيبات التي اتخذتها حِكمة الهيئة التشريعية لتوزيع التركة الشخصية لِمَنْ لا وصية له. وضدَّ كلِّ هذه التكهنات كانت هناك، رغم ذلك، التصريحاتُ الثابتة والمتكررة من الكاتِب الإداري، الذي قال إنَّ سيده الراحلَ قد كتبَ وصية، قبل نحوِ عامين من وفاته. حيث كُتِبت مسوَّدتها بخط يد السيد فرانكلين. كما أنه قد كتبَها في صورتها النهائية أو نسخَها بيده اليمنى من أجل منفِّذي الوصية. ومن ناحية أخرى، قُدِّم الإثبات من قِبل الكاتِب المخلص و«ذلك الوغد إدواردز»، وهو كاتِب مبتدئ، ضمنت له مهارتُه في تقليد التوقيعات إقامةً مجانية ومريحة في بورتلاند.

إذا كان المتوفَّى قد كتبَ وصية، فأين يمكن أن تكون؟ كان هذا سؤالًا معقدًا ومثيرًا للاهتمام. لم يُبدِ أحدٌ اهتمامًا أعمقَ من مدبرة المنزل في محاولة التوصل إلى إجابة عن ذلك السؤال. إذا كان من الممكن العثورُ عليها، فستعثر عليها. لقد كانت متأكدةً مثلما هي

متأكدة من حقيقة وجودها (وبالنسبة إلى هذا، مثلما لم تسمع مطلقًا بنظرية بيركليان المطروحة، لم يكن لديها أدنى ظلٍّ من شك)، أنَّ الوصية ستضمن لها مكافأةً عن مدَّة خدمتها الطويلة والجديرة بالتقدير. كما وعدها الأقاربُ والأصدقاءُ، الذين يتمنَّون العثور على الوصية، واعتقَدوا أنها قد تُساعد في اكتشافها، بمكافأتها إذا لم تُبرر الوثيقةُ ثقتها عند ظهورها، أي إذا لم يكن المحامي قد منحها نصيبًا من الإرث مثلما تعتقد هي. كان الكاتِب متحمسًا أيضًا في البحث عن الوصية في كلِّ مكان تُشير إليه حَصافتُه على أنه مكان محتملٌ لإخفائها. ومع ذلك، لم يعثر على الوصية ولا حتى مسوَّدة وصية. وقد فتَّشَ المكتبَ والمنزلَ بدقة. كما فُحِصَت الخزنة، وجميع العلب المعدنية، والأدراج، وحزم الأوراق، دون جدوى. لا داعي للقول إن الشكَّ قد تزايد. من المؤكَّد أن الوصية قد جرى التخلص منها، كان هذا هو الاستنتاجَ شبهَ الموحَّد الذي توصَّل إليه الجميع؛ وقد ذهبت أذهانُ الكثيرين منهم إلى التفكير في شخص بعينه باعتباره الجاني.

كان الجاني المشتبهُ به هو الابنَ الوحيد للمحامي، وهو شابٌّ مشاغب، ومصدر متاعب مؤلمة لوالده. كان من المعروف عن هذا الشاب أنه يأخذ المالَ بكثافة من والديه من وقتٍ لآخَر. لم يكن يُحب مهنة المحاماة الشريفة، ومن أجل تعليمه مهنةً أخرى، دفعَ السيدُ فرانكلين مبالغ كبيرة لرجال مرموقينَ في مهنٍ أخرى؛ لكن الطالب، أو المتدرب أضاع المالَ الذي دُفع على هذا النحو في أوقاتٍ مختلفة من أجل منفعته. كما سرقَ مرتين من والده مبالغَ كبيرة. ويبدو أنَّ صبرَ المحامي وعاطفتَه قد استُنفِدا قبل مدَّة من وفاته. وفي النهاية اضطُرَّ الابن، الذي حُرِم من كل البدلات التي تشجعه على أن يظل بلا عمل، إلى كسبِ عيشه من وظيفةٍ متواضعة نسبيًّا، وعندما تُوفِّي الأب، كان يكسب جنيهًا إسترلينيًّا في الأسبوع في مكتب حسابات أحد التجار. وقد سمعَ السيدُ فرانكلين الابن، الذي يعيش مع والدته، عن وفاة والده بمجرد أن علمَت السيدة بالخبر. فتركَ وظيفته على الفور، في ظل اعتقادٍ غامض أن ثروةً قد سقطَت في حجره. ومِن ثَمَّ استولى بصورة عملية على مكاتب المتوفَّى ومنزله، وكانت لديه فرصٌ عديدة للتخلُّص من أي وثيقة تُضِر بمصالحه. وهكذا، نمَت شائعاتٌ غير متعاطفة لتصبح حقيقة مفادها أنَّ هذا الشاب قد تأكَّد أنَّ والده الساخط قد حرَمه من الميراث، وأنَّ الوصية المفقودةَ كانت الوسيلةَ التي نفَّذ من خلالها عقوبته العادلة، وأنه عثرَ على الوصية، وفيها مصيره، وأنه، من أجل الاستفادة من التوزيع القانونيِّ للتركة، دمَّر كلًّا من الوثيقة ومسوَّدتها.

بعد نحوِ أسبوعين من وفاة السيد فرانكلين أُسنِدَت إليَّ مهمة التحقيق في لغز هذه الوصية المفقودة. كان المطلوب في المقام الأول أن أجد الوصية نفسَها، ولكن كان يُعتقَد أن

هذه مهمةٌ ميئوس منها. ولذا كان الشيء التالي المطلوبُ هو حصولي على دليلٍ واضح على أنها كانت موجودة وأن أعرف أحكامها وبنودها. كان من المطلوب أيضًا أن أحصل على أدلةٍ كافية لتوجيه الملاحقة القضائية ضد هذا الشاب.

ومِن ثَمَّ تبيَّن أن مهمتي، التي بدَت شِبهَ ميئوسٍ منها، ومن غير المرجح أن تكون مربحة، كانت قصيرة وسهلة ومُرضية.

فقد علمتُ عبر تحقيقٍ موجز في الملابسات المهمَلة أنَّ السيد فرانكلين كان على علاقةٍ بامرأة شابَّة، وقد أنجبَت طفلَين منه. وقد تمكَّن من إخفاء هذه العلاقة عن جميع أصدقائه ومعارفه، وقد شعرَ بعضُهم بفضيحةٍ شديدة عند اكتشاف مثلِ هذه الإساءة للآداب الاجتماعية. لقد ذهبتُ لزيارة هذه السيدة، وفي أول مقابلةٍ لي معها، تعرَّفتُ على لُغز إخفاء الوصية. لقد شعرَت المسكينة بالارتباك الشديد من استفساراتي، وعلى الفور رأيتُ أنه من الحكمة أن أُخبرها بالهدف الحقيقي لزيارتي، فقد تخيلَت نفسها متهَمة بجريمة. ومِن ثَمَّ قالت: «صدِّقني يا سيدي، أنا لم آخُذْها. لقد أعطاني إياها. وأخبرني أن أحتفظ بها حتى وفاته؛ لأنها ستكون مصدرَ حمايتي الوحيدَ بعد وفاته، وأنني يجب أن أُعطيَها فقط إلى السيد ثيسلثوايت.» ففهمتُ الخطة الكاملة للراحل السيد فرانكلين. وطلبتُ منها أن تدَعَني أطَّلِع عليها. فردَّت عليَّ بتوسُّل كي لا آخذها منها، حيث تساءلت: «ماذا سيحدث لي ولأولادي الأعزاء إذا فقدتُها؟» كان من الواضح أنَّ المرأة البسيطة لا تعرف شيئًا عن الإجراءات القانونية، واحتضنت الورقة وكأن مجرد حيازتها سيمنحها المالَ الذي خُصِّص لها بموجبها. لقد وعدتُها بأنني لن أحرمها منها. وأنني سأدعمُ بالتأكيد مقصدَ والِد أبنائها بدلًا من إحباطه. وهي لم تستطع معرفةَ أيِّ شيء من محتويات الوصية بخلاف التصريح العام للمتوفَّى؛ إنَّ مصدر حمايتها المستقبلية مرتبطٌ بأحكامها. حيث سلَّمها الوصية في مظروف مغلق. وكان الشمع الذي أُغلق به المظروف سليمًا ولم يُمَسَّ عندما وضعَته أمامي.

لم تتطلَّب كيفيةُ التصرف لحظةَ تفكير من جانبي. إذ لم يكن من واجبي، ومن غير المقبول أن أضعَ هذه المرأة الشابة في وضعٍ سيئ. لقد أنجزتُ أكثرَ مما كنتُ أتمناه، وكلَّ ما كان يُمكن توقعُه مني، بعثوري على الوصية. ومِن ثَمَّ نصحتُها على الفور باستشارة محامٍ محترم؛ فذهبَت معي إلى مكتب رجل نبيل بالقرب من مقرِّ سكنها؛ لم أكن على معرفة سابقة به، لكنه يحظى بسُمعة جيدة.

وهكذا أصبحَ الابنُ المشاكس للمتوفَّى بريئًا من الشبهات؛ وأُثبِتَت الوصية في محكمة الأحوال المدنية، ونُفذ مقصدُ الموصي بأمانة.

كانت إحدى الوريثات التي حَظِيَت بقدرٍ ضخم من بقية تركة المتوفَّى، والتي تُشكِّل الجزء الأكبر منها، حزينةً للغاية بسبب الشخص الذي اختاره السيد فرانكلين كمؤتمنٍ للحفاظ على وصيته. حيث قالت: «ليس الأمر كما لو أنه ترك لتلك المرأة مبلغًا كبيرًا من المال.» وتابعت قائلة: «أنا لا أشكو من مقدار الإرث الذي قدَّمه للأطفال التعساء، لكنه كان من الممكن أن يُجنبنا إذلالَ طلب الوصية منها. فلماذا لم يتركها في عُهدة أحد الأشخاص المحترمين الذين أعطاهم الجزءَ الرئيسيَّ من ثروته؟»

كان التفسير هو: «عجبًا، ألا ترَين، يا سيِّدتي العزيزة، أنه على الرغم من أن المرأة لم يكن لها سوى نصيبٍ ضئيل من التركة، كان نصيبها هذا يعتمد كليًّا على صون الوثيقة. وبما أن الجزء الأكبر من الممتلكات كان الموصي قد وزَّعه بالطريقةِ نفسِها التي أقرَّها القانون بالفعل، لم تعد لديه أهدافٌ قوية لكتابة وصية من الأساس، باستثناء هدفٍ واحدٍ وهو حفظ نصيب المرأة وأطفالها في الإرث. وقد اختار أكثرَ الأماكن أمانًا من بين جميعِ الأماكن التي يُمكنه إيداعُها فيها؛ لأنه بالطبع لم يكن يرغب في تدميرها من قِبل أيٍّ من هؤلاء الأشخاص المحترمين، الذين لم يكونوا ليهتمُّوا كثيرًا إذا كانت الأم وأطفالها الصغارُ قد تُرِكوا في فقرٍ تام.»

«هل تقصد الإشارة إلى أن أيًّا منَّا كان سيُدمر الوثيقة؟»

«كلا بالتأكيد؛ لكنني أظن أن المتوفَّى اعتقدَ أنه من الجيد أيضًا أن يحميَكم جميعًا من الإغواء.»

لغزُ الدوق

منذ أكثر من خمس سنوات بقليل، ارتُكِبت سلسلة من عمليات السطو على نطاق واسعٍ في غرب لندن. لم يكن هناك تاجرٌ شهير لم يُعانِ من هذه السرقات، التي حيَّرَت لمدَّة طويلة الشرطةَ بكلِّ ما أُوتِيَت من مهارة ويقظة.

بعد انقضاء ما يُقارب ستةَ أشهر من الاعتقاد بأن هذه السرقات كانت نتيجةَ عملٍ منسَّق من قِبَل مجموعة من مجرمي العاصمة، شكَّل الضحايا وأصدقاؤهم لجنةً، وأسندوا إليَّ مهمة التحقيق في القضية.

بما أن الأمر قد اكتسبَ أهميةً كبيرة في ذلك الوقت، فقد وظَّفتُ خمسة مساعدين أو ستة، وبدأتُ التحقيقات على نحو ممنهج. كانت الشرطة أيضًا في حالة تأهُّب، وصدرَت لهم تعليماتٌ خاصة من سكوتلاند يارد بأنه ينبغي لهم التعاونُ معي، أو عمَليًّا، حسبما يُمكنني القول، أن يتصرفوا وفقًا لتعليماتي.

سيكون من المملِّ أن أتحدث عن جميع التنكرات والحيل التي تخيلتها وابتكرتُها. ولكن يكفي القولُ إنَّ نصف دستة من الرجال مرُّوا بتغيُّرات في مظهرهم أكثر من الحرباء، وانتشروا في كل مكان تقريبًا أثناء التحقيقات.

كنت قد اتخذتُ قرارًا بأنَّ هناك عصابةً يجب أن تُسحَق. كما كنت أعلم أنَّ النجاح أو الفشل ما هو إلا مسألةُ وقتٍ ومال. فمن حيث الوقتُ يمكنني أن أُخصِّص منه بقدر ما يمكن أن يدفع مقابله التجَّار المعنيُّون بالقضية. ومن حيث المالُ، أعتقد أنه لن يكون له حدود. إذ إنَّ الأطراف المتضرِّرة، والمعرَّضة للضرر، بعمليات العصابة، على استعدادٍ لإنفاق كل الأموال اللازمة لمعاقبة الجناة.

لم تكن المهمةُ سهلة. وقد وقَعنا في بعض الأخطاء، وتسبَّبنا في بعض الضرر، وإنْ كان الضررُ لم يقَع على أشخاصٍ ذَوي أهمية. كما سلَكْنا في بعض الأحيان مساراتٍ خاطئةً. وفي أحيان كثيرة كنا قريبينَ للغاية من اللصوص، ومع ذلك فشلنا في القبض عليهم. لم يكن أيٌّ منا يفتقر إلى الشجاعة أو ينقصه الصبر. فكلُّ خطوة خاطئة جعلَتنا نسير بحذر أكبر. وكل خطأ جعلنا أكثر حذرًا. وكل اختلاف جعلنا نفحص القرائن المفترضة بدقة أكبر.

وذاتَ صباح جاءني شرطيٌّ هو وأحدُ رجالي بأخبار.

قال الشرطي يو ٩٩: «لدينا دليل، يا سيدي.»

فقلت: «هذا جيد. ما هو؟»

قال مساعدي: «على الأقل نعتقد أنه دليل.»

أضافَ الشرطي: «أنا مَن أخبرتُه عنه. أنا من اكتشفتُه.»

«كلا، لا تقل ذلك. لقد بذلتُ الجزءَ الأكبر من جهدِ اكتشافه.»

«كيف تزعمُ ذلك؟»

«حسنًا، ما مدى معرفتك به قبل أن أُخبرِكَ عنه؟»

«وما مدى معرفتِك به أنت عندما أخبرتَني عنه؟»

رأيتُ أنَّ هناك شجارًا جميلًا يختمرُ بين هذين الموقَّرين، وحاولتُ إيقافه؛ لكن تلك لم تكن بالمهمةِ السهلة مثلما قد يظن القارئ. فإذا فرَضتُ قيودًا على مساعدي من أجل تهدئة الموقف، فقد أكون بشكلٍ عارض أزيدُ من غرور الشرطي، وأجرحُ بشكل تعسُّفيٍّ الفخرَ الجدير بالثناء لمساعدي. وإذا حاولتُ كبح جماحِ الشرطي، فقد أصدُّه بعيدًا عني ليذهب إلى سكوتلاند يارد، حيث سيخبرهم بالدليل ليتبعوه، وتتضرَّر مصداقيتي المهنية مع التجار. ولذا يجب أن أتحمل القليل من هذه المشاجرة، وأحاول تهدئة انزعاجهما.

والحقيقة هي أنَّ شخصًا ما — سائق حافلة، حسبما أظن — قد أخبَر الشرطيَّ أن شيئًا ما اعتادَ على رؤيته كان «أمرًا غريبًا للغاية». ومِن ثَمَّ كرَّر الشرطي، الذي كان يُغطي نفس مسار البحث المكلَّف به مساعدي، معلوماته على مسامع مساعدي الذي يعرفه جيدًا، وقد ردَّد رأيَ سائق الحافلة بلُغته العاميَّة. فأيَّد مساعدي الرأي الذي عبَّر عنه بالفعل، وبحث فيما وراءه.

قال مساعدي: «إنه أمرٌ غريب، كما قلت.» وأضافَ: «أعتقد أن هذا دليلٌ على ما نريد أن نكتشفه على وجه الخصوص. عليك أن تأتي معي إلى الحاكِم غدًا، عندما تفرغ من

عملِك، وسأُقدمك له. وإذا أحسنَّا الاستفادة من الدليل، فسيُصبح سخيًّا معنا. سوف يجعل الأمر يستحقُّ جهدك، هذا ما أضمنه لك بكل تأكيد.»

ثم تجاذبا أطرافَ الحديث حول القضية، وأستطيع القول إنَّ مساعدي قد أطلعَ الشرطي على سرِّ تعليماتنا بما يكفي لمساعدته في فهم خطورة الآثار التي قد يُؤدي إليها هذا الدليل.

أظن أنَّ القارئ الشَّغوف دائمًا سيسأل: «ما هو، إذن، هذا الدليل؟»

لقد كان أمرًا بسيطًا. ولا يبدو أنه يشير مباشرةً إلى المعلومات التي أريدها، لكن العديد من الأدلة الحقيقية لم تُصبح كذلك إلا بعد تتبُّعِها حتى نهايتها. كان مثل ثمرة جوز صغيرة، تحتاج أن تكسر قشرتها. فربما يكون بداخلها النواةُ التي أريدها، أو ربما لا.

مع عدم وجود أي شيء مثلِ انتظام الوقت أو فترات الظهور، ولكن مع تَكْرار كبير، يمكن مشاهدة عربة بروام متهالكة يجرها حصان بائس عند أو بعد الغسَق تسير على طول الطريق المؤدِّي عبر الامتداد الغربي للعاصمة داخل الضاحية الغربية الجميلة. بدأ الدليل الذي نحن بصدده مع تلك العربة عند الطرف الشماليِّ الشرقي من جرين بارك، وانتهى عند المدخل الشرقي لقرية ... كان الأمر مثيرًا للشكوك لأنَّ تلك العربة لم يكن يقودها الرجل نفسُه طَوال المسافة بالكامل. حيث يقودها السائقُ حتى منتصف الطريق تقريبًا، ثم ينزل من مقعده، ويُسلِّم السَّوطَ إلى شخصٍ آخر (دائمًا هو الشخص نفسُه) ودائمًا يقابله عند النقطة نفسِها.

كانت تلك العربة من العربات المسجَّلة في سمرست هاوس كعربةِ أجرة. وهي عربةٌ خاصة، بدَت وكأنها مِلك مدير أحد مكاتب البريد أو سمسار فقير.

إلى أين تذهب هذه السيارة ومن أين تأتي؟

كان من بين الصعوبات في قضيتنا هذه تتبعُ البضائع المسروقة. أعترفُ أنه لم يكن من الجيد عدمُ استطاعتنا تتبع أي جزء من البضائع. لقد بحثنا في جميع الأوكار المشبوهة لتداول البضائع المسروقة. لا أعتقد أن هناك مكانًا واحدًا معروفًا منها لم نفحَصْه. هل يمكن أن تكون عربة بروام تلك هي وسيلة لنقل المسروقات بكميات صغيرة إلى مخبَئِها ومنه إلى مكانٍ أو أماكنِ تحويلها إلى أموال؟ كنا عازمين على الإجابة عن تلك الأسئلة.

وُضِعت دوريات مراقبة دَءُوبة على مراحل من جرين بارك إلى ...

في مساء اليوم التالي، لم تظهر العربة، ولا في المساء الذي يليه؛ ولكن في المساء الثالث، شُوهِدَت تخرج من حارة في بيكاديللي، بالقرب من شارعٍ يوجد فيه إسطبلٌ وضيع. ومِن ثَمَّ جرى تتبُّعها ومراقبتها طوال رحلتها. ورأيتُ السائق قد تغيَّر.

لقد فحصتُ وجهَ السائق بدقة.

خارج قرية ... وعلى الطريق السريع، كان هناك منزلٌ ريفي، ليس في أفضلِ حالة، مع جراج وإسطبل لعدد من العربات والخيول أكثرَ مما يبدو أن الساكن يستخدمُه. كان المنزل، كما يُمكنني أن أوضح، متواريًا عن أنظار المسافرين بسياجٍ قريب من الأوتاد الخشبية، وبوابة عالية، وسياج طويل كثيف مورق من الشجيرات.

وقد توقفَت العربةُ في هذا المنزل الريفي. ونزلَ السائق، ووضع الخادمُ الحصانَ والعربة في المباني الملحقة المخصَّصة لهما، التي يدخل إليها من الخلف.

كلُّ هذا بدا لي مريبًا للغاية. ومع ذلك، فقد عقَدتُ العزم على متابعة تحقيقاتي. إذ لم تكن هناك أدلةٌ كافية حتى الآن، في رأيي، لتبرير طلب مذكرةِ تفتيش، أو توقيف أيِّ شخص بتهمة جنائية.

لم تُسفِر التحقيقات في القرية والحيِّ عن الكثير؛ لكن القليل من الأدلة الوقائعيَّة البسيطة التي حصَلنا عليها تَميل إلى تقوية الشكوك حول وجود وكرٍ للسرقة.

لقد اعتصَرْنا التجارَ باستفساراتنا، لكن هؤلاء الذين يُعتبرون آبارًا للشائعات أو الفضائحِ كانوا جافِّين تقريبًا ولا يعلمون أيَّ شيء. الحقيقة هي أنَّ هذا المنزل الريفيَّ لم يكن يسترعي الانتباهَ بمظاهرِ ترفٍّ أو عكس ذلك. ما يحتاجه يطلبه ويدفع ثمنه. فلم تكن التجارة التي تتمُّ بين نزلائه وأصحابِ المتاجر الذين يتعاملون معهم كبيرةً بما يكفي لإثارة حسد مُنافسيهم. قد يُدهَشُ بعض الناس، الذين تُعذِّبهم الفضيحة، أن يعرفوا أن الشائعاتِ يمكن تجنُّبها أو «التلاعب بها»، إذا كنت تعرف كيفية القيام بهذه المهمة.

بينما كنت منخرطًا في هذه التحقيقات، مع اثنين من مساعديَّ، كان المساعد الذي تحدَّث إلى الشرطي، كما أوضحت، قد أجرى معه حديثًا مرةً أخرى، وأسماه «خلافًا حادًّا». وقد ذكر الأمر، على ما أعتقد، في مقرِّ شرطة العاصمة، وتولت السلطاتُ التحقيقَ فيه.

استدعاني رقيبٌ نشط في شرطة المباحث، وطلبَ مني معلوماتٍ، اعتقدتُ أنني ليس لديَّ الحريةُ في رفض تقديمها، ولذلك أعطيتها إياه. فشرعَ على الفور في العمل، وحصل على أوامرَ بتفتيش المكان والقبضِ على النزلاء.

كان الوقت الذي اختاره للانقضاضِ على المشتبَهِ بهم هو الساعة الثانية عشرة ليلًا.

في ذلك المساء، خرجت عربة بروام المتهالكة من الإسطبلات، وشقت طريقها في الوحل والزحام عبر ميدان بيكاديللي، وفي المكان المعتاد تقريبًا، تغيَّر السائق. ثم ابتعدَت العربة مرة أخرى بوتيرة متسارعة قليلًا، كما لو أن لجام الحصان قد أُرخي. ونزلَ السائق أمام المنزل الريفي، ودخلت العربة والحصانُ إلى الإسطبل كالمعتاد.

في حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف، دخلَت مجموعةٌ من رجال الشرطة إلى المنزل الريفيِّ من الخلف. وأُوقِظَت الأسرة الصغيرة بأكملها. كان رعب الآنسة جودوين عظيمًا، وكاد شقيقُها أن يُقتَل بسبب الذعر. وعن البقية ليس هناك شيءٌ مختلِف يُمكن أن يقال. كان السائسُ والسائقُ (شخص واحد) ومدبرة المنزل والخادمة العامة (أيضًا شخص واحد)، وهما بقية الأشخاص الموجودين بالمنزل، مذعورين للغاية.

أصرَّ الرقيب شديدُ الذكاء على فحص المنزل بدقة وتفتيش الإسطبلات واستكشاف الحديقة. وفي هذه الأثناء، طُلِب من السيدة والسيد والخدم اعتبارُ أنفسهم رهن الاحتجاز.

عبثًا احتجَّ الرجلُ المحترم على هذا الانتهاك، وفي بعض الأحيان هدَّد بلطفٍ بإسقاط كلِّ انتقام القانون على معذِّبي أخته. تعامَلَ الرقيبُ مع التهديد بازدراء، وسخَرَ من ادِّعاء السجين القرابةَ مع الآنسة جودوين. وكان الرد على جميع التوسلات والتهديدات والاحتجاجات والوعيد بأنه يؤدِّي واجبه، أو الإشارة إلى أنه يعرف ما يفعلُه وما هو بصدده.

لم يكشف البحثُ والاستكشاف عن شيء. وأُصيبَ الضابط بخيبة أملٍ شديدة، لكنه لم يكن قد شعرَ بالإحراج بعد. ورأى أنه، في كل الأحوال، سيكون آمنًا إذا استمرَّ، وأنه إذا تراجع فقد يُعرِّضُ نفسَه لتهمةِ الإهمال. كان هناك ما يكفي من الخطأ، أكثر مما هو كافٍ من الغموض، لتغطيةِ أيِّ إفراط في اليقظة، أو أي تجاوز في أداء الواجب. لذلك قرر أن يُواصل.

عندما قيل للسيد جودوين إنه يجب أن يرافق الضابط كشخص رهن الاعتقال، وإنه يجب على الآنسة أيضًا أن تنالَ نصيبها من هذا الإزعاج، قدَّما مرةً أخرى كل شكلٍ من أشكال الاحتجاج. كلها كانت عديمةَ الفائدة. كان الضابط عنيدًا ومرتابًا. وقد عبَّر بوقاحةٍ عن عدم تصديقه للزعم القائل بأن المستأجر اللطيفَ للمنزل الريفي كانت سيدةً شابة نقيَّة وبريئة، صاحبةَ تِركة مستقلَّة صغيرة، وأنَّ الزائر هو شقيقُها ووصيُّها. وقال إنَّ هذه التوضيحات قد تُفيد القاضيَ غدًا، لكنها لن تكون ذاتَ فائدة بالنسبة إلى الشرطة.

لم يكن هناك مخرجٌ من الفوضى المروِّعة. حيث نُقِل السيد والآنسة جودوين من قِبَل الرقيب، بموجب أوامرِ توقيفه، إلى قسم شرطة العاصمة الرئيسي، واحتُجِزا في زنازينَ مبتذَلة.

في بعض الأحيان خلال الرحلة البائسة إلى لندن كان السجينان يُقاومان، وفي أحيانٍ أخرى غَرِقا في اليأس.

ومرةً أخرى، وهما في الطريق إلى العاصمة، قالت السيدة لرفيقها:

«لا تهتم، يا عزيزي جورج؛ نحن لسنا لُصوصًا؛ لقد فتَّشوا كلَّ جزء من منزلي، لكنهم لم يجدوا شيئًا.»

فقال الضابط: «لا تقولي أيَّ شيء من شأنه أن يضرَّكما أثناء وجودي معكما. لا أريدكما أن تُوقِعا نفسَيكما في جريمة. واعلما أنني سأُقدم كلَّ ما أسمعه كدليل؛ ولا أُمانعُ أن أقول إنه لا يروق لي كثيرًا ما تبدو عليه الأمور. «لم يعثر على شيء!» حسنًا، إذا لم يكن هذا النوع من الكلام ثرثرةَ لصوص، فلا أعرفُ ماذا يكون إذن. لم أجد شيئًا بعد؛ ولكن إذا تقرَّر حبسُكما احتياطيًّا، فسأعثرُ على شيء حتمًا!»

ارتجف السيد جودوين. بينما كانت الآنسة جودوين بليغة في استنكارها للموقف.

كان الرجل، بحلول وقتِ وصول الجمع إلى قسمِ الشرطة، قد تمالكَ نفسَه. وطالبَ بحقِّه في الاستعانة بمحامٍ. وقد حصَلَ عليه. واختار اسمَ محامٍ جنائيٍّ مشهور؛ واحد من أبرع المحامين وأكثرهم احترامًا.

عرَف المحامي المحترفُ موكلَه. حيث كُلِّف من قبل في ملاحقة قضائية كوكيل لمحامي عائلة ذلك الموكل.

وفي غضون ١٠ دقائق من وصول المحامي إلى القسم، فُتِحَ باب زنزانة السيد جودوين، واصطحب الرجل مع محاميه إلى الشقة الخاصة للضابطِ الذي يعيش في المبنى نفسِه. وقد حصلَت الآنسة جودوين أيضًا على رعاية بقدر كبير من المعاملة الطيبة أثناء إقامتها في المقرِّ المدَني هذا.

وبعد مقابلةٍ قصيرة أخرى بين المحامي والرجل المحترم، وتبادُل بضعِ كلمات مع السيدة الموجودة في مقرِّ الانتظار الجبري، عُقِدَ اجتماع بين القاضي وكاتِبه المخضرم والمحامي.

ثم عُرِضَ السيد والآنسة جودوين بعد ذلك على القاضي في غرفة سيادته الخاصة، وأُطلِقَ سراح الأخِ والأخت بناءً على تعهداتهما الخاصة.

لم تُتخَذ أيُّ إجراءات أخرى في القضية ضد سكان المنزل الريفي. ولم تتخذ أيُّ إجراءات من قِبَل تلك الآنسة والسيد النبيل ضد أيِّ شخص آخر لتفعيل القانون ضدَّهما. وقد حصَلَ الرقيب اليقظ على ترقية. وسأدعُ القارئ يُخمِّن، بناءً على أي نظرية وبأيِّ تأثير. هل كانت مكافأةً على خدمةٍ حصيفة وبارعة؟ هل كانت ثمنَ الصمتِ الدائم؟ هل كانت لإخفاءِ أمر غامض؟

لا أستطيعُ أن أشرح لماذا عُومِل الرقيبُ بهذه الطريقة. ولكن بقدرِ بعض الأمور الأخرى التي يُمكنني شرحُها بشكل صحيح، سأفعل.

أولًا: دعني أقُل إنَّ الشرطة لم تُمارس المزيدَ من التدخلات في خُططي للكشفِ عن اللصوص الحقيقيِّين، وإنني قد ألقيتُ القبضَ عليهم وقدَّمتُهم إلى العدالة.

ثانيًا: يُمكنني أن أخبر القارئ أن السيد جودوين لم يكن سوى اسمٍ مستعار لسموٍّ دوقٍ ما، وهو رجلٌ نبيل يتميز بنسَبٍ عريق، وكان والده شديدَ الفخر بالتقاليد التاريخية لعائلته. والدوق الحيُّ لديه سجلٌّ إيجارات ضخم، جزءٌ ضئيل منه يذهب إلى الآنسة جودوين، التي وإن لم تكن أختًا، فهي في علاقة حميمة جدًّا معه. وقد كانت لديه أسبابٌ خاصة به، في رأيي، لاختياره الطريقةَ الهادئة، أو الغامضة، كما ينبغي أن أقول، التي يُخفي بها زياراتِه إلى المنزل الريفي في الضاحية الغربية.

المحامي والمهرب

كان تومي جونسون مهرِّبًا ينتمي إلى المدرسة الحديثة في التهريب، التي ليس من الضروري القولُ أكثرَ من أنها تختلف اختلافًا كبيرًا عن المدرسة النمطية. لم يكن تومي ولا أيٌّ من رجاله من المجرمين المعتادين الذين يصفُهم خيالُ تلميذ مدرسة، تحت وصاية عبقرية الكتَّاب الرومانسيِّين المشهورين؛ كما أنهم لا يُشبهون العمالقة المرِحين ذَوي الأحذية الطويلة، في الصور الشائعة، التي دائمًا ما يصنعها الفنُّ الهابط للمهرِّب الجريء.

كان تومي، كبيرُ المهربين، رجلًا قصيرَ القامة، قويَّ البِنْية، أحمرَ الوجه، حسَن الطباع، يعيش حياةً تُشبه التجَّار البسطاء (الذين كان هو أيضًا واحدًا منهم) ممن يعيشون في ذلك الجزء من جنوب إنجلترا الذي ينتمي إليه. ويُقال إنَّ الجميع كانوا يُحبُّونه، وكان هو يُحب الجميع؛ باستثناء ضابط الجمارك.

لم يكن أحدٌ يعرف أيَّ شيء عن معارف جونسون وأقاربه، والقليلون هم مَن اهتمُّوا بالاستفسار. وأنا غير متأكِّد ما إذا كان تومي هو اسمه الحقيقي أو لا. في إحدى المرات، عندما وقَع في مأزق، سأله قاضٍ محلِّي عن أصدقائه (ربما يعني أقاربَه)، فأجابَ تومي المبتهِج، مع إظهار الأسف، إلى حدٍّ ما مثلَما قد يفعل ذلك الطفلُ غريب الأطوار للمبجَّلة السيدة ستو توبسي: «إنه اكتشف أنه ليس لديه أي أصدقاء.» ومع ذلك، كان هناك الكثير من التواضُع أو القليل من الكذب في هذا. إذ كان لدى تومي جونسون مجموعةٌ كبيرة من المتعاطفين، الذين كانوا مستعدِّين دائمًا أن يُقدِّموا له أيَّ خدمة في وُسعِهم. وقد كانت الشائعات التي دارت على مدى أميالٍ عديدة حول مكان إقامته هي السبب في السُّمعة التي اكتسبها حول كونه ما كان عليه بالفعل؛ مهرِّبًا. شعر تومي أنه من الضروريِّ أحيانًا تغيير الإطراء، لكن ليس دائمًا. فهو لم يذهب أبدًا إلى حدِّ التنصُّل من الاحتيال على الجمارك. لقد كان مسرورًا لسماع الناس يُجسدون بالكلمات النظرية الشائعة القائلة بأنه لا ضرَر في

سرقة مصلحة الجمارك. لم يكن مهتمًّا بأن يُخفي عن بعض الأشخاص أنه من حينٍ لآخرَ يُشغِّل سفينة سرًّا بين ميناء هولندي ونقطة غامضة عند جانبٍ وعر من جزيرة وايت. ومع ذلك، فهو يُفضِّل عادةً أن يُعرَف عنه أنه رجلٌ كان يعمل في هذا المجال في السابق، لكنه تقاعدَ الآن.

وقد قرَّر تومي، الذي كان رجلًا وافرَ الرزق، ذات مرة أنه سيتخلى بالفعل عن عمله أو مهنته المحفوفة بالمخاطر وغير المشروعة.

قال ذاتَ مرة لزوجته الحنونة، عند عودتهما من الكنيسة مساءَ أحد أيام الآحاد: «يا عزيزتي، سأتوقف عن ممارسة أعمال التهريب. أعتقد أن الوقت قد حان لذلك. يُمكننا العيش جيدًا بدونها، كما تعلمين. هذا العمل هنا، محل الجزارة، يُدِر عائدًا جيدًا، والفندق الصغير في البلدة «بي» قائم بذاته، ومصنع الطوب يعمل على نحو جيد.»

أجابت زوجتُه: «أتمنى من كل قلبي أن تفعل ذلك.»

«سأفعل. لقد اتخذتُ قراري.»

قالت زوجته اللطيفة: «لقد قلت ذلك من قبل، يا تومي، لكنك لم تفعل. أتمنى لو استطعت التوقُّف عن ذلك. لكنك لا تستطيع التوقف عن كونك مهرِّبًا؟ أنت تعشق المتعة التي يُحققها لك هذا الأمر، مثلَما تقول، أليس كذلك؟»

«حسنًا، سأفعل. لقد اتخذتُ قراري وعقَدتُ العزم تمامًا. عندما أتخذُ قرارًا بشأن أيِّ شيء، كما تعلمين، فأنا أُنفذه. سأقوم بعمليةِ تهريب واحدة فقط، عملية أخرى فقط، ثم أترك اللعبة، وألتزم بالتِّجارة على البر.»

«هذا ما قلته في العام قبل الماضي. هل تتذكَّر يا تومي؟»

ومِن ثَمَّ ارتجفَ تومي. لقد قطعَ هذا الوعدَ على نفسِه، وحافظَ عليه من خلال تشغيل مركبٍ صغير من ميناء في هولندا إلى إحدى نقاط إخفائه هنا. وفشلت العملية. حيث اكتشفَ خَفر السواحل وصولَ المركب، وصادَروه مع محتوياته، وقُبِضَ على تومي جونسون أيضًا، وأُودِع في نهاية المطاف في سجن وينشستر، حيث ظل فيه لمدَّة طويلة، في انتظار التحقيقات القضائية.

واتضحَ هنا أنَّ المهرب كان لديه أصدقاء. كانت الحقائقُ واضحةً قدر الإمكان، لكنَّ تفسيرها أو تأثيرها على مسألة ثبوت الإدانة أو البراءة تُرِكَت لهيئة المحلَّفين، التي فُسِّر لها القانون من أجل توجيهها بكل يقين ممكن. وحصلَ تومي جونسون على البراءة رغم معارضة الأدلة وفي وجود قوة التعاطف بينه وبين كلِّ رجل في هيئة المحلفين.

دعني، مع ذلك، أعُدْ إلى المحادثة الأخيرة بين السيد جونسون وزوجته.

قال: «سأتوقَّف عن التهريب بعد ذلك، لكن الأمر يُكلِّف الكثير من المال. بسبب خَسارة السفينة، وكل مشروب الروم، ومشروب البراندي، ومشروب جين الهولندي، والمال الصعب الذي دفعتُه إلى المحامي سويلينج، لقد دُمِّرنا تقريبًا. لم أستطع التوقُّفَ عندئذٍ. ورغم كلِّ المخاطر، تعيَّن عليَّ أن أستمر؛ لكننا الآن وقَفنا على أقدامنا مرةً أخرى، الحمد لله! وسأتوقف عن التهريب بعد أن يُحالفني الحظُّ قليلًا.»

بعد اتخاذ هذا القرار، شرعَ السيد جونسون في اليوم التالي في تنفيذه. حيث سحَبَ مبلغَين جيدين من المال من بنكَين مختلفَين؛ واشترى بعد ذلك بمدَّة وجيزة، سفينةً جيدة، وصفها بـ «الجمال المثالي»، كما أعلن، وكانت وفق المعتاد تُشحَن بالخمور على الساحل المجاور.

وقد تصادفَ، بعد أسابيعَ قليلةٍ من ذلك، أنني كنت مسافرًا بالحافلة من كاوز إلى فينتنور، في جزيرة وايت، عندما مرَّت بنا عربتان محمَّلتان بالبضائع التي صادرتها الجمارك على الطريق.

فصاحَ سائقُ العربة التي استقلَّها، وخاطبَ سائقَ العربة الأولى: «يا للعجب! لِمَن هذه البضائع؟»

«إنها لتومي جونسون، حسبما أظن.»

قال السائق متنهدًا: «يا له من مسكين! لقد صادفه سوءُ الحظ مرةً أخرى!»

ومِن ثَمَّ فشلت المغامرة الأخيرة التي كانت لتتويج القرار الصادق، وكان لا بد من مواجهة الأسوأ.

حيث حُبسَ المهرِّب التائِب مرةً أخرى في سجن وينشستر لعدة أشهر متتالية. وأُثبتَت بالفعل الدَّعوى ضدَّه بأوضحِ الأدلة. وانخلعَ قلب تومي. وأصبح جسدُه الممتلئ نحيلًا، وفقَد خدَّاه امتلاءَهما ولونهما، وصارت ثيابُه فضفاضةً حول جسده، كما صارَ غيرَ مرتاح البال.

كانت هذه هي المرة الرابعة التي يُحاكَم فيها تومي جونسون على انتهاكٍ مماثل ضد قوانينِ بلاده. وفي كل مرة تُصبح قضيته، في رأي مستشاريه القانونيِّين، أكثرَ يأسًا من ذي قبل. وبينما لم تكن الحقائقُ أقوى في كلِّ مرة، كان التحاملُ ضدَّ السجين يزداد مع مُثُوله المتكرِّر في قفص الاتهام.

قرَّر تومي وزوجته ألا يبخَلا بأيِّ نفقاتٍ من أجل الدفاع. حيث تلقى السيد سويلينج، من جوسبورت، الذي كان ناجحًا جدًّا في القضايا السابقة، تعليماتٍ مرة أخرى، بأن يُنفق

ما يشاءُ من المال في المذكرات للمستشارين. وأظن أنه صنَع شيئًا رائعًا من هذا المهرب الحديث الجريء. ومِن ثَمَّ دُفع له ٤٠٠ جنيه إسترليني على الحساب في البداية. وأعطوه ١٠٠ أخرى قبل موعد دخول السجن، وكان هناك رصيدٌ لم يُسيَّل بعد، وقد وافقَ المحامي على منح الوقت لإتمامِ عملية تسييله. والآن، لنفترض أنه أعطى السيد نيدي، المستشارَ الصغير الذي لا يعرفُ الكلل، ٢٥ جنيهًا (وهو ما يتجاوز الحدَّ المسموح به)، وأنَّ السيد سيلكيارن، القائد البارز، حصَل على ٧٥ جنيهًا (وهو مبلغٌ ضخم للغاية)، ولنقُل إنه قد خصَّص ٥٠ جنيهًا للتكاليف الإضافية الطفيفة غير المتوقعة، عندئذٍ سيتبيَّن أن المحاميَ قد حقَّق ربحًا سخيًّا. ولكن لا يزال هناك رصيدٌ يتعيَّن تسويته.

كانت الأيام التي سبقت المحاكمةَ أيامَ قلقٍ للمهرب وزوجته. وقد زادت شدتُها، بالطبع، مع اقترابهما من المحنة الكبرى. وفي النهاية حلَّ اليوم الذي حُوكِم فيه تومي جونسون للمرة الرابعة في حياته بتهمة التهريب في محكمة الجنايات في وينشستر.

ومرة أخرى، حصلَ على البراءة، وهو ما مثَّل مفاجأةً لمحاميه ومستشاريه.

يمكن العثور بسهولة على تفسير هذا الإخفاق في تطبيق العدالة. لقد تسبَّب القبضُ على جونسون في ضجة كبيرة في جميع أنحاء مقاطعة هانتس. حيث كان، كما قلت، رجلًا مرحًا، وطيبَ القلب، في معاملاته. وقد نشرَت الشائعات قصة مغامراته المبهرة في كل مكان؛ مع مبالغةٍ وتكثيف لتحويلها من عاديةٍ إلى أسطورية. هذا وحده سحَر عقولَ الناس. ولكن مرة أخرى، فإنَّ الشائعات التي أخذت تومي جونسون تحت حمايتها، تمامًا كما أصابت كثيرين آخرينَ بلا حدود، بذلت أقصى ما في وُسعها لتصنع مزاياه. كلُّ عملٍ من أعمال اللطف التي فعلَها ضُخِّمت إلى ١٠٠ ضعف، وأصبحَ المهربُ العادي بطلًا. ولذا أعتقد حقًّا أن تومي جونسون كان من الممكن أن يحصل على ١٠٠ حُكم بالبراءة، في العدد نفسه من الجنايات المتعاقبة. أعتقد أنه لا يُمكن العثور على هيئة محلَّفين قد تنطق تلك الكلمة الفظيعة «مذنب» في لائحة اتهامٍ قدَّمَتها السلطاتُ ضدَّه.

عاد تومي جونسون، بعد تبرئته، إلى المنزل، في حالةٍ وصفَها عقلُ حكيم بأنها تخصُّ رجلًا أكثرَ حكمةً وحزنًا وفقرًا مما كان عليه قبل الجولة الأخيرة. ولذا عقَد العزم، على نحو يدعو للإعجاب، على عدمِ خوض مغامرةٍ أخرى. ولن يسعى، من خلالِ أخطار جديدة، إلى تعويض خَسارته. ومِن ثَمَّ دون أن يدَّعيَ لنفسِه شخصيةَ شاعرٍ، استمدَّ الفلسفة من هاملت، وعزمَ على تحمُّل العلل التي يُعاني منها بدلًا من السعي إلى أخرى، التي أخبرَه مُحاموه، أنه لن يستطيعَ النجاة منها. وهو سيلتزم بالسعي الآمنِ إلى جني الثروة برًّا،

ولن يستجيبَ لإغراءات البحر وأخطاره بالطريقة التي فعَلها. وخلال إحدى مُناجاته مع نفسِه حولَ هذه النقطة أدرك أنه قد جنى أموالًا من تلك الأخطار، لكنه كان يخشى أنه قد استنفَد حظَّه. لم يَعُد يستطيع تحمُّل فترات السجن الطويلة تلك، ولم يَعُد بإمكانه دائمًا إلقاءُ الآلاف في أيدي خفَرِ السواحل والمحامين. بشكلٍ عام، هو بالقطع مع الرأي القائل بأنَّ التهريب أمرٌ مرفوض، على عدة أصعدة، ولأسباب مختلفة؛ ولذا فقد عقَد العزم أخيرًا على الامتناع عن ممارسته، وأوفى بوعده هذا.

كتبَ السيد جونسون، بعد أقلَّ من أسبوعين (لكونه شديدَ الاهتمام، كما قال، بإبعادِ الأمر عن ذهنه) إلى محاميه للتأكُّد من المبلغ الدقيق المستحَق لذلك الرجل القدير والجدير. فردَّ المحامي برسالة، مما دفعَ السيد جونسون إلى الذَّهابِ إلى مكتبه وفي جيبه حوالي ١٥٠ جنيهًا.

قال المحامي، وهو يمدُّ يدَيه بودٍّ فاتر: «حسنًا، يا سيد جونسون، اجلس. أنا سعيدٌ برؤيتك يا سيد جونسون؛ سعيد جدًّا بالفعل. لم أكن أعتقد أبدًا أنني سأتمكَّن من النجاح في تبرئتك في المرة الأخيرة. إنك مدينٌ لي بشكلٍ كبير ولمستشاريك الممتازين، السيد نيدي والسيد سيلكيارن.»

قاطعه جونسون، على أملِ اختصار العِظة: «أجل، بالتأكيد؛ أنا ممتنٌّ لكم جدًّا، يا سيدي، بكل تأكيد.»

وتابعَ المحامي: «بالطبع، أنا ملزمٌ ببذلِ قُصارى جهدي من أجل موكلي الذي يُواجه أزمة. وأنا سعيدٌ لأنني نجحت في تبرئتك، لكن الوقاية خيرٌ من العلاج، كما تعلم، يا سيد جونسون.»

صاحَ الموكل الذي نَفِد صبرُه: «بالطبع.»

وتابعَ المحامي قائلًا: «واسمح لي يا سيد جونسون أن أُقدِّم لك بعضَ النصائح السديدة المجانية؛ نصيحة أخلاقية ودينيَّة، وكذلك قانونية. اسمح لي أن أؤكِّد لك أنه رغم أن رأيي هو أنك تعتقد عدم وجود ضررٍ في ذلك؛ فإن التهرُّب من سداد الجمارك هو جريمة مثله مثل سرقة فردٍ عادي.»

قال المهرب غير المُدان: «لا أظن ذلك.»

أجابَ المحامي: «بشرفي إن الأمر كذلك. فكِّر فيما أقول الآن. وتأمَّل الأمر، يا سيد جونسون، وسترى أنني على حق.»

«حسنًا، هذا أمرٌ يمكن بحثه في الغد. دعني أستوضح موقفنا الآن، كم هو المبلغ المستحَق لك، يا سيدي؟»

«أوه، آه! حسنًا، قلت إنني سأحصل على مائة جنيه في التسوية النهائية؛ أي: مائة وخمسة جنيهات، يا سيد جونسون.»

عدَّ جونسون الأموالَ نقدًا، وسلَّمها للمحامي الذي وضعها على طاولته.

تبعَ ذلك صمتٌ دام للحظة.

كسَره المحامي، الذي لم يفهم تمامًا ملامحَ موكله؛ وبما أنه كان يخشى أن السيد جونسون ربما يُفكر في أن الأتعاب باهظة، غيَّر السيد سويلينج الموضوع.

«والآن، آمُل في المرة القادمة التي تحتاج فيها إلى خدماتي أن تكون هناك حاجةٌ إليها لغرضٍ مختلف. فأودُّ أن أراكَ تجني المال، وتستثمره في الأراضي أو المنازل، واستعِن بي كي أُعِدَّ لك صكوك المِلكية.»

«أجل يا سيدي، سأفعل، عندما يُمكنني الحصولُ على المال لشراء الأراضي والمنازل.»

قال المحامي وهو ينهض ليَصرِف موكلَه: «حسنًا، حتى ذلك الحين، مع السلامة، يا سيد جونسون.»

«لقد نسيتَ يا سيدي، على ما أعتقد، أن تُعطيني إيصالًا؛ وأعتقد أنني لم أتلقَّ منك أي إيصال مقابل المال الذي دفعتُه لك في السجن؟»

«أوه، حسنًا، يا سيد جونسون. بالتأكيد يُمكنك الحصول على إيصال مختوم على النحو الواجب، إذا تفضَّلت؛ لكن آمُل ألا تفترض أنني أريد خِداعك؟ لا يروق لي الاعتقادُ بأنك تُكافئ خدماتي لك التي يحدوها اهتمامي بك بمثلِ هذا الشكِّ الظالم فيَّ على هذا النحو الذي تكِّنه لي في نفسك؟»

«كلا، يا سيدي. أوه، كلا. ليس هناك شيءٌ من هذا القبيل. فقط، مثلما كنتَ تقول إن التهرُّب من سداد الجمارك مثله مثل سرقة شخص عادي، اعتقدتُ (على الرغم من أنني لا أرى الأشياء تمامًا من هذا المنظور) أنه يجب أن تُعطيني إيصالًا.»

وهكذا فإن الفلسفة الأخلاقية للمحامي كلَّفَته ٧ شلنات و٦ قروش.

فعضَّ على شفته وجلس؛ وبما أن الإيصالات النقدية لم تُخترَع بعد، فقد كتب على ورقةٍ مختومة بالقيمة المذكورةِ أعلاه إيصالًا نظير كل الأموال التي دفعها له المهرِّب، الذي كان يستمتع بالمزحة التي يعبث بها مع مستشاره القانوني.

الاحتيالُ وفقًا لقانون البرلمان

أعتقد أن التجار في إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا، أو غُرف التجارة في المملكة المتحدة، قد يُنفقون مبلغًا معقولًا من المال على وضعٍ سيئ أكثرَ من الاستعانة بي للتوضيح، من خلال خبراتي، لبعض القوانين البرلمانية المعيبة، التي بموجبها، مثلما رأيت، تُرتكَب أعمال شريرة متكررة كبيرةٌ وأحيانًا ضخمة. سواءٌ أكان مفهوم أهميتي للمجتمع التجاري وللدولة مبرَّرًا أم لا بأيِّ شيء يُمكنني إظهاره، فقد يحكم القارئ من خلال ما يلي، وهو عيِّنة واحدة من المخزون في ذكرياتي.

أُخبِر تاجرٌ نزيه، ومكافح، وغير ثري، ولكنه ناجحٌ إلى حدٍّ ما، في مدينة لندن، منذ وقتٍ ليس ببعيد، أنَّ «شركة» معينة (السادة فولور وإنليفر)، التي لديها مكاتبُ، أو متجر، على بُعد أقلَّ من عدة مئات الأمتار من مانشن هاوس، وأقرب إلى حدٍّ ما من مسكنِ جوج وماجوج البارد، الذين لديهم مؤسسة في باريس، قد يُتاجرون معه في فئة معينة من البضائع. كان التاجر السيد براون، على الرغم من عدم قدرته على تحمُّل الخسائر، وبالتالي حذره إلى حد ما في الوقت نفسه، حريصًا بطبيعة الحال على القيام بأعمال تِجارية. ومِن ثَمَّ استفسر عن مكانةِ هذه الشركة. ولم يستطع صديقُه إخبارَه، لكنه قال إن صديقَيه الآخَرَين — السادة داوني وجرابل — لديهما أعمالٌ تِجارية مع هؤلاء الباريسيِّين المغامرين؛ وإن داوني هو مثالٌ يُحتذى به في الدقة، وإن السيد براون يُمكِنه أن يذهب ويطلب منه أن يقول بسرية ما يعرفه أو يعتقده عن الفَرنسيِّين. «إن داوني وجرابل شخصان راقيان، أؤكِّد لك هذا. فإذا قالا «كل شيء على ما يُرام»، فهو كذلك؛ وإذا قالا «لا تفعل»، فأنا أقول لا تثق في فولور وإنليفر، هذا كلُّ ما في الأمر.» فشكر براون صديقه.

في اليوم التالي، وبطبيعة الحال، ذهب براون إلى مكتب أو متجر فولور وإنليفر في لندن، الذي قد أوضح أيضًا، من أجل التحديدِ الجغرافي، أنه لم يكن بعيدًا عن المحكمة العليا للإغاثة، في شارع بازينجهول. وأخذ معه في جيبه عيناتٍ من بضاعته. كان وكيل المشتريات ومسئولها بالشركة الفرنسية في مكانه المعتاد خلفَ مِنضدة البيع.

في البداية، تبادل السيدان توضيحًا رسميًّا واستفسارًا أو اثنين.

«ما هي فئة البضائع التي تقول إنه يُمكنك تقديمُها لنا؟»

«أصواف الألبكا.»

«سيُفيدنا ذلك في سوق باريس في الوقت الحاليِّ، لكن يجب أن نحصل عليها بسعرٍ رخيص. لا نريد ائتمانًا طويلَ الأمد.»

«إنها كمية. يُمكنني أن أبيعها لكم مقابلَ سعرٍ نقدي منخفض أو ائتمان قصير الأمد.»

«شروطنا هي السداد النقدي خلال ثلاثين يومًا؛ ولكن دَعْنا نرَ عيناتِك.»

ومِن ثَمَّ وُضِعت العينات على منضدة البيع وفُحِصت بدقةٍ من قِبَل مسئول المشتريات، الذي وافق عليها. كان السيد براون أيضًا راضيًا (وفقًا للمراجع) بائتمان الثلاثين يومًا.

حيث قال وهو يُواصل الحوار: «حسنًا، أنا راضٍ تمامًا عن شروط الائتمان؛ ولكن نظرًا إلى أنَّ هذه هي أولُ معاملةٍ لي مع شركتك، أودُّ الحصول على مرجع، إذا كان مُرضيًا تمامًا وليس لديَّ أدنى شك في أنه سيكون، فسأرسل البضائعَ في الحال.»

«أوه، هذا صحيح تمامًا. دعني أرَ، مَن سأعطيك؟ هل تعرف داوني وجرابل؟»

«أجل؛ أنا أعرفهما جيدًا. هذا المرجع مُرضٍ تمامًا بالنسبة إليَّ.»

«اسألهما، إذن، عن رأيهما في فولور وإنليفر.»

ذهبَ السيد براون مباشرة إلى شركة داوني وجرابل للمحاسبة. حيث كان كلٌّ من عُضوَيِ الشركة غيرَ موجود. فعاود الذَّهاب مرة أخرى، وقابل العضوَين في هذه الشركة المحترمة للغاية.

دخل الزائرُ مباشرة في موضوع الأعمال الذي جاء من أجله.

«قيل لي إنكما تتعاملان مع فولور وإنليفر.»

«أجل.»

«إذن فسُمعتهم جيدة، أليس كذلك؟»

قال داوني بنبرة رقيقة: «نفترض ذلك، وإلا فلم نكن لنتعامل معهم.» وبينما هو يتكلم وجَّه عينَيه إلى شريكه.

فأضافَ جرابل: «ربما يكون الأمر أكثرَ إرضاءً لهذا السيد المحترم إذا عرَضنا عليه حسابنا مع الشركة التي يستفسر عنها. هيا، يا كلارك، أحضِر لي السِّجل.»

فأحضر له السِّجل. أظهرَ السجل مبلغًا كبيرًا مستحَقًّا من فولور وشركاه إلى داوني وشركاه.

قال براون: «أرى أنك تثقُ بهم. ومع ذلك، اعذرني لتدخلي في تفاصيلَ خاصةٍ بعض الشيء. أنا رجلٌ أفقرُ منك، وعلى الرغم من أنني حريص على القيام بأعمال تِجارية، فإنني يجب أن أحذر من التعامل مقابل ديون معدومة.»

سأله جرابل: «ما هو نوع البضائع التي تُتاجر فيها؟»

قال براون: «أصواف الألبكا.»

«آه، أجل؛ إنها مطلوبة في باريس هذه الأيام. قد تبيع شركة فولور كميةً ضخمة منها، في رأيي. إنها بدايةٌ جيدة لأعمالك معهم.»

سألَ داوني: «ما نوعُ الائتمان الذي يريدون؟»

قال براون: «ثلاثون يومًا.»

«إنه ائتمانٌ آمِنٌ مثل البنك. من المؤكَّد أنك ستحصل على أموالك في نهاية الشهر. أنا أعرف كلًّا من فولور وإنليفر. إنهما شابَّان ينتميان إلى عائلات راقية، وسُمعتهما مثل كوبستيكس أو مورليز.»

قدَّم براون الشكر لداوني وجرابل، وذهبَ في طريقه إلى متجره الصغير، مبتهجًا بالاعتقاد الواثقِ بأنه قام بعملٍ موفَّق، وأنه قد حصل على صفقة بقيمة عشرة جنيهات في ذلك الصباح.

ومِن ثَمَّ أرسل براون البضائعَ بسرعة ملائمة إلى فولور وإنليفر. لكنهما لم يُرسلا أصواف الألبكا إلى باريس من خلال وكيلهما، ربما لأنها كانت مطلوبةً في السوق المحليَّة. كان لدى الشركة الباريسية، كما يعرف داوني وجرابل جيدًا، مصدرٌ لتوزيع جميع أنواع المنسوجات، أو حتى المنتجات الخزفيَّة، أقربُ بكثيرٍ إلى فرعِ عملياتهم في المدينة من العاصمة الفرنسية. حيث كان هناك، في حي لندن ريالتو، متجرٌ يُديره عضوان طيِّبا القلب من إحدى قبائلِ بني إسرائيل، وفيه يُمكن الاعتناءُ بأي كميةٍ يمكن تصوُّرها من البضائع اشترَتها أي شركة أو متجر بالائتمان؛ حيث إن هذَين العبرانيَّين المحسنين يُمكنهما أن يخزنا في جميع الأوقات البضائع المذكورة أعلاه، كما يُمكنهما أيضًا صُنع معروفٍ والشراءُ من الأُمميِّين من

غيرِ اليهود عن طريق دفعات مقدمة (بالطبع مقابل تعويضٍ مادي، تحت اسم الفائدة) مع خَصْم نسبةٍ معينة من قيمة هذه البضائع. والآن، أيها القارئ، لا تُطلِق على هذه العملية اسمًا قبيحًا. إذا كنت قد قرأتَ القصص السابقة في مجلدي، فسوف تُدرك أن هذا النمط من توزيع البضائع لا يُسمى الرهن. إن هذه كلمةٌ بغيضة، لا ينطقها رجال المدينة أبدًا، أو يُسمَح لها بتلويث الهواء بين تمبل بار وألدجيت. يُسمَّى هذا النمط من زيادة النقد والإفلات بالسلع بالتعهُّد. أليس مصطلحًا جميلًا؟ أضفى الاسم بلا شك قدسية على العملية.

لقد تصادفَ الآن أنَّ رجلًا كان يُتاجر في مدينة لندن، وأجرى أعمالًا مع شركة فولور وإنليفر، الذي أُبرِم تعهدٌ بشأنِ بضائعه مع المحسنَيْن العبريَين، لم تُعجبه هذه العملية. لقد رأى بضاعته، التي ورَّدَها للفرنسيين المغامرين بناءً على واحدة من الشهادات الشفوية لداوني وجرابل، يُتاجر بها أبناءُ بني إسرائيل بأمان، وقرَّر أنه سيبذل قُصارى جهدِه ونفوذه لمنع سلع الرجال الآخَرين، المخصَّصة لباريس، من تحويلِ مسارها على هذا النحو. وقد اكتشف هذا الرجل، من خلال المراقبة والتحقيق، أن البضائع التي كانت تخصُّ براون مؤخرًا، والآن هي الممتلكات المشروعة لفولور وإنليفر، ليفعَلا ما يَحْلو لهما بها، قد أرسلت إلى المتعهِّدين. فذهب لزيارة براون، الذي رآه ضحيةً لهذه العملية، وقدَّم تفسيراتٍ تُوضح طبيعةَ شركة كلٍّ من فولور ومرجعهم. فانزعج براون بعضَ الشيء، لكنه لاحظ من الناحية الفلسفية أنَّ الأذى قد حدَث، ولم يكن هناك إمكانيةٌ لمنعه. في الواقع، كان رغم ذلك يأمُل، بِناءً على شهادة داوني، أن تُسدَّد الأموال الموعودة بأمانةٍ خلال ثلاثين يومًا في موعدها.

قبل اليوم الذي تستحقُّ فيه أموالُ السيد براون، أُغلِق الفرع الإنجليزي لمتجر فولور وإنليفر، وأُعيدت الرسائلُ الموجَّهة إلى المؤسسة الرئيسية في باريس من خلال مكتب الخطابات غير المستلَمة. حيث حُلَّت الشركة، وهَرَب أصحابها، ولم يتمكن أحدٌ من معرفة مكان وجودهم.

أدركَ السيد براون أنَّ أمواله قد ضاعت، ما لم يتمكَّن من جعلِ هذين الوغدين داوني وجرابل يدفعان الثمَن. كانت كلُّ أفكاره موجَّهةً إلى هذه النقطة. لقد شعر بالاقتناع التامِّ بأن هؤلاء التجَّارَ «المحترمين» يعرفون كلَّ شيء عن صديقيهم القادمَين من القارَّة، وأن الأمر يحتاج فقط إلى تحقيقٍ استقصائي لإثبات تواطؤ الشركات الذي تعرَّض من خلاله للاحتيال.

عند هذه المرحلة من القضية وُكِّلتُ للعمل عليها.

وسرعان ما كشفَت تحقيقاتي عن المؤامرة بأكملِها. لقد كانت تتمحورُ حول حقيقة بسيطة. لكنَّ الأحداث المحيطةَ بالقصة كانت فريدةً بشكل ملحوظ، ومثيرةً لاهتمام المجتمع التِّجاري.

في الواقع، لقد خُدع السادة داوني وجرابل في المقام الأول، وتعرَّضا للنصب في مبلغٍ كبير، من قِبل فولور وإنليفر. كانت قدرة الشركة الفرنسية على الإقناع تتفوق على حِرفيةً وبراعة هؤلاء الإنجليز، الذين ينحدرون في الأصل من مقاطعة يورك.

في أحد الأيام، قبل نحو أسبوعين من زيارة السيد براون متجر الفرنسيين بلندن، كان إم فولور وسيدة ريفية جميلة، لم تكن حرم السيد فولور، يسيران عبر أحد شوارع المدينة الهادئة، في وقتٍ ما بعد الظهر، قبل ساعات قليلة من مغادرة قطار المد، الذي كانا يعتزمان مغادرةَ العاصمة البريطانية على متنِه، عندما تلقَّى هذا الرجل الأنيقُ نقرةً على كتفه بأسلوب مهذب من قِبل رجل اتضَح، بمزيدٍ من التعارف، أنه ضابطٌ في شرطة لندن. ونُقل الفرنسي إلى مقرِّ احتجاز المدينَين الذي يترأَّسه هذا الضابط، رغم احتجاجه ودموع السيدة.

قدَّم الدائنون، السادة داوني وجرابل، إقرارًا مشفوعًا بقسَم بأنَّ المدين، السيد فولور، كان على وشك مغادرة البلاد بهدفِ إعاقة وتأخير استرداد الأموال التي يحقُّ لهم الحصولُ عليها؛ وبِناءً على هذا القسَم، أمر أحدُ القضاة المختصين باحتجاز الفرنسي حتى سدادِ المطالبة، أو تقديم ضمانٍ لسدادها، أو تصفية الالتزام في حالة الإفلاس.

هُرِع وكيل السادة فولور وشركاه إلى مكتب محامٍ ماهر، وطلَب منه بذلَ قُصارى جهده من أجل السجين. ومِن ثَمَّ التقى هذا الرجل بالسيد داوني ومحاميه في المقرِّ المؤقت للسيد إم فولور، حيث كان ذلك الرجل غيرُ المحظوظ حاضرًا. ولم يستغرق الشِّجار بينهم وقتًا طويلًا، أو مُنِعَ تقريبًا، لاعتبارات الحصافة.

ومِن ثَمَّ أدار محامي إم فولور المناقشةَ نحو اتجاهٍ عمَلي بأن قال لخصميه:

«أقول لكما بصراحة إنَّ موكلي لا يُمكن أن يُفرَج عنه بكفالة، ولن يُودَع السجن. وإذا لم تتقدَّما بطلب الإفراج عنه طواعية، فسأُقدم التماسَه بشأن الإفلاس. كان تصرفًا غبيًا من جانبكما أن تطالبا بسجنه. لا يُمكنه الحصول على المال ليدفع لكما أثناء وجوده هنا؛ ولكن إذا أُطلِقَ سراحه، فقد يفعل ذلك. إنه رجلٌ ذكي، ولن يتوقَّف للحظة، إلا إذا كنتما سخيفين بما يكفي لإيقافه. إذا تركتماه وشأنَه، مع الحرص على عدم الوثوق فيه بعد الآن، ولكن دون إحباطه أو تدميرِ سمعته، فقد يُسدِّد دَينه بسهولة في غضون شهرٍ أو شهريَن.»

لقد صُدِم السيد داوني ومُحاميه ببراعة الحجة، إن لم يكونا أُجبرا، لكنهما لم يقتنعا تمامًا بالإفراج عن المدين.

سأله مستشار السيد داوني: «هل يُمكنك أن تُقدم لنا أيَّ ضمان؟»

كان الرد المقتضَب: «كلا.»

فأضافَ محامي الدائن: «إذن لا أرى مَيزةً لإطلاق سراح موكلك.»

كانت المفاوضات ستنتهي عند هذه المرحلة، لولا ذهن الفرنسي الحاضر. إذ كان لديه موردٌ ذو قيمة. حيث يمتلك عقارًا صغيرًا في فرنسا ويدَّخره من أجل الظروف الطارئة. كانت قيمته تكفي لتغطيةِ ديون داوني وجرابل، على الرغم من صعوبة تسييله في هذا البلد. كما لم يكن يُحب أن يتخلَّى عنه، وهو ثروته الوحيدة، لشخصٍ غريب.

إنَّ أكثر ما يُميز الشخص الفرنسيَّ حرفيًّا هو أنه دائمًا عاطفي، ودموعه قريبة.

ولذا ذرف السيد فولور الدموع وهو يُوافق على التخلِّي عن هذا العقار الصغير المدَّخَر لدائنه المتصلِّب؛ وبعد أن استنفد عواطفه الطبيعية، عاد إلى العمل، واستُؤنِفَت المفاوضات.

ومِن ثَمَّ توصَّلوا إلى تسوية الأمر في النهاية، بناءً على تأكيد داوني، بموجب شرفِ رجلٍ نبيل، أنه سيفعل ما في وُسعه بعد ذلك لدعم شركة فولور وإنليفر — من خلال إعطاء مرجعياتٍ إيجابية لهم — وسيحصل هو وشريكه على تنازل عن ذلك العقار المدخر. واشترطَ الفرنسي العاطفي أنه عندما يُسدد المبلغ المستحَق لداوني وجرابل، كما كان يتوقَّع أن يفعل قريبًا، يجب على الدائنين إعادةُ نقل العقار إلى ملكيته مرة أخرى.

صدَّقَ الجميع على الميثاق من خلال تعهُّدات الشرف الرسمية.

وللحفاظ على المظهر العام، جرى الترتيبُ أنْ يذهبَ أحدٌ من شركة داوني وجرابل إلى فرنسا، ويتظاهرَ بإجراء استفساراتٍ حول مدى احترام شركة فولور وإنليفر لتعهداتها، ويُرسل برقيةً تنصُّ على أن «كل شيء على ما يُرام»، كمبرِّر لإطلاق سراح إم فولور. وسيرى القارئُ ضرورة ذلك. إذ لم يتمكَّن داوني وشركاه من المجازفة بالتحدث بشكلٍ إيجابي عن الرجل الذي تسببوا في القبض عليه؛ ما لم يجدوا أيَّ عذر لرأيٍ مختلف. وبالطبع لن يُخبر داوني وشركاه أيَّ شخص بالقبض على فولور، لكن هذه الحقيقة البغيضة قد تتسرَّب. كانت الصعوبة الأخلاقية التي يجب التغلُّب عليها هي كيفية التوفيق بين محتويات الإقرار المشفوع بقسَم، الذي قاد القاضي إلى الأمر بالقبض على الفرنسي، وبين الثناء اللاحق بعد ذلك.

لا داعي للقول إنه يجب عدمُ تَكْرار مرافعة محامي الفرنسي، وعدم ذكر الضمان الذي حصَلا عليه. كانت حيازة تلك الوثيقة علامةً واضحة على نقص تلك الثقة التي يقوم عليها الائتمانُ العادي. وبدا لجميعِ الأطراف أن التحقيقَ على الفور في مدى احترام الشركة الفرنسية لتعهداتها هو الطريقة الأكثر فاعلية للحصول على عرضٍ لتبرير الشخصية الجيدة التي يجب أن تُضْفى على المحتالين.

ومِن ثَمَّ ذهب داوني بالقطار والقارب التاليَيْن إلى باريس. وبصحبته السيدة التي كانت بصحبةِ إم فولور. ولم يذكر هذا الظرف الصغير، على ما أعتقد، للسيدة داوني؛ لأنها كانت شديدةَ الغَيرة.

في غضون مدَّة زمنيةٍ قصيرة على نحو لا يُصدَّق، أجرى السيد داوني جميع الاستفسارات التي اعتبَرها ضرورية، وتمكَّن من إرسال برقية الترحيب، «كل شيء على ما يُرام»، عبر أسلاك التليغراف، كما وعد.

في اليوم التالي، التقى فولور وداوني في العاصمة الفرنسية، وقضى اليوم التاليَ والذي يليه في المكانِ نفسِه. خلال هذا الوقت نظَّم فولور وإنليفر جولةً للتاجر الإنجليزي لزيارة المسارح، والمقاهي، والكازينوهات، والأماكن الأقلِّ شهرة، من أجل تقديم مزيدٍ من الأدلة على احترامهما وحصافتهما وموثوقيتهما التجارية.

كان داوني قد مرَّ بكل هذه الدائرة من التحقيقات، وعاد إلى منزله في لندن، قبل أن يزوره براون ليطلبَ رأيه في الفرنسيين. إنه لأمر مؤسف أن التاجرَين البريطانيَّين المحترمين، عندما قدَّما للسيد براون الشهادة التي بموجبها فقد بضاعتَه أو أمواله، لم يكشفا أسسَ ثقتهما بفولور وإنليفر. وكان ينبغي عليهما بالتأكيد عدمُ إخفاء الضمان الذي بحَوزتهما، أو إلقاء القبض على مَدينهما، أو بعض الأحداث الصغيرة الأخرى.

أعتقدُ أن عُضوَي شركة داوني وجرابل المحترمَين يستحقان العقاب كمجرمَين. ومع ذلك، يبدو أنه لا يوجد جزءٌ من القانون الجنائي يمكن أن يدينهما. علاوةً على ذلك، لم يكن من الممكن حتى الآن، من خلال سلطةِ مُحامٍ ذي سمعةٍ طيبة في مدينة لندن، استردادُ قيمة البضائع الموردة إلى شركة فولور وشركاه بِناءً على مرجعهم الإنجليزي، من خلال دعوى قضائية. لكني لم أنتهِ من تحقيقاتي بعد.

وبعد مدَّة وجيزة وقعَتُ بالصدفة على اكتشافٍ كبير. فقد حصلتُ على جميع المراسلات السرِّية بين إم فولور والمدير الإنجليزي لشركته. هذا الشاب، الذي أخطأ الآخَرون في حقه أكثرَ من خطئه هو، ساعدني أيضًا في تعقُّب جرائمِ أصحاب عمله وشركائهم أو مؤيِّديهم.

كانت المراسلات مثيرة للاهتمام للغاية. وكان فولور، وهو المراسل الرئيسي، يعرف اللغة الإنجليزية بالإضافة إلى لغتِه الأم، أو كان من حقِّه أن يُصنف بين أعلى المثقفين الفرنسيِّين. كان الأسى واضحًا. فقد احتوَت الرسائل على مقاطعَ مثل هذه: «نحن في ضائقةٍ مالية شديدة.» «اشترِ البضائع من أيِّ مكان، ثم بِعْها أو تصرَّفْ فيها بأيِّ طريقة، وأرسل لنا المالَ في باريس، وإلا فسنُفلس تمامًا.» وهناك أيضًا مبادئُ دنيوية ثابتة، من شأنِها أن تنسب الفضل إلى الكابتن باراباس وايتفيذر، مثل «لا تدفع نقدًا. إنه مبدأ سيِّئ. احصل على كل شيء عن طريق الائتمان.» ومع ذلك، كانت المقاطعُ الأكثر تميزًا هي تلك التي شرح فيها الفرنسي لوكيله الإنجليزيِّ كيف يجب التعاملُ مع جمعيات حماية التِّجارة أو خداعها أو رِشْوتها. ومع ذلك، من أجل مصلحة التِّجارة، يجب أن أُخفي هذا الجزء من الاحتيال.

وقد اتضح لي الآن، من خلال جمعِ كلِّ عناصر الحقائق وتوحيدِ الأدلة المكتوبة مع الشفوية، فإن قضيتي ضدَّ داوني وجرابل قد اكتملت. واستشرت محاميًا، أخذَ بدوره رأي مستشارٍ قانوني في الموضوع. وقد أوضحَ هؤلاء المختصُّون أن الأدلة ليست كافيةً لتدعيم الملاحَقة الجنائية، وفي الحقيقة لم يكن السيد براون يهتمُّ كثيرًا بذلك التعويض العقيم، بالنسبة إليه. لكنه أراد تعزيزَ رفاهية المجتمَع بطريقةٍ من شأنها تعويضُ خَسارتِه. لقد أراد إجبار داوني وجرابل على دفعِ المبلغ الذي خَسِره بسببهما، فقط من خلال توصياتهما، بالوثوق بالفرَنسيين. وحتى في سبيل تحقيقِ هذا، كانت هناك، كما يعتقد، بعضُ الصعوبات.

ذلك أن المحاميَ العجوز البارز، لورد تينتردن، منذ سنواتٍ طويلة مضَت، قد بذل الجهدَ لتوفير حَصانةٍ قانونية لأشخاص مثل داوني وجرابل. وكان ينبغي أن يكون السيد براون، بصفته إنجليزيًّا، قد أصبح على علمٍ بقوانين بلاده — إذ مِن المفترض أن كلَّ رجلٍ لديه كلُّ القوانين المكتوبة وغير المكتوبة، والعامة، والمدَنية، والجنائية محفورة على ألواح ذاكِرته — لكن السيد براون لم يكن يعلم أنه من الضروريِّ لسلامته تسجيلُ التوصيات العديدة للشركة الإنجليزية. وحتى لو كان يعرف الكثيرَ مما هو ضروريٌّ لسلامته، فربما يكون قد اعتمَد على الافتراض الخاطئ بأنَّ داوني وجرابل رجلان صادقان.

وعلى أملِ أن تكون هذه القضيةُ ذاتَ سماتٍ تُخلِّصها من تحت الدرع المؤذية للورد تينتردن، واعتمادًا على فكرةِ أنَّ داوني وجرابل لن يَجرُؤا على أن يدَعا القضيةَ تصل إلى محاكمةٍ علَنية، وأيضًا مع الاستعداد للمخاطرة بشيءٍ ما لمصلحةِ المجتمع التِّجاري، رفع السيد براون دَعْواه ضدَّ هؤلاء الرجال «المحترمين». لقد كلَّفه هذا القرارُ الكثيرَ من الأموال.

إذ كان عليه توكيلُ مستشار من الدرجة الأولى، لم تكن أتعابه قليلة. وهكذا وجَدَت القضيةُ مَن يُدافع عنها. وأدرك داوني وشركاه أن هذه ليست سِوى واحدةٍ من سلسلة دَعاوى، التي، في ظلِّ الظروف المماثلة، قد ترفع ضدَّهم. وفي المحاكمة أُثبِتَت بوضوحٍ كلُّ الحقائق التي ذكَرتها. حيث استنكَر المستشار المخضرم الذي قاد قضيةَ المدعي، بألفاظٍ حازمة، سلوك المتهَمين. وكان القاضي وهيئة المحلَّفين والحضور سُعَداء برؤية العدالة المالية تُطبَّق ضدَّ المخطئين. وفي ختام الأدلة التي تمكَّن السيد براون من تقديمها، جادَل مستشار المتهَمين بأنه ليس هناك قضيةٌ للردِّ عليها. حيث بنى دفاعه على قانون البرلمان. لكنه لم يُحاول إنكارَ الأسس الموضوعية لقضية المدَّعي. ولم يستطع الردَّ على الحقائق المثبَتة للإدانة. وحول السؤال الفني المجرد عمَّا إذا كان السيدان داوني وجرابل محصَّنَين بالقانون البغيض أم لا، دار جدال طويل، انتهى بإبداء القاضي رأيًا بأنه يأسف لأنهما كانا كذلك؛ وأن المدعيَ قد خسر دعواه.

لم تنجُ شركة داوني وجرابل المحترمة بانتصارها المدمِّر لوقتٍ طويل. فقد توقَّفَت عن الظهور في دليل لندن، ووجد أعضاؤها أنه من الضروري لراحتهم أن يُهاجروا بعيدًا، تلافيًا لسمعةٍ سيئة لا يُحسَدون عليها.

مراقبتي لإحدى الزوجات

إنَّ أحداث القصة التي أنا على وشك أن أحكِيَها هي من بين الأشياء الغريبة والمثيرة للفضول في تَجارِبي.

فقبل بضع سنوات، زارني رجلٌ نبيل لديه تَرِكة كبيرة، وهو أحدُ النبلاء الذين لا يحملون لقبًا في إنجلترا، وأوضح لي أنَّ لديه أسبابًا تدفعه للشكِّ في إخلاص زوجته. ولم أُقِرَّ قوة هذه الأسباب. كما أنه وصَف الحقائق التي بُني عليها هذا الإيمانُ الكئيب، ولو جزئيًّا، بخيانة السيدة أو عدم إخلاصها، ربما، بدقة حِرفيَّة صارمة، بأنها «تافهة للغاية».

ومع ذلك، فإنَّ هذا الشك يجب ألَّا يتجاهلَه تمامًا شخصٌ غريب في أول نظرةٍ على القضية. بدَت مكانةُ زائري في المجتمع، ومؤهِّلاته الفكرية، وعاطفته تُجاه زوجته، كضمانات بأنه لن يدينها دون سبب. كما أنه، لم يُؤكِّد بثقةٍ أنها مذنبة. كلُّ ما كان لديه، أو ادَّعى أنه لدَيه، هو شك. وقد أخبرَني أنه ليس هناك ما يُسعده أكثرَ مِن وجود دليلٍ يُؤدي إلى الاقتناع التامِّ بأنه كان واهمًا بشأن الزوجة.

ربما يكون من الجيد وصفُ الممثِّلين في هذه الدراما الصغيرة المثيرة للفضول وصفًا كاملًا. حيث كان السيد بيرسيفال هو الابنَ الوحيد لمالكِ أراضٍ ثريٍّ ومتزايد الثراءِ في مقاطعة ساسكس. ونتيجةً لذلك، فقد وَرِث تركةَ والدِه بالكامل، بالإضافة إلى مبلغٍ كبير من المال، واستثمارات كبيرة في الصناديق المالية العامَّة وغيرها من الأوراق المالية الموثوق فيها. وقد كانت هناك عنايةٌ جيدة بتعليمه. لكنه فقَد والدتَه عندما كان يبلغ من العمر ١٤ عامًا فقط، ومن المحتمل أن شخصيتَه عانت من نقصِ التأثيرات التأديبية لرعاية الأم. ومع ذلك، كان هذا هو العيبَ الوحيد، إذا كان عيبًا، في تنشئته. كان والده يُراقب سلوكه باهتمامٍ في مرحلة شبابه. فقد تلقى تعليمه في إيتون، حيث برَع في أكثرَ من فرعٍ دراسي.

وحصل على مرتبة الشرف في أكسفورد. لقد كان نوعًا متفوقًا من الطبقة المعروفة باسم «رجال الريف». وكانت عاداتُه هي عاداتِ رجل الثقافة ورجل الثروة.

أما السيدة بيرسيفال، فهي سيدة طيبة، رغم أنها فقيرة نسبيًّا. يحمل والدها لقبَ إقطاعي أيرلندي، لكن إيجار الأراضي لم يكن كبيرًا جدًّا، وكان بحاجة إلى إدارةٍ حاذقة لمنعها من الوقوع في القبضة المدمرة لمحكمة العقارات المرهونة. ومع ذلك، ومن مواردهما الضئيلة، منحها والداها تعليمًا عاليًا. حيث كانت تُجيد الرسم، وماهرةً في عزف الموسيقى، كما أنها فارسةٌ أنيقة، وبخلاف ذلك كانت بارعة. وكانت أخلاقها حرَّة وطبيعية، وأحيانًا ما تكون شبيهةً بالأطفال أو مبتهِجة. وكانت أطولَ قليلًا، وقليلًا فقط، من متوسِّط قامات بناتِ جنسها؛ ورشيقة المظهر، وذات وجهٍ لطيف. ولو كنتُ خبيرًا في الرسم بالكلمات، مثل روائي، لوصفتُ هذه السيدة بأنها امرأة شبهُ كاملة.

سيفهمُ القارئ أنني، في هذا الوصف، استبقتُ القصة حتى أُطلِعَه على المزيد عن السيدة والرجل أكثرَ مما يُمكن أن أتعلَّمَه في غضون شهرَين.

«اعذر لي صراحتي، يا سيدي، كما آمُل، لكنني لا أرى أساسًا لشكِّك في زوجتك.»

«أنا معجبٌ بصراحتك. إنها مطمئنة. قد أكون مخطئًا. أنا أصلِّي بإخلاص كي يتضحَ أنني كذلك. لقد قيل لي، إن لديك خبرةً كبيرة في مثل هذه الأمور العائلية المؤلمة التي أُزعجك بها الآن. إن استشارتك تُمثل بالفعل مصدرَ ارتياحٍ كبيرًا لي. وإذا استطعتَ إزالةَ الشكوك الفظيعة التي تُثقل كاهلي، فسأقدِّر معروفك للغاية؛ لكن دعني أعرِفُ الحقيقة، أيًّا كانت.»

ومِن ثَمَّ رجَوتُه مرة أخرى أن يكون أكثرَ دقةً مما كان عليه في توضيح سبب شكوكه بالتفصيل.

«بكل ثقة، يُمكنني القول إننا كنا في حفل عشاء في منزل السيد تالبويز، في سيمور بليس، الأسبوع قبلَ الماضي، وكان من المستحيل تجنبُ ملاحظة تصرفها بحرية مع اللورد الشاب سويلينجتون والعقيد فورشور.»

قلتُ له: «العقيد! إنه رجل في الستينَ من عمره. لقد كان بطلًا في الخدمة العسكرية، وهو «بطل» في كلِّ حفل هذه الأيام، حسبما سمعتُ. أليس من الممكن أن تكون اتهاماتك لزوجتك مجردَ مجاملات تجد كلُّ النساء الحقيقيات بهجةً في منحها مَن هم في مثل عمره وشجاعته؟»

«قد يكون هذا التفسيرُ صحيحًا؛ ولكن كيف تُفسر مزاحها مع ذلك الشاب الأخرقِ المغرور والتافه، اللورد سويلينجتون؟»

«قد يكون مزاحًا بريئًا ومعاملةً ظريفة من امرأة مهذبة. السيدات أحيانًا يجدن بهجةً شديدة في المزاح، لمجردِ إضاعة الوقت، مع الشخص الأخرق، في أيِّ طبقة من المجتمع قد يوجَد فيها.»

«أتمنى مخلصًا أن تكون على حق؛ لكن للأسف لم تكن هذه هي الأسبابَ الوحيدة لحزني. زوجتي مغرمة جدًّا بالاستمتاع. وقد ذهبنا مؤخرًا إلى حفلتَي إفطارٍ عامَّتَين، إحداهما لدى السيدة دبليو ... في كيو، والأخرى لدى الماركيزة ... في تشيسويك.»

«هذا يكشف — واعذرني لاقتراحي، في ظل التقدير الأكثر سلبية، وعقلانية في الوقت نفسِه، للشخصية البشرية — شيئًا من اللطف، بما يتفق تمامًا مع نقاء القلب والاستقامة الشديدة في السلوك.»

«يُسعدني أن أقول إنك مفسِّر متسامحٌ للسلوك البشري.»

«في الواقع كنت لا آمُل ذلك؛ فعلى الرغم من أنني رأيتُ الكثير من الشر، وقدرًا كبيرًا من الجرائم الغامضة، وكذلك الواضحة، فقد واجهتُ العديد من الحالات التي أدَّت فيها الشكوك الظالمة إلى حدوثِ كوارث. ولكن هل هناك أيُّ شيء في سلوك زوجتك لتبريرِ شكوكك بشأنها، وإذا كان الأمر كذلك فما هو هذا الشيء؟»

«حسنًا، لقد كانت تُغازل كلَّ رجل نبيل موجودٍ في كل حفلة، صغيرًا وكبيرًا.»

«كل رجل نبيل؟»

«أجل، تقريبًا.»

«هذا يكفي لإظهار عدم صحةِ مخاوفك. ربما كانت السيدة بيرسيفال مفعَمةً جدًّا بالحيوية، لكني أظن أن تصرفها بحرِّية نابعٌ، في جزءٍ كبير منه، من إدراكها أنها لا تفعل ما يُعَد ذنبًا ومن تحكُّمِها الذاتيِّ في أخلاقها.»

«مرة أخرى أقول إني آمُل أن تكون على صواب، وأن أكون مخطئًا.»

«لماذا التركيز على هذه الكلمة؛ آمُل؟ هل لاحظتَ أيَّ حالات أخرى لما تعتبره تصرفًا غيرَ لائق من زوجتك؟»

أجابَ بحسرة: «أجل.»

«أخبرني عنها.»

«منذ عدة أيام، حثَّتني زوجتي على اصطحابها إلى معرض الزهور الذي أُقيمَ في حدائق جمعية بوتانيك سوسايتي، في ريجنتس بارك.»

قاطعتُه متسائلًا: «طلبَت منك أن تأخذها إلى هناك؟»

«أجل، وقد فعلتُ ذلك. فأنا أمنحها كلَّ ما تشاء؛ ولِمَ لا، ما دمتُ لستُ متأكدًا من أن عواطفها قد ضلَّت أو أنها خائنة؟»

«هذا صحيحٌ تمامًا؛ ولكن هل حدث أيُّ شيء هناك؟»

«ربما قد لا تعتبره أنت شيئًا مهمًّا. لقد أمسكَت بذراع العقيد فورشور لبضعِ ساعات.»

«العقيد الهندي العجوز؟»

«أجل.»

«حسنًا، في الواقع، لا أرى أيَّ شيء في ذلك. لقد تصادفَ أن حضرتُ ذلك المعرض مع زوجتي السيدة فوريستر وأحد أقاربنا المرموقين. وأتذكر أنه كان من بين الأزهارِ عدةُ نباتات شرقية، نجحَ زارعو الأزهار لدينا في استنباتها هنا في بلدنا. هذا واحدٌ من أكثر الأحداث شيوعًا في أي معرِض زهور.»

«أتمنى أن أتمكنَ من النظر إلى هذه الأشياء كما تنظر أنت. إنَّ حدثًا واحدًا من هذا النوع ربما لم يكن قد أثار مخاوفي؛ ولكن العديد منها، وفي أوقات مختلفةٍ، يقدم دليلًا كليًّا تستحيل مقاومتُه.»

«كم مضى على زواجك؟»

«أكثر من عامَين بقليل.»

«هل أنجبتما أطفالًا؟»

«كلا.»

لقد كنتُ مقتنعًا تمامًا، مثلما يجب أن يكون القارئ، أنه ليس هناك في الواقع شيءٌ في سلوك السيدة بيرسيفال يُبرر الشكوك القاسيةَ لزوجها. ولذا رأيتُ أن تعيينه لي سيصبح من أكثر الأشياء التي يُمكنه القيام بها سخافةً.

هل يجب أن أقبل تعيينه لي؟ هل يجب أن أسمح لنفسي بأن أُستخدَم كجاسوسٍ على تحركات زوجته بينما أنا مقتنعٌ بشدة ببراءتها؟

يمكن كشفُ غموض هذه الغيرة من خلال تفسير بسيط. كانت السيدة قد وُهبَت بطبيعتها مزاجًا متقلبًا إلى حدٍّ ما، لم يفعل تعليمُها الكثيرَ لتقويمه منه. كانت المشاهدُ نفسُها التي قضَت طفولتها فيها مصدرَ إلهام لها للميل نحو التصرف الجامح أو اللعوب. ولم يحدث أيُّ شيء في حياتها الزوجية حتى الآن للتحكُّم في المرحِ البريء في شخصيتها أو الحدِّ منه، والذي قد يكون غيرَ اللائق. ولو أنَّ زواجها بالسيد بيرسيفال قد بورك من خلال الرزق بأطفال (الأمر الذي لا داعي للقول إنه لم يكن هناك حتى الآن سببٌ لليأس

من حدوثه)، لكان مِن المرجَّح أنها ستُصبح عضوةً أقلَّ جاذبية في حفلات العشاء، وأقلَّ ثرثرةً أو مرحًا في حفلات الإفطار، وأقل اهتمامًا بالاستفسار في معارض الزهور.

لكن هل يجب عليَّ، أو لا، أن أتعهَّد بتأكيد شكوك الزوج غير المنصف أو إزالتها؟

وهكذا لم أستطع أن أحسم أمري بهذا الخصوص. وطلبتُ مهلة للتفكير. واتفقتُ مع السيد بيرسيفال على أن يزورني مرةً أخرى في غضون ثلاثة أيام.

خلال المدَّة الفاصلة بين زيارته الأولى والثانية، أجريتُ بعناية موازنةً بين الأسباب المؤيِّدة والمعارضة لتولِّي المهمة، وقرَّرتُ قَبولها في نهاية الأمر. وإنْ لم أفعل ذلك، كنت أعرف أن هناك آخرين سيفعلون، إذا عُرِضَت عليهم المهمة. وإذا تولَّوا التحقيقَ فيها، فلم أكن متأكدًا على الإطلاق من أنهم سيُؤدُّون مهمتهم بدقةٍ ومراعاة. فاعتقدتُ أنه من المحتمَل الاستعانةُ برجل فظٍّ أو وقح، وأنه قد يُفسر، من خلال البدء في تحقيقه باستنتاجٍ مسبق أن السيدة مذنبة، ما رآه من تصرفها بحرية تفسيرًا يَزيد من غَيرة زوجها. ومن ناحيةٍ أخرى، إذا تولَّيتُ هذه القضية، فلم أكن لأشكَّ في أن النتيجة هي تبرئة السيدة بيرسيفال في نظر زوجها.

حافظَ السيد بيرسيفال على موعده معي بدقة.

وقد بدأ هو الحديث.

فقال: «آمُل أن تكون قد وافقت على مساعدتي.»

«لقد وافقَتُ بالفعل.»

«حسنًا، سأكون ممتنًّا لك عندما تكشف الحقيقة؛ وسيكون امتنانًا مضاعفًا إذا تمكنتَ من إثبات أن شكوكي بشأن زوجتي لا أساسَ لها من الصحة.»

«أتوقعُ أن أحصل على هذا الامتنان المضاعَف.»

قال بتأكيدٍ كبير: «ليكن ما يكون. ليس هناك ما يَعيبك مِهنيًّا، حسبما أفهم، أنك قد كوَّنت بالفعل رأيًا مفاده أن زوجتي صالحةٌ بقدر ما أتمنى لها، وأنني أحمقُ غيور. وبالطبع لن يُعجبني أيضًا أن تُدينها إدانةً مسبقة. أنا على قناعة بأنك ستُؤدي واجبك تجاهي بإخلاصٍ وتجاهها بمراعاة الحيادية.»

وقد وعدتُه بفعل ذلك.

كان هناك حفل في النادي الاجتماعي «ألماك» في اليوم التالي. وكانت السيدة بيرسيفال ستحضره، وكذلك زوجها. لكنهما سيذهبان كلٌّ على حِدَة، تبعًا لقواعد البروتوكول السائدة؛ هي في عرَبة تجرُّها الأحصنة، وهو في عربته المكشوفة.

لم أكن أعتقد أن ناديَ «ألماك» هو مكان مرغوب فيه لبدء تحقيقاتي. لن يكونَ من السهل بالنسبة إليَّ أن أحصل على الإذن بدخول هذا المكان الضيق لكلِّ التجمُّعات، على الرغم من أنه بإمكاني إنجاز ذلك، كما فعلتُ من قبل. ولذا، فضَّلتُ موقع مراقبة تكون فيه الآدابُ الاجتماعية أقلَّ صرامة.

في الأسبوع التالي، كان من المقرَّر أن يُقام حفل تنكُّري كبير، تحت رعاية هيئة مؤثرة من السيدات الراعيات، للتخفيف من الجوع في وايت تشابل؛ ورأت السيدة بيرسيفال، إيمانًا منها بالأعمال الخيرية التقليدية، أن من واجبها أن تشتريَ تذكرة (مقابل سعر جنيه واحد، الذي يحصل المحتاجون على جزءٍ ضئيلٍ منه)، وأن ترعى صانع الفساتين وصانع القبعات بمبلغٍ أكبر، كدليلٍ على تعاطفها الشديد مع الفقراء الجائعين.

لقد حضرتُ ذلك الحفل، وقد شعرتُ بالغثيان من الاستهزاء الملموس بالضائقة التي صُمِّم الحفل ظاهريًّا للتخفيف منها؛ لكن يجب ألَّا أخرج عن مسار قصتي كي أعظ.

في ذلك الحفل لم أرَ أيَّ تصرف غير لائق من السيدة بيرسيفال يدعو إلى الشك، وكذلك في مَعرِض الزهور الذي أُقيمَ في ساحة كريستال بالاس في سيدنهام؛ وفي حفل إفطار عام أقامته الماركيزة لـ ... في حديقة منزلها في تشيسويك. كما أثبتَ المزيدُ من المراقبة الدقيقة على نحوٍ خاص لتحركات السيدة أنها سيدةٌ فاضلة للغاية.

لقد أُصِبتُ الآن بالتعب والاشمئزاز من مهمتي، وأنهيتُ المهمة بإبلاغ السيد بيرسيفال باقتناعي المطلَقِ ببراءة زوجته وعفَّتِها. وقد تلقى تقريري دون إبداء أيِّ رأي فيه، وكان واضحًا أنه غيرُ راضٍ عنه تمامًا. في رأيي، أضعفَ تقريري شكوكَه، لكنه لم يقضِ عليها. كنت آسفًا للنتيجة غير الكاملة، لكنني لم أستطع فعلَ أكثر مما فعلت لإرضائه.

غالبًا ما كنت أفكر في هذه الحالة الغريبة وأتأمَّل فيها. ما الذي يمكن أن يُثير هذه الشكوكَ في ذهن رجلٍ مثل السيد بيرسيفال؟ كانت الإجابة من وجهة نظري هي عدم التوافق المزاجي. فقد كان رجلًا جادًّا وخَجولًا إلى حدٍّ ما. بينما زوجته، رغم أنها امرأة صالحة، كانت شخصيةً مَرِحة ومتقلبة إلى حدٍّ ما. وأستطيع التأكيد أن هذا زواجٌ غير متكافئ في كثير من النواحي. وأعتقد أن البؤس الحتميَّ هو مصيرُ هذا الزوج وتلك الزوجة في المستقبل.

بعد مرور ما يقرب من عامٍ على انتهائي من تلك المهمة مع السيد بيرسيفال والسيدة زوجته، زار مكتبي محامٍ بارزٌ في لندن، لم يكن يعلم شيئًا عن مهمتي السابقة، بغرض تتبُّع انسحاب ذلك الرجل، الذي هجر زوجته، وكان يختبئ من جميع أصدقائه. إذ لم

يسمع زائري، وهو المحامي الخاص للسيد بيرسيفال، أيَّ أخبار عنه منذ فِراره. ليس من المفترض أن يكون قد تعرَّضَ لأيِّ عنف، رغم أنه كان من الصعب تحديدُ الأذى الذي ربما لحق به. كان طبيبه قد أشار إلى أنه يُعاني من واحدٍ من آلاف الأشكال لواحد من مئات الفروع من هذا الاضطراب المعروف باسم الجنون الجماعي المألوف. وهو نوعٌ خفيف وغير ضارٍّ من المرض؛ نوعٌ من الاكتئاب الشديد. كان أصدقاء السيد البائس حريصين على اكتشافِ مكانه، وربما مراقبته سرًّا؛ وفي أسوأ الأحوال، وضعِه تحت التحفُّظ اللطيف والمؤقَّت. ولكونه معروفًا بأنه رجل ذو طموحٍ عالٍ ومشرِّف — من المرجح جدًّا أن يحصل على مقعدٍ في البرلمان ويشغله بجدارة، ما لم تُدمَّر فرصه — استُنكِرَت الدعاية أو الفضيحة أو القيل والقال، حول موضوع فجيعته.

ومِن ثَمَّ قَبلتُ هذه المهمة، واعتقدتُ أنه من المستحسن إطلاعُ المحامي على المهمة السابقة التي كلَّفني بها السيد بيرسيفال، حتى يتمكنَ من إعادة ذكر الحقائق للطبيب، الذي سيحصل بِناءً على ذلك على بعض الأفكار حول سرِّ فجيعة الرجل النبيل.

لم يكن لدينا أيُّ دليل على مكان وجود السيد بيرسيفال. وقادتنا بعضُ الحقائق إلى تصورِ أنه لم يُغادر هذا البلد. لكنني أبقيتُ نفسي على اتصال مع الشرطة الفرنسية والبلجيكية، كأفضل طريقة لتعقبه إذا كان قد عبَر البحر. وقد فحصتُ بدقة جميعَ الأوراق المحلية حول المفقودين والمقدَّمة في مقاهي بيلي وديكون، بحيث أعلم بأيِّ ضررٍ إذا أصابه. وكان هذا إجراءً احترازيًّا أضفتُه إلى تحقيق الشرطة المعتاد من خلال إعلانٍ مكتوب.

وذات يوم حصلتُ على معلومات من خلال صحيفة في غرب إنجلترا تُفيد بأن رجلًا نبيلًا، تنطبق عليه صفاتُ السيد بيرسيفال، قد عُثِر عليه وهو يتجول عبر الساحل، في حالةٍ تُشير إلى اضطرابٍ عقلي. فلم أُضيِّع الوقت وسارعت بالتوجُّه إلى المكان، مع الطبيب والسيدة بيرسيفال، التي أصرَّت على أن تذهب معنا.

ومِن ثَمَّ استعَدْنا المسكين الذي استسلم لسيطرتنا مثل الرضيع. وأحضرناه إلى لندن، وأخَذْنا له منزلًا في الضاحية الغربية، حتى يكون بعيدًا عن أعين النمَّامين، وقريبًا من طبيبه. ربما، لا داعيَ للقول إن زوجته كانت ترعاه بنفسها في الأساس، ولم تسمح لأيِّ شخص آخر سواها بخدمته. وحصل المريضُ على فترات لركوب العربة، وأداءِ تمارينَ خفيفة، وتناول أدوية مقوية يومًا بعد يوم؛ حتى إنه في غضون أسابيعَ قليلة، وتحت رعاية الطبيب، اتُّخِذت الترتيبات لنقله، في يخته الخاص، إلى شمال أوروبا.

وقد أوضحَ لي الطبيبُ أن سرَّ مرضه هو خيبةُ الأمل أو الطموح بنفاد صبر. حيث كان الابنَ الوحيد. وقد ورثَ، إضافةً إلى تركة والده، رغبةَ ذلك الرجل في تأسيس عائلة. ومِن ثَمَّ خشي أن تكون لعنةُ العُقم قد أصابته هو أو زوجتَه، كما أن التفكير المستمرَّ في هذا الأمر قد زاد الغيرة في قلبه.

وفي شمال أوروبا استعاد السيد بيرسيفال صحته العقلية بالكامل. وعند عودته إلى إنجلترا زارني، وشكَرني بصدقٍ شديد على الدور الذي لعبته في القصة التي ذكَرتها؛ مشيرًا إلى أنه إذا كان أيُّ شيء يمكن أن يتجاوز امتنانه للاهتمام الذي أوليتُه له، فسيكون الطريقةَ المخلصة التي كافحتُ بها وسعيتُ إلى تدمير شكوكه التي لا أساسَ لها من الصحة في زوجته. وقال إنها المرأة الفضلى أو الأكثرُ نبلًا على الإطلاق. وكان يخشى أن تكون قد أضرَّت بصحتها بسببِ اهتمامها اليقِظ به أثناءَ مرضه؛ لذا فالحزن الوحيد الذي يشعر به الآن هو التخوُّف، لكونها حامِلًا، من أن التغيير في الجو والسفر إلى شمال أوروبا، الذي أُوصي به للتوِّ من أجلها، لن يكون كافيًا لإعادة الحيوية والقوة إلى جسدها الحسَّاس. ومع ذلك، فأنا سعيدٌ لأن في مقدوري القول إن هذه المخاوف لم تتحقَّق. إذ إن السيد والسيدة بيرسيفال، وهما من بين أسعدِ الناس في العالم (لأن صحة كِلَيهما، من حيث العقلُ والجسدُ على حدٍّ سواء، في أحسن حال)، قد رُزِقَا بولدَين، مع احتمال الإسهام بمزيدٍ من الضمانات التي تكفُل عدم انقطاع شجرة عائلتهما عن الإثمار في هذا الجيل.

هنداوي